منهج الرسول ﷺ في إدارة الأزمات

د. مصطفى عطية جمعة

الكتاب : منهج الرسول ﷺ في إدارة الأزمات

المؤلف : د. مصطفى عطية جمعة

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٨

رقم الإيداع : ١١٧٤ / ٢٠١٨

الترقيم الدولي : I.S.B.N : 978 - 977 - 493 - 294 - 6

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٢٧ ش الثلاثين. برج الشانزليزيه. زهراء المعادي. القاهرة

ت فاكس : ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net



منهج الرسول ﷺ في إدارة الأزمات

د. مصطفى عطية جمعة

إهداء

إلى الشهداء...

شهداء الأُمة والوطن

قال تعالى:

{ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا • لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا }

محتويات الكتاب

مقدمة

يشكِّل علم إدارة الأزمات أحد العلوم الإنسانية الحديثة، والذي يعتمد على فن التعامل مع الأزمة ساعة وقوعها، وسبل إدارتها بشكل صحيح من أجل حلها، وتلافي نتائجها السلبية، وعلاج الخسائر الناجمة عنها ، والأهم الخروج بدروس مستفادة لمنع تكرار الأزمة مستقبلا ، ومعالجة الأزمات المتشابهة، وتكوين خبرات تراكمية لدى المسؤولين وصُنَّاع القرار في مواجهة مثل تلك الأزمات.

ولاشك أن هذا العلم ليس ابتكارًا حديثًا في مفهومه ومقاصده ، وإنما الجديد فيه وضع آليات لمعالجة الأزمات تكون خاضعة للتفكير العلمي، وانتهاج نهجًا علميًا صحيحًا في الأزمات، يهدف إلى معرفة أسباب المشكلة، وظواهرها، وسُبل علاجها علاجًا جذريًا، يتدارك عواقبها، مبتعدًا عن الهوى الشخصي والذاتي في المعالجة.

فمنذ ظهور الإنسان على الأرض وإلى يومنا، لا تنقطع أزماته، فمنها ما يعود إلى قوى خارجية مثل الأزمات الناتجة عن الكوارث الناتجة عن ثورات الطبيعة، ومنها ما يعود إلى المجتمع الإنساني الذي يعيش فيه الفرد ، فيما يسمى الأزمات الاجتماعية ، وثالثة تعود إلى الإنسان نفسه ، بما يُسمى الأزمات النفسية. وقد تتعدد وجوه الأزمة وأبعادها وأيضًا نتائجها ، فالأزمة الناتجة عن كارثة طبيعية ، ستسبب - بلا شك - أزمات نفسية واجتماعية ، قد يطول أمدها ، وقد تنتهي سريعًا ، أما الأزمات الاجتماعية فلها ظلالها النفسية دون شك.

وعديدة هي الدراسات والبحوث التي تناولت علم إدارة الأزمات من جوانب كثيرة : اقتصادية ، واجتماعية، ونفسية، وطبية، وسياسية، وإدارية... إلخ، وقليلة هي الدراسات التي سعت إلى تأصيل هذا العلم من الجانب الديني الشرعي، وهذه هي غاية دراستنا، أن نساهم في تأصيل هذا العلم إسلاميًا ؛ بالبحث في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة وآثار السنة المطهرة ، في ضوء مفاهيمه ومراميه ، والتي لا شك ستقدم تأصيلاً إسلاميًا يفيد صناع القرار والخبراء المعنيين بهذا العلم الآن ، ويجعلنا نخرج بالكثير من الدروس والقيم المستفادة في ضوء تناول هذا العلم من المنظور الشرعي.

ونحن - المسلمين - في أشد الحاجة إلى هذا العلم في منظوره الحديث ، وفي تأصيله الشرعي الإسلامي، فكثيرة هي الأزمات التي ضربت المجتمعات الإسلامية، وقليلة هي المعالجات الصحيحة لها، مما أدى إلى استفحالها وتعقد حلولها. ويعود هذا إلى افتقاد كثير ممن بيدهم الأمور ، وأيضًا المسؤولين لثقافة إدارة الأزمة ، ناهيك عن عدم تعميقها لديهم في ضوء شريعتنا ، وثقافتنا العربية الإسلامية ، وهذا سيتيح - بلا شك - أن تكون الحلول المطروحة ذات نهج علمي وإجراءات عملية ، تنهل من معين إسلامنا الحنيف ، وثقافتنا الأصيلة ، التي تنطلق من حاجة البشرية إلى الشريعة ، والتي تعتمد في مبناها على "تعريف مواقع رضى الله وسخطه في حركات العباد الاختيارية، فمبناها على الوحي المحض... أما ما يقدَّر عند عدم الشريعة ؛ ففساد الروح والقلب جملة، وهلاك الأبد،

وشتان ما بين هذا وهلاك البدن بالموت، فليس الناس قط إلى شيء أحوج منهم إلى معرفة ما جاء به الرسول ﷺ ، والقيام به، والدعوة إليه، والصبر عليه... وليس للعالم صلاح بدون ذلك البتة، ولا سبيل إلى الوصول إلى السعادة والفوز الأكبر إلا بالعبور على هذا الجسم "[1]، وهذا إيماننا، وتلك قناعتنا وأسس ثقافتنا، فلا تكون خطط الحل تغريبية التوجه، مأخوذة من ثقافات مجتمعات أخرى ، وإنما جامعة ما بين العلم المجرد في نهجه وآلياته وخططه، وبين هوية ثقافتنا وقيم مجتمعاتنا، والعادات والتقاليد التي درجت عليها شعوبنا، والخبرات والتجارب المتراكمة في تاريخنا.

وقد اعتمد البَحْث المنهج الاستِقْرائي التَّحليلي بتتبُّع المسائل والقضايا من مظانِّها في كتُب التفسير والأحاديث والفقه وتقديمها بأسلوب تحليلي نَقْدي، وأيضًا تأصيل الآراء علميا من المصادر والكتب المختلفة، مع ربطها بالرؤية الإسلامية الأصولية المستهدفة في البحث، والوقوف عند بعض الآيات التي تحمل إرشادات في معالجة الأزمات، وتحليل المشكلات التي واجهها الرسول ﷺ في ضوء علم إدارة الأزمات؛ بغية الوصول إلى النهج النبوي في مواجهة الأزمات، من أجل الخروج برؤية إسلامية واضحة، لإدارة الأزمات، والقيم المستفادة في هذا الأمر.

وجاءت خطة البحث مستهدفة بحث محاور عديدة، أولها : عرض مفاهيم علم إدارة الأزمات وآلياته وأبرز العلوم المتصلة به بشكل موجز. ثانيها: دراسة موجزة للتوجيهات القرآنية بشكل عام، فالقرآن مصدر شريعتنا وأساس ثقافتنا، ومعين حضارتنا. ثالثها : دراسة التوجيهات القرآنية لبعض المشكلات والأزمات التي واجهت الرسول ﷺ ، للتعرف على النهج القرآني السامي في توجيه الرسول. رابعها : دراسة الأحاديث النبوية الشريفة التي تناولت مختلف الأزمات التي يمر بها المرء في حياته.

لذا، استهلت الدراسة بتمهيد حول علم إدارة الأزمات في مفهومه ونشأته وتقاطعه مع علوم أخرى مثل علم الإدارة، والسياسة، والاقتصاد، وعلم النفس، ومنهجه وآلياته وإجراءاته، ومن ثم انطلق من المصدر الأول لديننا وثقافتنا وحضارتنا ألا وهو القرآن الكريم، الذي يقدم الإطار الجامع والمبادئ والمنطلقات لأي فقه وتصورات وأفكار، ولتكون آياته نبراسا في دراسة الهدي النبوي الشريف الذي جاء لاحقا، فكأننا سرنا في نهج هذه الدراسة من الكل إلى الجزء، من القرآن إلى السنة المطهرة، ساعين إلى قراءة النصوص في ضوء مفاهيم إدارة الأزمة، قراءة علمية وفق الثوابت والرؤى الإسلامية، بهدف تأصيل العلم شرعًا، والخروج بنتائج محددة، تستفيد منها الأمة، في ضوء كل أزمة على حدة. لذا، جاء الباب الأول في فصلين، متناولاً في الفصل الأول دراسة التوجيهات القرآنية السامية في التعامل مع الأزمات والمشكلات، وفي الفصل الثاني درس نماذج من توجيهات المولى جل وعلا لرسوله في بعض الأزمات التي اعترت المجتمع المسلم في زمن النبوة، أما الباب الثاني فقد جاء لدراسة السنة النبوية المطهرة، بالتوقف - في الفصل الأول - عند خُلق الرسول ﷺ وسماته، وأبرز الأزمات التي مرَّت به قبل البعثة، ومن ثم عرض جوانب من هديه الشريف في إدارة الأزمة، والرؤية الجامعة لها من قبل الباحث في الفصل الثاني، وفي الفصل الثالث نتناول بعض قصص الأزمات التي طرحها الرسول في أحاديثه، متوقفين عند المستفاد منها.

---

١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة، لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب (ابن قيم الجوزية)، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٢، ص٥

آمل من الله تعالى أن يكون هذا العمل في ميزان حسناتي، وأن يغفر ما به من زلاتي، فإنه من لوازم النفس البشرية، وجل من يسهو، كما آمل أن يكون لبنة ضمن لبنات تقرأ إسلامنا في ضوء العلوم الحديثة، بما يؤصلها في ثقافتنا، ومن ثم نضيف لها ما يؤكد خصوصيتنا، وأيضًا ما يزيدها، ومثلما ننهل من الحضارة الإنسانية، نمنحها ما يثريها.

د. مصطفى عطية

تمهيد

إدارة الأزمة علم ومنهاج

يشير التعريف اللغوي لكلمة "أزمة" إلى دلالة الشدة في الأمر، حيث أزمَّ تعني : عضَّ بالفم كله عضًا شديدًا ، ويقال أزم الفرس على اللجام أي ضغط عليه بقوة، ويقال: أزمت عليه السّنة : أي اشتد قحطها، ومنها الفعل تأزّم : أي أصابته أزمة، والأزْمة أو الأزَمة : الضيق والشدة [٢].

فالأزمة تحدث عندما تكون هناك هزة وتبدل شديد يصيب الحياة، ويهدد النظام الذي درج عليه الناس. وهذا ما يتقارب مع دلالة مصطلح إدارة الأزمات Crisis Management، المأخوذ من علم الإدارة، وإن توسعت دلالته واستخداماته في ميادين ومجالات عديدة، تخطت ميدانه الأصلي، وإن تظل كلمة Crisis في دلالتها الأولى مأخوذة من الطب فهي تطلق على حدوث تغيير مفاجئ في جسم الإنسان قد ينتهي بالشفاء أو الموت مثل الأزمة القلبية وغيرها من الأزمات الصحية التي قد تفاجئ الإنسان. وعندما انتقل هذا المصطلح إلى مختلف العلوم الإنسانية أصبح يعني مجموع الظروف والأحداث المفاجئة التي تنطوي على تهديد واضح للوضع الراهن والمستقر سواء على مستوى الفرد أو الدولة، ومن هنا اكتسبت الأزمة خواصها التي تعرف الآن بمثلث الأزمة أو هي الشروط الضرورية التي يستوجب توافرها حتى يمكن أن نطلق عليها لفظ أزمة وهي : التهديد، المفاجأة، ضيق الوقت [٣].

وقد انتقلت الدلالة إلى البعد الاجتماعي المتمثل في "توقف الحوادث المنتظمة والمتوقعة واضطراب العادات والعرف مما يستلزم التغيير السريع لإعادة التوازن ولتكوين عادات جديدة أكثر ملاءمة" [٤]، والبعد الاجتماعي لازم لأن الأزمة في أول الأمر وفي نهايته تصيب البشر، فلا معنى لأزمة غير ذات صلة بالبشر وإن اشتدت، لأن المتضررين هم من البشر، ومن هم قادرون على الحل أيضًا من البشر.

وحتى لو كانت الأزمة ناتجة عن أزمات الطبيعة، مثل الزلازل والبراكين والعواصف وحرائق الغابات الناجمة عن الصواعق... فإنها تؤثر في حياة البشر، بانقطاع نشاط من الأنشطة، أو زعزعة استقرار لوضع ما، مما يستلزم رد فعل بشريًا [٥]، في التعامل مع الأزمة ذاتها أو عواقبها، والتفكير في سبل تلافيها مستقبلا، مما يحتاج إلى إدارة خاصة لهذه الأزمات.

وهناك خلط لدى البعض بين الأزمة والواقعة والحادثة والكارثة، فالواقعة Incident هي خلل في أحد مكونات النظام ؛ حدث وانتهى أثره، أي يمكن السيطرة عليه وتدارك خسائره. أما الحادثة أو المشكلة Accident – Problem فهي خلل أدّى إلى خسائر مادية وإنسانية، أثّر على جزء من النظام

---

٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤ م، ١٤٢٥هـ، ص١٦.

٣) إدارة الأزمات والكوارث، د. فاروق العمر، دار قرطاس للنشر، الكويت، ١٩٩٨م، ص١٨، ١٩. وانظر أيضا : نحو استراتيجية علمية في مجال مواجهة الأزمات، د. محسن عبودي، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٣م، ص٢٢.

٤) صنع القرار السياسي في منظمات الإدارة العامة، د. السيد عليوة، سلسلة الألف كتاب الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٢٥٦.

٥) إدارة الأزمات في عالم متغير، د. عباس رشدي العماري، نشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٩٣م، ص١٩.

أو الحياة، ولكنها لا تهدد بقاء النظام ككل، فهي تشير إلى أوضاع غير مرغوبة أو صعوبات أو خلل، ولها تأثير سلبي على النظام، ويمكنها أن تؤدي إلى كارثة إن لم يتم احتواؤه، فيجب علاجها قبل استفحالها.

وتبدو الكارثة أو الخسائر Disaster – Loss حين تظهر آثار سلبية كبيرة ناتجة عن استفحال الحادثة أو المشكلة أو بسبب الكوارث الطبيعية، التي لا دخل للإنسان فيها، وتكون الخسائر مادية جسيمة أو معنوية شديدة، كالصراع Conflict بين القيادات، أو الصراع بين القادة والأتباع، أو بين الوحدات أو الطوائف والأقليات، والقبائل(٦).

أما الأزمة فهي مؤثرة بشكل كبير في النظام (الإداري والاجتماعي بشكل عام) يشير إلى : "خلل يؤثر ماديًا على النظام كله، كما أنه يهدد الافتراضات الرئيسية التي يقوم عليها هذا النظام" (٧)، إنها "تهديد مباشر لبقاء النظام، فالنظام يواجه مصيره بالفناء أو الانهيار، ذلك بسبب أن الكارثة قد أدّت إلى انهيار مقدمات النظام وأسباب وجوده. فالأزمة إذن هي تراكم الخسائر في مقومات النظام ، الأمر الذي قد يؤدي إلى تقويض أركان النظام كله" (٨).

فيمكن القول إن الأزمة هي نهاية حلقات، تبدأ بواقعة لم تتم مواجهتها بشكل جيد فتطورت إلى حادثة أو مشكلة تفاقمت بحكم سوء التعامل وعدم القدرة على علاجها إلى كارثة إنسانية بخسائر هائلة ؛ ومن ثم تستفحل إلى أزمة تحتاج إلى إدارة خاصة لمواجهتها، ويمكن أن تأتي أحداث عنيفة، تؤدي إلى أزمات مباشرة، مثل الكوارث الطبيعية (٩).

فالأزمة - عادة - تكون ضد السياق الطبيعي للنظام المتبع في مجال ما، حيث يحدث تأزم ناتج عن شدة أو طارئ أصاب الناس وهددهم، والأهم أن الخطط أو البدائل الموضوعة للمعالجة السريعة باءت بالفشل، مما أدى لتأزّم الأمر، وتكوين مشكلة تحتاج إلى معالجة وحل.

أيضًا ، فإن الأزمة في أحد أوجهها معبرة عن التصارع، وهي المرحلة المتقدمة من مراحل الصراع، والصراع في أي مظهر من مظاهره، وعلى أي نطاق من نطاقاته، بداية من أعماق النفس البشرية الواحدة، مرورا بالصراع بين الإنسان وأخيه، وفي داخل المجتمع بين الأسر أو العائلات والعشائر أو القبائل، وانتهاء بالصراعات الدولية الكبرى بين الدول أو التكتلات الدولية، وهي أيضًا حقيقة من حقائق الحياة التي نعيشها (١٠).

ويمكن تعريف الأزمة في المنظور المجتمعي بأنها : حدث فجائي يهدد مصلحة الجماعة والمجتمع، وتتم مواجهته في ظروف صعبة ، حيث الإمكانيات قليلة ، والوقت ضيق ، والمطالبات عاجلة للمواجهة والحل(١١). وهو ما يصدق على المشكلات الشخصية والاجتماعية، فهناك مشكلات تصيب

---

٦) إدارة الأزمات، د. أحمد ماهر، منشورات: الدار الجامعية، الإسكندرية، ٢٠١٠، ص١٣، ١٤.

٧) إدارة الأزمات، د. رشاد الحملاوي، مكتبة عين شمس، القاهرة، ١٩٩٣م، ص١٧.

٨) إدارة الأزمات، د. أحمد ماهر، م س، ص١٤.

٩) السابق، ص١٥، وقد عرض شكلاً اشتمل المفاهيم المرتبطة بالأزمة.

١٠) إدارة الأزمات في عالم متغير، ص١٣.

١١) نحو استراتيجية علمية في مجال مواجهة الأزمات، د. محسن عبودي، ص١٠.

الأفراد تستلزم حلها ولها تأثير كبير على المحيطين بهم، بل على الجماعة ككل، فالأزمة قد تعرض لفرد، ولكنها تشير إلى أزمة مجتمعية مسكوت عنها أو مؤجلٌ حلُّها.

لذا، يؤكد باحثون كثيرون على أن مصطلح أزمة ينصرف إلى القضايا والمشكلات ذات الطابع العام أي التي تهم المجتمع والدولة والشعب، وتستلزم دراسة ومعالجة وحل من القائمين على الأمر، وإن كان هناك من يخالفون هذا الرأي، ويرون أن الأزمة كمصطلح لابد أن يكون معنيا بأمر طارئ يرتبط بمدى قصير زمنيا ومكانيا (١٢).

ونرى أن لا خلاف في الأمر، لأن الأزمة وإن كانت تحدث في زمن قصير، ولكنها تعبر عن تراكمات وأخطاء في زمن سابق ممتد، فالأزمة بمثابة ذروة أحداث، وإن ما نراه في الأزمة ما هو إلا رأس جبل الجليد، الذي يحوي الكثير ولا حل إلا بالتعامل مع جسم الجبل، وإلا ظهر الرأس مجددا ليعوق المسيرة، وقد يؤزّم الأمور أكثر.

وقد أقرَّ هذا علماء عديدون ؛ حيث رأوا أن الأزمة : نقطة تحوّل في أحداث متعاقبة تصل إلى قمة الصراع الدرامي، وتحتاج إلى ردود أفعال سريعة حتى لا تشكل نتائجها تغيّرا في المستقبل يعود بالضرر على المصالح العامة للناس أو المجتمع (١٣).

وفي تعريف آخر لمصطلح" إدارة الأزمات " يقدّم توصيفا له بعد زمني، وموقف صانع القرار من الحل، ويعرض أيضًا تعقيدات الأزمة وقد جاء فيه أنها : " لحظة حرجة وحاسمة تتعلق بمصير الكيان الإداري الذي أصيب به مشكّلة بذلك صعوبة أمام متخذي القرار تجعله في حيرة بالغة في ظل مساحة من عدم التأكد وقصور المعرفة واختلاط الأسباب بالنتائج وتداعي كل منها في شكل متلاحق، ليزيد من درجة المجهول، ومن تطورات قد تحدث مستقبلا، من الأزمة وفي الأزمة ذاتها"(١٤).

نلاحظ أن التعريف السابق قد ربط الأزمة بالكيان الإداري، بحكم أن الإدارة في دلالتها العامة تشمل شؤونا كثيرة في الحياة، تستلزم وجود كيانات تديرها، صغرت أو كبرت، كانت تابعة للحكومة والدولة أو كانت أهلية، والأهم في هذا التعريف أنه يقف عند اللحظة الأخيرة للأزمة (البعد الزمني)، حيث تكون الأزمة في ذروتها، والذروة تعني هنا أمورا عدة : صعوبة الحل أمام من بيده الأمر، عدم اتضاح الرؤية نظرا لنقص المعلومات، التداخل بين ظواهر الأزمة ومسبباتها ونتائجها، الدوران في حلقة مفرغة ما بين ظواهر الأزمة وامتداداتها. فإدارة الأزمة تشير كمصطلح : "إلى طريقة السيطرة على الأزمة، أي حينما تواجه المنظمة (القيادات، المسؤولون) أزمة فإنها تستخدم مجموعة من الأدوات والجهود للتغلب على الأزمة، واحتواء الأزمات المسببة لها، والاستفادة والتعلم من الجوانب الخاصة بالأزمة" (١٥).

---

١٢) إدارة الأزمات في عالم متغير، ص١٨.

١٣) نحو استراتيجية علمية في مجال مواجهة الأزمات، ص١٠

١٤) إدارة الأزمات، د. محسن أحمد الخضيري، مكتبة مدبولي، القاهرة، دون تاريخ، ص٥٣، ٥٤

١٥) إدارة الأزمات، د. أحمد ماهر، ص٢١.

وهناك ما يسمى الإدارة بالأزمات Management by Crisis بأن تصطنع فئة أو جماعة أو أفراد أزمات من أجل مطالب لهم، ومن قبيل ذلك سعي العاملين في مشروع اقتصادي ما إلى الإضراب عن العمل، طمعا في زيادة أجورهم، أو المشاركة في الأرباح بنسبة ما، أو تكوين نقابة خاصة بهم أو خفض ساعات العمل هذا من جانب، على الجانب المعاكس يمكن أن يقوم صاحب العمل باصطناع أزمة بهدف تحقيق أهداف له، أو إيقاف نشاط العمال ضده، بطرد بعضهم، أو استقطاب البعض الآخر [١٦].

فافتعال الأزمات في الإدارة بالأزمات يأتي : للتمويه والتغطية على مشاكل قائمة في النظام، فافتعال مشكلة كبيرة يجعل الآخرين ينسون المشاكل الصغرى. ويتبع هذا ما يسمى "فن صناعة الأزمات، وتستخدم فيها أساليب المكر والخداع والغش والكذب والتدليس والتهديد والضغوط وعلوم السياسة [١٧] ويستهدف أيضًا محاولة صرف النظر عن أزمة حقيقية بافتعال المزيد من الأزمات الجانبية أو الوهمية، في سعي إلى كسب أرضية غير أخلاقية على حساب الغير، وفي انعدام واضح للواعز الديني والخلقي [١٨].

وهنا تكون الإدارة بالأزمات أي صنعها وافتعالها، من أجل المزيد من المكاسب للطرف المفتعِل، وتكون الأزمة ذات أوجه متعددة، تشمل الأزمة المفتعَلة، والأزمات المترتبة عليها، وأيضًا الأزمات التي يمكن نشوؤها إذا حاول من بيده الأمر تقديم حلول مسكنة أو مؤقتة أو مرفوضة من الطرف الآخر، ولابد للطرفين أن يصلا إلى حل ما في نهاية الأمر، ويمكن أن تكون النتيجة عكسية لما هو متوقع.

---

١٦) إدارة الأزمات في عالم متغير، د. العماري، ص١٩.

١٧) إدارة الأزمات، د. أحمد ماهر، ص٢٢.

١٨) السابق، ص٢٨.

البُعد السياسي والاقتصادي في إدارة الأزمات :

كان من الطبيعي أن ينتقل المصطلح من دائرة علم الإدارة إلى العلوم السياسية والاقتصاد، بالنظر إلى أن أكثر الأزمات ناتجة عن صراعات، وأن الصراع ناتج عن تكالب الناس على الموارد المادية المحدودة والفرص المعنوية المعدودة، وهو ما يترجم إلى الأسباب الاقتصادية / الاجتماعية للصراعات ، التي تبدأ من المجتمعات الصغيرة ثم تتطور إلى صراع بين الدول إما في صورة احتلال مباشر لنهب الثروة أو خطط اقتصادية لاستغلال الموارد [١٩]، وربط الاقتصادات الناشئة باقتصادات الدول الكبرى وإن احتاج الأمر إلى الحرب فلا بأس، فإنما وجدت القوة العسكرية للدفاع وأيضًا للهجوم.

ومن أبرز الأزمات الاقتصادية قضية أزمة التوزيع، وتعني مشكلة المدى في توزيع المزايا المادية والثروات على أعضاء المجتمع [٢٠]، وقد توقف الفكر الاقتصادي منذ قرون عند قضية التوزيع غير المتكافئ للدخل ما بين الرأسمالي الذي يتمتع بفائض يرجع في حقيقته إلى العمال أو الأجراء [٢١]، ومن هنا ظهر مفهوم التوازن بين القوى الاقتصادية المختلفة فيما يسمى اقتصاد التوازن ما بين صاحب العمل والعامل، وبين الأرض ورأس المال والعمل، وهي العلاقة التي لا يمكن أن تتغير أبدًا، ويمكن أن يحدث تغيير في المعروض من الأيدي العاملة أو من رأس المال، وكان تحديد ذلك التوازن النهائي الذي يمنع قيام الصراعات بين الطبقات أو بين العمال وأصحاب العمل، وما يستتبع ذلك من أزمات [٢٢] وهو ما ينصرف أيضًا إلى إفادة الشعوب من ثرواتها، وعدم تحكم الدول الكبرى بمقدرات الشعوب الضعيفة والمتأخرة، فلا يمكن أن نفهم أكثر الصراعات والأزمات في تاريخ البشر إلا والبعد الاقتصادي حاضر بقوة.

فيتحدد المصطلح أكثر في دائرة السياسة والعلاقات الدبلوماسية الدولية، حيث يعني: "مجموع الأساليب والأطر والمؤسسات المولجة باتخاذ القرارات السريعة والعقلانية لمواجهة التحديات والتطورات والطوارئ الدولية، بقصد منع امتداد واتساع نطاق النزاعات والصدامات ومنع الإخلال الكبير في موازين القوى، لتجنب احتمالات المجابهة بين الدول" [٢٣]

كذلك من صلب إدارة الأزمات : التخطيط المسبق ومنع نشوب حالات التأزم علاوة على اتخاذ الإجراءات الكفيلة بتأمين القدرة على معالجة الموقف في حالة حدوثها [٢٤].

ففي الأزمات الدولية، يتعرض الموقف إلى تداعيات كثيرة، يمكن أن تؤدي إلى انفجار الأمور وخروجها عن السيطرة، وانتشار أعمال العنف، والصراعات المسلحة، أو إعلان الحرب بين الدول.

---

١٩) إدارة الأزمات في عالم متغير، ص١٤، ١٥.

٢٠) صنع القرار السياسي في منظمات الإدارة العامة، ص ٢٥٥.

٢١) تاريخ الفكر الاقتصادي، الماضي صورة الحاضر، جون كينيث كالبرث، ترجمة : أحمد فؤاد بلبع، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ٢٠٠١، ص١٣٢.

٢٢) السابق، ص١٤٥، ١٤٦.

٢٣) موسوعة السياسة، تحرير : د. عبد الوهاب الكيالي وآخرون، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م، الجزء الأول، ص ١١٣.

٢٤) السابق، ص١١٤. وانظر أيضا : إدارة الأزمات والكوارث، د. فاروق العمر، ص٢٧.

إن الأزمات الدولية وأيضًا المحلية (بين أقليات أو قبائل) ناشئة عن توترات سبقها تفاعل بشري، أو ما يسمى "نظام تشغيلي" لعمليات استقبال الضغوط المتوالية، مما يدفع الأمور من حالة التوتر إلى التصعيد، وبالنظر إلى حالاتها نجد أنها قد تنقلب من الضد إلى الضد، فالصداقة الشديدة بين الشعوب والدول التي تصبح تحالفات، يمكن أن تتحول إلى عداء وحرب، خاصة إذا انبنت على ارتباطات وتدافعات وقتية، ومصالح مؤقتة بزمن[٢٥].

أيضًا، فإن الأزمة تنطوي على تهديدات بالإشارة أو القول أو الفعل، من أجل الاستجابة لمطالب معينة، وتحقيق شروط محددة، ومن التهديدات : تهديد عسكري، اقتصادي، سياسي، ثقافي... وقد تكون التهديدات داخلية أو خارجية، من أفراد أو جماعات، وتنطوي على عنصر التربص والمفاجأة في حالات اشتداد الأزمة [٢٦].

ويمكن أن تكون الأزمة نتيجة تفاعلات داخلية شديدة وضغوط خارجية أشد تستغل الوضع الداخلي، وقد تكون مضاعفات بعض الأزمات التي تصيب المجتمعات حدوث انفصام في الشخصية الوطنية / الاجتماعية، في الأنساق الثقافية والنظم الفرعية المكونة للكيان السياسي الأكبر، وهو ما يحوّل الاختلافات والتنوعات المجتمعية إلى تناقضات وصراعات [٢٧]، ولعل وصول الأزمة إلى هذا المستوى المؤدي إلى انقسام اجتماعي وثقافي وسياسي بجانب العنف المجتمعي ؛ يعني استفحال الأزمة، وصعوبة السيطرة عليها، ودخول المجتمع في نفق مظلم، وهذا - بلا شك - ناتج عن تراكمات لأخطاء كثيرة في المجتمع، وسوء النخبة، وانحراف القيادات.

والمعلوم أن الحدود الفاصلة بين إدارة الأزمة التي تهدف إلى تجنب الصراع المستهدِف تطويع إرادة الخصم وإخضاعها، ليست بالحدود الجامدة، وإنما هي حدود مرنة ومتحركة، قبل وصول الأمر إلى استخدام القوة العسكرية [٢٨]، مع الأخذ في الحسبان أن النظر للأزمة يختلف من طرف إلى آخر، فهو مفهوم نسبي وليس مفهوما عاما، فيمكن أن تكون الأزمة ثورة شعبية من وجهة نظر المؤيدين لها من أبناء الشعب، وترى السلطة الحاكمة والأطراف الخارجية أنها تمرد أو فوضى، تستوجب المواجهة وهكذا، ويمكن أن تكون الأزمة صغيرة أو ما يسمى أشباه الأزمات Semi-Crisis ويمكن أن تمر الواقعة بسلام، أو تستثمرها أطراف أخرى من أجل المزيد من المكاسب [٢٩].

وهذا يستلزم تحديد أي الصور والأشكال التي سيأخذها هذا التوتر أو الأزمة، وهو جزء من إدارة الأزمة، بمعنى أنه مع دراسة الأزمة وما يصاحبها يمكن التنبؤ بأبعادها، وسبل التعامل معها.

فتحديد شكل التوتر المبدئي ودراسة عوامله، يجعل السُّبل واضحة لدراسة آثاره وأيضًا نتائجه

---

٢٥) إدارة التوتر، مقدمة في علم التوتر المحلي والدولي، إعداد : د. محسن الخضيري، إيتراك للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٩م، ص١٠٩.

٢٦) إدارة الأزمات : قراءة في المنهج، د. محمد نصر مهنا، ص٢٤٤-٢٤٧.

٢٧) صنع القرار السياسي في منظمات الإدارة العامة، د. السيد عليوه، ص٢٦٠، ٢٦١.

٢٨) إدارة الأزمات في عالم متغير، ص٢٥.

٢٩) السابق، ص٢٧.

المحتملة، خاصة عند بلوغ الأزمة قمتها، وتصاعدها إلى درجات عالية، قد يمكن تحملها أو عدم تحملها، بطرح أسئلة ثلاثة: هل الأزمة/ التوتر جامح ؟ هل هو توتر يمكن تحمله ؟ هل هو توتر خفيف ؟ ومن ثم تحديد منهج العلاج، سواء بالامتصاص أو بالاستيعاب أو بالتوظيف والتشغيل له [٣٠].

سعى علماء الإدارة بالتعاون مع علماء السياسة والاستراتيجيات في وضع نمط Pattern تحت مسمى "الإدارة الأزموية" أو "إدارة الأزمات" ؛ بهدف العمل كوحدة وظيفية لمعالجة موضوعات محددة هي الأزمات والمشكلات الصعبة ؛ بوضع الأسس النظامية Institutionalization ليصبح العلم له آلياته المميزة في مواجهة الأزمات وإدارتها [٣١]، ويمكن أن نعرِّف إدارة الأزمة من الوجهة السياسية بأنها علم إدارة التوازنات ورصد حركة القوة واتجاهاتها، والتكيف مع المتغيرات المختلفة، وبحث آثارها في كافة المجالات [٣٢]. فإدارة التوازنات بُعد جديد يضاف إلى مفهوم إدارة الأزمة، وهو قادم من حقل السياسة الدولية، ذلك أن كثيرًا من الأزمات يتوقف حلها على إدراك مدراء الأزمة بطبيعة توازنات القوى، فيأتي الحل في ضوء قوة كل طرف، ووزنه النسبي في الساحة، فلا يفرض الضعيف رأيه على القوي، مثلما لا تسيطر أقلية على أغلبية.

البُعد النفسي في إدارة الأزمات :

مادامت الأزمات تتصل مباشرة بعالم البشر، فإن البعد النفسي كائن، وآثاره شديدة، على المصابين وعلى من بيدهم القرار على حد سواء، فالمصابون يعانون الألم النفسي والحزن والهلع والخوف واللايقين وغياب الرؤية والإحساس بالضياع والانهيار العصبي... إلخ، كذلك الحال مع صانع القرار المسؤول عن الأزمة، حيث يعاني من التخبط والضغط العصبي الناتج عن إحساسه بالمسؤولية المباشرة إذا كان طرفًا في الأزمة أو المسؤولية المعنوية إذا كان مسؤولا عن الكيان الإداري أو الدولة ككل، ومعاناة كل هؤلاء بسبب الآثار السلبية والضحايا. فالأزمة - من المنظور النفسي - موقف مائع وغير مستقر وديناميكي وتكون الأمور في حالة تغيّر متواصل [٣٣].

ويمكن النظر إلى الأزمة بوصفها ناتجة عن توترات، وأيضًا سببًا في إثارة توترات، كما أن توترات كثيرة تصاحبها، فالتوتر ظاهرة ملازمة للبشر، وهذا في كثير من مواقف الحياة.

هذا وللتوتر بُعدان : بُعد سلبي بإحداثه مشاكل تؤدي إلى تدني الإنتاجية، تحت ضغط توترات محيطة، فتنشأ مشاكل جسيمة، وأزمات غير متوقعة وما تسفر عنه من مواقف ومفارقات غريبة،

---

٣٠) إدارة التوتر، ص١١٠.

٣١) إدارة الأزمات "قراءة في المنهج"، د. محمد نصر مهنا، ص١٤.

٣٢) السابق، ص١٥.

٣٣) إدارة الأزمات، التخطيط لما قد لا يحدث، من إعداد : مختارات بميك، إشراف د. عبد الرحمن توفيق، ترجمة : علا أحمد صلاح، الناشر : مركز الخبرات المهنية للإدارة (بميك)، ط٣، القاهرة، ٢٠٠٩م، ص٢٦.

ويكون دافعا لارتكاب سلوكيات سلبية وسيئة من مثل : الإهمال والتغاضي عن الجودة، التدمير الذاتي، التدني والانحطاط وارتفاع الفاقد والمرتجع، العبث والخيانة [٣٤] وبعد إيجابي يدفع الفرد لتحسين ذاته وجلب المنفعة له، أي أن هذا التوتر يكون سببا إيجابيا في مزيد من السلوكيات العامة النافعة، أي مزيد من : الاهتمام واليقظة، التفاعل الإيجابي، الندية والتنافسية، الواعدية الموجبة والجاهزية، التفوق والتميز، الجدية والفاعلية، التعافي والصلاحية، تحقيق الطموحات والوصول إلى الآمال[٣٥].

هذا الجانب النفسي يستلزم المزيد من فهم الظاهرة النفسية القائمة خلف التوتر الذي يصيب النفس، ويشكل أزمة ضاغطة عليها، تؤدي لأفعال خاطئة، ومن المهم التعامل مع الأزمة وتوتراتها بدراستها كظاهرة، ومعرفة بالمركّبات الإنسانية المعقدة التي شكلت التوتر في الأزمة، ومن هنا فإن تركيز البعد النفسي على : الأسباب، البواعث، الدوافع؛ يساهم كثيراً في حل الأزمات لأنه يعرف أسباب نشوئها وتوترها [٣٦].

أيضًا، فإن دراسة الظواهر النفسية المسببة للأزمات والتوترات المصاحبة لها، وأبرزها: "سوء الفهم" الناتج عن قلة المعلومات أو تلاحقها، وتشويشها، وتناثرها، وعدم ترابطها، والخداع من الآخرين، وسوء الحالة الصحية للمسؤول، وهذا يؤدي إلى "سوء التقدير" الذي يعني: المغالاة في قيمة المعلومات، والثقة الزائدة في النفس، والشك، والتأثر بشعارات وهمية، والاستخفاف بالأطراف الأخرى، بل والاستهانة بالأزمة والمعلومات المرتبطة بها، وعدم تحليل المعلومات الواردة [٣٧].

كذلك تلتقي إدارة الأزمات مع ما يسمى بـ " إدارة الضغوط "، وتكاد تكون المصادر التي تشكل ضغطا في الحياة، هي المسببة للأزمات والتوترات، ومنها: "أحداث الحياة الشاقة " والتي تتراوح ما بين الأحداث المزلزلة مثل الوفيات، والأقل شدة مثل الانتقال إلى مكان أو عمل آخر أو شريك آخر، وأيضًا " الشدائد المزمنة " التي تبقى آثارها مع الفرد سنة أو عدة سنوات أو لآخر العمر، ومن الأمراض الشائعة المصاحبة للأزمات مرض نفسي يسمى "اضطراب كرب ما بعد الصدمة Post Traumatic Stress Disorder، وتُعَدُّ منغصات الحياة اليومية أو أحداث الحياة الصغرى Daily Hasslesعناوين فرعية للأزمات، مثل أزمات المرور، الوقوف في طوابير، اتخاذ قرار صعب، وهناك الضغوط الاقتصادية والاجتماعية، والشخصية والأسرية، والداخلية أو الذاتية الخاصة برغبة الفرد في تحقيق طموحاته، وضغوط المهن والوظائف، والمسار المهني في الحياة [٣٨].

وهناك أحداث من نوع خاص تسمى الأحداث الغامضة Ambiguousحيث تشير الدراسات إلى أن الكثير من الناس ينفرون من الغموض ولا يستريحون للمواقف الرمادية، ولا يحبذون الأشياء

---

٣٤) إدارة التوتر، مقدمة في علم التوتر المحلي والدولي، ص١٠٤.

٣٥) السابق، ص١٠٣.

٣٦) السابق، ص١٠٨، ١٠٩.

٣٧) إدارة الأزمات، د. أحمد ماهر، ص٢٣، ٢٤.

٣٨) راجع : إدارة الضغوط، إعداد: د. جمعة سيد يوسف، منشورات مركز تطوير الدراسات العليا، جامعة القاهرة، ٢٠٠٧، ص١٦-١٩.

المحتملة أكثر من تفسير وتأويل، فهم يأنسون إلى المواقف الواضحة، بل ويأنفون من الانتظار والترقب بخوف وقلق ويفضلون التعامل المباشر مع الأحداث، وبعبارة أخرى فإن الأحداث الغامضة تدرك عادة بأنها أكثر ضغطًا وإثارة للمشقة من الأحداث الواضحة. ولعل الأشد من كل هذا، ما يسمى الأحداث غير القابلة للسيطرة أو التنبؤ Uncontrollable حيث يمكن النظر إلى أحداث عديدة في الحياة في ضوء قابليتها للتحكم وإمكانية التنبؤ بحدوثها Predictability، فالموت في معظم الأحيان لا يمكن التنبؤ به ولا التحكم فيه، وانفجارات البراكين وسقوط النيازك والشهب والزلازل والفيضانات... إلخ، كلها تأتي بضغوط هائلة على النفوس، ولا تصلح معها الخبرة في الحياة، فهناك ما هو أشد من خبرات الفرد (٣٩).

بالإضافة إلى ما سبق، فإن هناك ظواهر عديدة تؤثر في الأزمة، وتزيد من توتراتها وعواقبها، مثل : "الإشاعات" التي تتسبب في انعدام الحقائق لدى الناس وانعدام الثقة، وتخبط المسؤولين، وإهمال الأزمة، وزيادة الأطماع، وإشاعة توتر جماهيري. أيضًا فإن تحكم الأزمة ينتج "اليأس" ويتمثل في فقدان الأمل والإحباط وعدم الرغبة لدى متخذ القرار في مواجهة المشاكل، ويأس المصابين وهذا عائد إلى الشعور بالظلم، والقمع، وعدم الرغبة في العمل والتفاعل (٤٠).

أيضًا، يمكن النظر إلى عنصر مشترك بين كل من المتضرر من الأزمة، والمسؤول عنها، وهو عنصر زيادة العبء Overload ويعني : زيادة الأعباء الناجمة عن تعدد المهام والمسؤوليات والتكليفات، بجانب نمط الشخصية التي قد لا تحتمل هذه الضغوط، بالمقارنة مع من يتحملون أقل، وهذا الإحساس يكون زائدا للمسؤول ومن بيده القرار، مع الأخذ في الحسبان أن هناك أفرادا لديهم خصال فسيولوجية، يكون لديهم عدم القدرة على الاحتمال مما يجعلهم يستجيبون للضغوط بشكل أسرع من غيرهم، وبعضهم يكون في حالة استثارة دائمة كلما تكاثرت الضغوط عليه، فيكون أكثر توترا وعصبية (٤١)، مما يعكس عدم قدرتهم على مواجهة الأزمات فضلا عن إدارتها.

في ضوء ما سبق، فإن التعامل النفسي مع الأزمات والتوترات يتطلب ما يسمى "تحديد مولدات الضغط "، وتحديد العناصر التي نستخدمها في الكيانات الإدارية والتنظيمية وفي حياتنا، المسببة للتوتر والأزمة، حتى لا يتحول الأمر إلى أبعاد وجوانب ضارة، لها تأثير سلبي على الكيان كله أو على الفرد نفسه. وبعبارة أخرى : لابد من وجود حالة من الوعي والإدراك المترتبة على دراسة التوتر المسبب للأزمات، أو التوتر المصاحب لها، بشكل هادئ، ويمكن أن تتم صناعة التوتر وإحداثه للآخرين بغية أهداف بعينها، أو التحكم في إراداتهم. فتحديد أنواع التوتر ومستوياته يساعد مساعدة كبيرة في الوصول إلى الجوانب الارتباطية للأزمة(٤٢)، ومن ثم يسهل التعامل معها، بل وعلاجها.

فيمكن رصد علامات تأزم نفسي عند أطراف الأزمة، خاصة المتأثرون سلبيًا، وأبرز ملامحها : الإنهاك

---

٣٩) السابق، ص٢٢.

٤٠) إدارة الأزمات، د. أحمد ماهر، ص٢٦.

٤١) إدارة الضغوط، ص٢٢، ٢٣.

٤٢) إدارة التوتر، د. محسن الخضيري، ص١١٠، ١١١.

الجسدي بالتعب الشديد ، والأمراض النفسية والعضوية ، وانخفاض مستوى الطاقة. والإنهاك الانفعالي : من خلال مشاعر الإحباط واليأس والعجز والاكتئاب والحزن ، والتبلد تجاه العمل. والإنهاك العقلي / النفسي : ويتمثل في الشعور بالدونية وعدم الفعالية ، عدم الرضا عن ذواتهم وأعمالهم ، بل وعن حياتهم كلها ، ومن ثم يكونون أسبابًا مضافة لظهور مشكلات أخرى تزيد من الأزمة [٤٣].

يرتبط بالبعد النفسي أمور أخرى عند معالجة الأزمة ، تتصل بأدوات التفكير وتعني : حسن إدارة التغيير ، ذلك أن الأزمة – لابد أن – تؤدي إلى تغيير لدى كل الأطراف المشتركة في الأزمة ، وتكون القضية هنا ليست في رصد التغييرات الحادثة ، بقدر ما هي إدارة هذه التغييرات بما يحدّ من التداعيات، وبما يؤدي إلى الخروج من الأزمة، فالعلاج البطيء والمستمر للأزمة يؤدي لنتائج نفسية كبيرة، تبعث الأمل في نفوس الأطراف، ناهيك عن وجود تخطيط استراتيجي لدى صانع القرار، وهذا التخطيط ناتج عن عملية علمية دقيقة ، تجعل الجميع منخرطا بإرادته في الحل ، لأنه يرى القيادة ضالعة في الحل ، وتجيد إدارة التغيرات الحادثة بما يستهدف الصالح العام ، والخروج من المشكلات وتوابعها ، وهنا يكون التركيز أكثر ليس منصبًّا على المشكلة الكبرى، بل على المشكلات الصغرى ولحظات عدم الاستقرار القصيرة وسائر الآثار السلبية التي تضرب القواعد وتؤثر في النفوس[٤٤].

وهذا يستلزم قيادة وإدارة من نوع خاص لا تهتم بمن هم في القمة أو على السطح فقط ، بل تتعاطى بشكل كبير ومستمر وفاعل مع الأفراد والبسطاء والعامة ، فهؤلاء في النهاية هم أساس التغيير ، والتغيير الحقيقي يظهر عليهم ، أما النُخب فهم قلة ، وغالبًا يتمتعون بوضع مادي يجعلهم في مأمن بأشكال مختلفة عن التداعيات المؤثرة ، وعلى الأقل تكون الآثار السيئة عليهم أقل بكثير من غيرهم.

من المهم أيضًا في إطار ما بعد الأزمة ، وهو يشمل – كما سنذكر بعدئذ – أزمات أخرى ، تصيب الفرد والجماعة ؛ أن يتعلم الجميع كيفية الاستفادة من الأزمة ، لتصبح ضمن الذاكرة الفردية وهذا يقتضي وجود خطة أو توجه يدعم ما يسمى "التعلم الزائد Over Learning" حيث يعتمد على التدريب المكثف ، والاسترجاع المنظم لأحداث الأزمة ، فكلما كان المتعلمون والأفراد أكثر نضجا وذكاء وخبرة بالحياة فإنهم يتعلمون بسرعة ويتدربون بشكل فعال ، ويحتفظون بذلك في ذاكرتهم الفردية [٤٥] ، التي تصب في نهاية الأمر ضمن الخبرات الجماعية للبلد والأمة. ذلك أن الأزمة بكل أجوائها وتداعياتها تكون شديدة الوطأة عند حدوثها في المرة الأولى ولكن تخف وطأتها إذا تكررت مع وجود خبرات سابقة للأفراد ، تترسب في ذاكرتهم ، وتظهر ضمن عملية "التمثل الانتقائي Selectively Represent" حيث يتم الاحتفاظ بالمعلومات والخبرات بطريقة منظمة ، في بنية الذاكرة الحالية ،

---

٤٣) إدارة الضغوط، ص٣٨، ٣٩.

٤٤) إدارة الأزمات، التخطيط لما قد لا يحدث، ص٦٨، ٦٩، ٧٠.

٤٥) سيكولوجية الذاكرة : قضايا واتجاهات حديثة، د. محمد قاسم عبد الله، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، فبراير ٢٠٠٣، ص٦٤.

ومن ثم إعادة إنتاج بعض أو كل هذه المعلومات في زمن معين بالمستقبل، تحت ظروف أو شروط محددة [٤٦].

خصائص الأزمات وسُبل علاجها :

في ضوء ما سبق، يمكن أن نحدد عدة خصائص للأزمات، وأبرزها [٤٧]:

- المفاجأة العنيفة، لمختلف الأطراف، المسؤول عنها، والمضارين منها.
- التعقيد والتشابك ، وهذا يتفاوت حسب كل أزمة ، وعدد الأطراف المشاركة فيها ، والمسؤولين عنها، وأيضًا المصابين من جرائها.
- زيادة حالة الخوف ، وأيضًا الاضطرابات النفسية والعصبية ، التي قد تكون وقتية أو مستمرة باستمرار الأزمة، أو حتى بعد انتهاء الأزمة.
- العمل في ظروف عدم التأكد ، أو غياب اليقين ، واضطراب الرؤية لدى المسؤولين ، وأيضًا المضارين.
- ضغط الوقت ، بحكم شدة الضرر ، وضغط الأطراف المتأثرة ، ومستوى الكارثة ، واتساع تداعياتها، وأيضًا ترقب الحل، وهذا يجعل الوقت يمر بطيئًا في انتظار التعامل مع الأزمة.
- انهيار الكيان الإداري أو التنظيمي، ويمكن أن يكون انهيارًا جزئيًا أو شاملاً، وهذا متوقع ؛ فلو كان الكيان قويا ، لتعامل مع الأزمة ولم ينهزم في مواجهتها ، بل قد يكون هشاشة تركيبه، وسوء تعامله مع الأزمة سببًا في اشتدادها واتساع نطاقها.
- ويترتب على ذلك : انهيار سمعة المسؤول ومتخذ القرار ، فقد فشل بداية في التنبؤ بالأزمة، مثلما هو فاشل في مواجهتها.
- اشتداد جبهة المواجهة، وهذا عائد لكثرة المصابين والمتأثرين بالأزمة.
- الدخول في دائرة من المجاهيل ، وهذا أمر متوقع مع اشتداد الأزمة وعدم القدرة على الحل والحسم ، ومع غياب اليقين ، وضعف المعلومات، وسوء التشخيص وعدم الدقة في قراءة الواقع، تكون المجاهيل حاضرة.

أما سُبل العلاج فتتعدد ، حسب طبيعة الأزمة ، والأجواء المحيطة بها ، ومجالها : سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي، ومدى تداخل أكثر من مجال أو بُعد فيها.

فمن المهم مراعاة جملة أمور عند النظر في الأزمة ؛ تبدأ بكسر حاجز الجهل وزيادة حجم المعرفة بالأبعاد والمسببات، ودراسة الظروف التاريخية للأزمة (العودة إلى جذورها) ثم التمركز في أعماق الأزمة ، وبناء جسر داخل كيانها لصالح من يدير الأزمة باغيًا المعالجة والحلول ، ويحدث هذا بمزيد من المعلومات حول الأطراف الأخرى المسببة للأزمة والتي يمكن أن تساهم في المعالجة، ومن ثم استقطاب القادر على الحل منها حيث يتم التوسّع في كسب المؤيدين،

---

٤٦) السابق، ص١٧.

٤٧) إدارة الأزمات، الخضيري، ص٥٥، بتفصيل وشرح من قبل الباحث.

والتوافق معهم، وإيجاد مواقع جديدة بينهم وحول الأزمة، وقواعد مشتركة للتعامل مع الآخرين ، وتكون المرحلة الأخيرة هي المبادأة بالحركة وتحريك الأحداث وليس الانصياع لها ، والاستخدام المكثف للدعاية والأفكار ، ثم تأتي مرحلة السيطرة على مفاتيح الأزمة ، وتتحكم في سبل الحل ، وتوجيه القوى المؤيدة لها وفق الحل المرجوّ ، وفي إطار قاعدة واسعة من المؤيدين [٤٨].

مراحل الأزمة

الأزمة تتكون من أربع مراحل مختلفة ومتميزة ، ويمكن تبني مصطلحات تصفها ذات جذور طبية ، لأن الأزمة في النهاية مرض ، وله أعراض مبكرة ، ثم حادة ، حتى علاج الأزمة / المرض [٤٩] ، وهو ما يمكن بلورته فيما يأتي:

مرحلة الأزمة التحذيرية :

وفيها تكون بداية الإنذار بوجود أزمة يمكن أن تتطور ، والبعض يسميها مرحلة ما قبل الأزمة ، والذي يمكن رصده في هذه المرحلة أن هناك مؤشرات تحذيرية ، على المهتمين والمسؤولين الانتباه إليها ، فهي بؤرة ساخنة لابد من النظر إليها[٥٠].

مرحلة الأزمة الحادة :

وتمثل نقطة اللاعودة حيث ينتقل الأمر من النذير والتحذير إلى التأزم الحاد وهذه المرحلة تخبرنا بأنها قد ثارت ، ولكن مع التخطيط المسبق ، والاستعداد الجيد ، يمكن تلافي مضاعفات الأزمة ، وأيضًا يمنح المسؤول لنفسه الوقت للاستعداد والتأهب ، وأيضًا القدرة على التحكم في تدفق الأزمة وتدافعها ، فالمفتاح هنا هو السيطرة على أكبر قدر ممكن من الأزمة ، بهدف التقليل من آثارها ، أو التخفيف من درجة انفجارها ، والتحكم في توقيت انفجار الأزمة[٥١].

مرحلة الأزمة المزمنة :

وتكون عندما تمتد الأزمة ، وتستفحل وتشتد ، وتأخذ مدى زمنيًا طويلاً ، نتيجة فشل الجهود السابقة في الحل ؛ إن وجدت جهود جادة في الأساس ، لذا يسميها البعض مرحلة ما بعد الوفاة. ولكن كثيراً من الباحثين يرون فيها أبعادًا إيجابية ، حيث تكون الجروح قد نزفت واندملت تلقائيا ، وتكون الفرصة في الدراسة الجيدة لأبعاد الأزمة وتداعياتها في أسوأ أحوالها ، ويمكن وضع خطط علاجية ، في ضوء الدراسة العميقة للأزمة في مختلف حالاتها[٥٢].

---

٤٨) إدارة الأزمات، قراءة في المنهج، د. محمد نصر مهنا، ص١٦-١٩.

٤٩) إدارة الأزمات والكوارث، د. فاروق العمر، ص٢٣.

٥٠) إدارة الأزمات، التخطيط لما قد يحدث، ص٢٦، ٢٧.

٥١) المرجع السابق، ص٢٨-٣٠

٥٢) المرجع السابق، ص٣١- ٣٤.

مرحلة تسوية الأزمة الأزمنة :

وينبغي أن يكون فيها الهدف النهائي من إدارة الأزمة ، بعد دراسة المراحل الثلاث السابقة ، والاسترشاد بما فيها من معلومات ودروس وعبر ، ذلك لأن المسؤولين عن إدارة الأزمة يتخذون من المراحل السابقة للأزمة ، والأزمات السابقة خبراتٍ جيدة تتيح لهم التعامل الإيجابي الدائم والمستمر مع الأزمات ، فالأزمات لا تأتي فرادى ، ولا تتوقف عن المجيء ، لأنها ببساطة ترتبط بوجود الإنسان وحياته ، فقد يكون الضوء المشاهد في آخر النفق نذيرا بحدوث أزمة أخرى ، ومثلما لا تخضع الأزمات لنظام تراتبي منطقي ، فإن دورة الأزمة تجعل من الصعب معرفة النقطة التي تنتهي عندها أزمة ما وتبدأ أخرى [٥٣].

ويمكن النظر إلى إدارة الأزمة بمنظور وقائي أكثر ، يفيد صانع القرار ومنفذيه بشكل إيجابي وبناء ، فليس من المهم جمع المعلومات ، وتشخيص الأزمة فقط ، بل يجب فهم كيفية الإدارة الصحيحة لها ، والتي تعني فهم دورة الأزمات عبر ست مراحل تمثل قبل ، وأثناء ، وبعد الأزمة ، وتنطلق من أهمية فهم جوهر الأزمة ، وحلها بعد تشخيصها الدقيق [٥٤]:

أ) مرحلة ما قبل الأزمة : وترتكز هنا على الخلفية السابقة والخبرات لدى متخذ القرار ومن بيده صناعته ، فهو مثل الطبيب ، عليه أن يتحسّب لأمرين :

١. اكتشاف إشارات الإنذار.
٢.الاستعداد والوقاية.

فالأمر يدرس من خلاله الأعراض والمظاهر للأزمة ، والأمر الثاني يبني فيه استعداداته للوقاية من الأزمة في ضوء الأعراض السابقة.

ب) مرحلة الأزمة : وتشمل حدثين مهمين :

١. حدوث الأزمة ووقوعها ، أيًّا كانت الأسباب ، وأيًّا كانت النتائج.
٢. احتواء الأضرار ، فلا مجال للنقاش هنا ، وإنما لابد من معالجة الأضرار ، خاصة الأضرار البشرية من إصابات ووفاة وتمزق... إلخ.

ج) مرحلة ما بعد الأزمة : وتكون بتلافي ما تبقى من آثار الآزمة ، والعودة إلى المسار الطبيعي والأهم الاستفادة من الأزمة ذاتها ، ويأتي عبر دربين :

- استعادة النشاط ، لكل أطراف الأزمة ، وهذا يعني العودة إلى وضع ما قبل حدوثها ، وتعود الحياة لمجرياتها الطبيعية.
- التعلّم من الأزمة ، بحيث تصبح الأزمة خبرات مضافة لكل الأطراف ، فلا معنى للتحسر على الأضرار ، ولا وجود للتوبيخ واللوم ، وإنما الاستفادة الجيدة منها ، ومنع وقوعها مستقبلاً أو الحد من سلبياتها.

---

٥٣) المرجع السابق، ص٣٥، ٣٦.

٥٤) إدارة الأزمات، د. أحمد ماهر، ص٣٦، ٣٧. بشرح وتفصيل من قبل الباحث.

وينبغي أن نأخذ في الحسبان أن إدارة الأزمة تكون على طريقتين بالنظر إلى مفهوم الإدارة ذاته بوصفه أداء مرجوًّا، فهناك " الأزمة غير المدارة " ويكون فيها عدم الأداء Nonperformance، فإيقاع الإدارة بطيء وغير فاعل، وتقود كل أزمة إلى أزمة أخرى، ومن الممكن أن يتسارع الإيقاع، ولكن مع فشل ذريع، ذي أبعاد مدمرة، نتيجة إهمال علاج المشكلات العميقة الجذور، وإذا استمر تأجيل التدخل فإن المحصلة النهائية تكون حدوث تغيير جذري. أما "الأزمة المدارة" فتكون بإدارة واعية مطلعة متنبهة لبوادر وعلامات الخطر المبكر، والمستعدة للعمل بسرعة من أجل حصر الضرر في أضيق الحدود، وبالرغم من صعوبة التنبؤ بدقة بنقطة بداية الأزمة، إلا أنه - مع الإدارة الواعية - يمكن توقع النهاية والحل، وكلما كان التبكير بالتدخل كلما قلّت المعاناة [٥٥]، وفي حالة الرصد المبكر للأزمة، وإدارتها على نحو فاعل وحازم يحتمل أن يكون نمط وقوع الأحداث والتعامل معها على النحو الآتي :

- في مرحلة ما قبل الأزمة، ومع اكتشاف "الدلائل"، وإدراكها تكون التسوية / العلاج أمرًا متوقعًا وجيدًا وأيضًا سهلاً.
- في مرحلة الأزمة، وفي وقت "الذروة" يكون التقويم للأزمة سبيلاً للتوجيه الجيد لإدارتها، وتوجيه كل من: المنفذين والأفراد على حد سواء.
- في مرحلة ما بعد الأزمة يكون فيها إعادة البناء، والعودة إلى المستوى السابق، وهذا يعني السعي إلى الإصلاح [٥٦].

وسنشرع في دراسة المنظور الإسلامي لإدارة الأزمة، وهو بلا شك تأصيل لهذا العلم، مما يقدِّم رؤية شاملة للأزمة وحلولها وسبل التعامل معها، بهديٍ سامٍ، وحكمة عظيمة، مصدرها القرآن الكريم، ونهجها في السنة النبوية المطهرة.

---

٥٥) إدارة الأزمات، التخطيط لما قد لا يحدث، ص ٧٠، ٧١.

٥٦) السابق، ص٧١.

الباب الأول
إدارة الأزمات في الخطاب القرآني
وفي التوجيه الرباني للرسول ﷺ

حول الرؤية الإسلامية للأزمة وسُبل علاجها :

لا يمكن قراءة الأزمة في المنظور النبوي إلا بالعودة إلى الأصل الذي استمدّ منه الرسول ﷺ هديه ورؤاه للناس ألا وهو القرآن الكريم ؛ لذا، فإنه من المهم بسط الرؤية القرآنية للأزمات كي نعلم الوشائج بين القرآن الكريم والهدي النبوي الشريف، وهي وشائج واضحة، فالسنة مفسرة شارحة للقرآن، وكثير من الأحاديث ومواقف السيرة العطرة ناضحة بالإرشاد والتوجيه القرآني.

والمنظور القرآني للأزمة عميق، لا يقف عند ظاهرها، وإنما يتعمق باطنها، فالظاهر كما يبدو لنا في الأزمات : مصائب، كوارث، وفيات، إصابات، نكسات، هزائم، تضييق في الأرزاق، اضطرابات... إلخ، وهو ما يتعامل معه علم إدارة الأزمات، الذي يرصد المظاهر ويحاول قراءتها كما تتجلى في حركة الجماعة المضارة، والأفراد المصابين، أما المنظور القرآني فهو يبدأ بالإنسان، وينتهي به، فغاية الإنسان تحقيق سعادته على الأرض، السعادة الشاملة الروحية والجسدية في الدنيا، والفوز برضوان الله وجناته العلا في الآخرة. فالقرآن الكريم يركز على صيانة النفس، وحفظها، ومنها تكون بداية التعامل الحقيقي مع الأزمات التي لابد هي حادثة وكائنة في حياة الإنسان، ويكون العقل والعلم قاصرين إذا ظن صاحبهما أنه بدونهما يمكن أن يحقق سعادته الدنيوية، متناسيا الدين، مقصيا إرشاداته عن حياته، فمن الراسخ أن " صيانة النفس أصل الفضائل، لأن من أهمل صيانة نفسه، ثقة بما منحه العلم من فضيلته، وتوكلا على ما يلزم الناس من صيانته، سلبوه فضيلة علمه، ووسموه بقبيح تبذّله، فلم يفِ ما أعطاه العلم، بما سلبه التبذّل " [57]

فالدين يصون النفس، وينظّم المجتمع، ونحن المسلمين لابد أن ننطلق في حياتنا بإرشاد الدين، وهداه، في كل شؤون الدنيا، وأزماتها ونكباتها، فالفرق بيننا في حالة إدارة الأزمة من منظور العلم الغربي ومن منظور الشريعة الإسلامية، أن العلم الغربي يقف عند الظاهر في معالجة الأزمات، أما الشريعة الإسلامية فهي تنفذ أولا إلى الباطن كي تعالج الظاهر، إلى القلوب والأخلاق والنفوس، التي تحويها الأجساد، ومن ثم تكون سعادة الروح والجسد، الجوهر والعرض.

فالإنسان "مخلوق خاص، ذو كيان متميز، تميّزُه في ازدواج عناصر تكوينه، مستخلف في الأرض، مزود بخصائص الخلافة، وأولى هذه الخصائص: الاستعداد للمعرفة النامية المتجددة، ومجهز لاستقبال المؤثرات الكونية، والانفعال بها والاستجابة لها، ومن مجموع انفعالاته واستجاباته يتألف نشاطه الحركي للتعمير والتغيير والتعديل والتحليل والتركيب والتطوير في مادة هذا الكون وطاقاته... للنهوض بوظيفة الخلافة" [58]

وتعامل الإنسان في كافة أحواله : الفرح والحزن، الرخاء والشدة، الفرج والأزمة ؛ يستلزم فهم طبيعة هذا المخلوق المميز بالعقل، والقادر على تطوير ذاته وتنميتها، والمسخرة له خيراتُ الكون من حوله، وعندما يتسلح بالغاية العظيمة، ويعرف أنه مستخلف من الله على أرضه، سينظر للأمور بشكل مختلف، لن يتعامل مع الأزمات على أنها نكبات فحسب، وإنما هي تحديات تواجهه،

---

٥٧) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماورديّ، تحقيق : مصطفى السقا، سلسلة التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٩، ص٧٣.

٥٨) مقومات التصور الإسلامي،سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٨٦م، ص٣٦١، ٣٦٢

وعليه أن يستغل قدراته العقلية والحركية والنفسية في مواجهتها، وعليه أن يسعى في الأرض، إرضاء لله، وطلبا للرزق، وتعميرا للأرض، وهو في سعيه معرض لمحن، وابتلاءات، وأزمات، وكلما صبر وابتغى رضا الله؛ نال أجر الصابر وثوابه، يستوي في ذلك إذا كان يتحدى بمفرده أو ضمن جماعته.

كذلك فإن التعامل مع الطبيعة ينبغي أن يكون بعيدًا عن المنظور الوضعي المادي، الذي لا يبحث فيما وراءها، ويكتفي بالتعامل معه بوصفها كائنة وليست مخلوقة، وهذا التصور يقودنا إلى النظر إلى الطبيعة كأنها متصرفة، لها إرادتها وغضبها ورضاها التي تمنحه للبشر والكائنات وفق ما تريد وهو في النهاية يخضع لقوانينها هي، وننسى في هذا الشأن أن الكون مخلوق، ولم يوجد مصادفة، وأن "الطبيعة ليست إلها، ليست هي التي خلقت الحياة، كما أنها ليست هي التي خلقت نفسها، إنما الله - سبحانه - هو خالق كل شيء، هو الذي أعطى كل شيء خلْقَه ثم هدى. هو الذي خلق الطبيعة وجعلها مناسبة لظهور الحياة... وجعل التناسق بين الطبيعة والحياة وبين الأحياء بعضها وبعض؛ هو الأصل والقاعدة... كما أن الحياة صادرة عن إرادة واحدة - إرادة واحدة سبحانه - حادثة بقدره " [٥٩].

وهنا تكون النظرة مختلفة وفق الرؤية الإسلامية، فكل ما في الكون بيد الله، وكل ما في الكون متناسق مع بعضه البعض، لكنه في المجمل مسخَّر للإنسان، فمن العبث أن يتخيل الإنسان أنه في صراع مع الطبيعة إذا كشّرت عن أنيابها، وإنما كل شيء يتم إنما هو بمقدار ووفقا لإرادة الله سبحانه وتعالى.

إن دراسة المنظور القرآني في الأزمات وعلاجها، يهدف إلى التأصيل، فالقرآن هو الوحي المنزّل من الله تعالى، وفيه اكتمال أمور الدين والعقيدة والأخلاق والمعاملات وغيرها من جوانب الشريعة، وقد حقق الرسول بسنته وأحاديثه الشريفة أخلاقَ القرآن وتوجيهاته، فقد كان ﷺ عظيم الأخلاق، قرآنًا يمشي على الأرض، مصداقًا لقوله تعالى: { ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ } [٦٠] فالله تعالى يقسم بالقلم، وهو الذي تُكتَبُ به أنواع العلوم، على براءة نبيه محمد ﷺ، مما نسبه إليه أعداؤه من الجنون فنفى عنه الجنون بنعمة ربه عليه وإحسانه، حيث منّ المولى تبارك وتعالى على نبيّه بالعقل الكامل، والرأي الجزل، والكلام الفصل، الذي نجده في الأحاديث الشريفة، والتوجيهات النبوية العظيمة، فوصف الرسول ﷺ بـ { وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيم } أي أنه على دين عظيم من الأديان، ليس دين أحب إلى الله تعالى ولا أرضى عنده منه ألا وهو الإسلام، وهو ما ذكرته السيدة عائشة رضي الله عنها، وسئلتْ أيضًا عن خلقه عليه السلام؛ فقرأت قد أفلح المؤمنون إلى عشر آيات، وقالت: ما كان أحد أحسن خلقا من رسول الله ﷺ، ما دعاه أحد من الصحابة ولا من أهل بيته إلا قال لبيك. ولذلك قال الله تعالى: وإنك لعلى خلق عظيم، فلم يذكر خلق محمود إلا وكان للنبي ﷺ منه الحظ الأوفر

---

٥٩) المرجع السابق، ص٣٥٧.

٦٠) سورة القلم، الآيات (١- ٤).

، وقال الجنيد : سُمِّي خُلقه عظيمًا لأنه لم تكن له همة سوى الله تعالى. وقيل : سُمِّي خُلقه عظيمًا لاجتماع مكارم الأخلاق فيه يدل عليه قوله عليه السلام: "إن الله بعثني لأتم مكارم الأخلاق"[(٦١)]

وفي رواية أخرى عن السيدة عائشة رضي الله عنها (عن سعد بن هشام) قال: سألتُ عائشة أم المؤمنين فقلت : أخبريني عن خلق رسول الله ﷺ ، فقالت: أما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى، قال : كان خُلقه القرآن [(٦٢)].

فقد أدّبه الله فأحسن تأديبه ، واتخذ الرسول ﷺ من القرآن معلمًا مطبقًا لما فيه ، كيف لا وهو الرسول مبلغ القرآن، وحامله، والمؤتمن عليه، والقدوة العظيمة لأصحابه والناس أجمعين في حياته، ولكل البشرية بعد مماته، عبر سيرته العطرة الحافلة بكل خير.

ومن هنا، لابد من أن تتأسس الدراسة للهدي النبوي على الإرشاد القرآني، وبحث الرؤية النبوية للأزمات في ضوء ما أبانته الآيات القرآنية، وأيضًا مواقف الأزمة التي أشير إليها في القرآن الكريم، وكان الحل ربانيا يلهم الرسول وسائر المؤمنين الثوابت والأطر القرآنية.

ومن أجل هذا المنطلق، يأتي هذا الباب، على فصلين : الأول يسعى إلى تأصيل المنظور القرآني في الأزمات التي تصيب الإنسان ، والهدي القرآني في التعامل معها ، عارضًا الرؤية القرآنية لطبيعة الإنسان، والحكمة الربانية في تركيب هذه الطبيعة، وأمثلة من الأزمات المذكورة في القرآن الكريم، أبعاد الأزمة، وسُبل معالجتها.

أما الفصل الثاني فيتناول الأزمات التي صادفت ﷺ وجاءت المعالجة من القرآن الكريم ، بنهجٍ واضح، وإرشاد مباشر، اتبعه ﷺ في أحاديثه، وفي توجيهاته، وأيضًا في قيادته للأمة المسلمة.

---

٦١) الجامع لأحكام القرآن،للإمام محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، دت، الجزء الثامن عشر، ص٢١٠، ص٢١١.

٦٢) شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه، للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق : مصطفى عبد الواحد، مطبعة عيسى البابلي الحلبي، القاهرة، ١٣٨٦هـ، ١٩٦٧م، ص٥٧، ٥٨.

الفصل الأول

إدارة الأزمة في الخطاب القرآني

أزمة الفرد والجماعة في الرؤية القرآنية :

ترتبط الأزمة في المنظور القرآني بوجود الإنسان على الأرض، وأن وجوده مرتبط بحالة من السعي والكدّ المصاحب لتعب وشدة تصيبه، مصداقًا لقوله تعالى : {لقد خلقنا الإنسان في كبد }[٦٣] أي في شدة منذ ولادته ونبت أسنانه ومعيشته وختانه [٦٤] ثم سعيه في الأرض في مشقة يكابد أمر الدنيا وأمر الآخرة [٦٥].

فمصالح الإنسان في الدنيا " مشوبة بتكاليف ومشاق، قلّت أو كثرت، تقترن بها أو تسبقها أو تلحقها ؛ كالأكل والشرب واللبس والسكنى والركوب والنكاح وغير ذلك، فإن هذه الأمور لا تنال إلا بكد وتعب " [٦٦].

فهو في مكابدته أحوال الدنيا يتعرّض لمحن وأزمات كثيرة، بعضها يتصل بعلاقته بالطبيعة من حوله، جوّا وبحرا وبرّا، وبعضها يتصل بصراعه مع البشر، إما صراعات شخصية أو ضمن جماعته وبلده، يستوي في هذا المؤمن والكافر، الصالح والفاجر، فلفظة "الإنسان" في الآية دالةٌ على أن هذا أمر متصل بجميع البشر على الأرض. وهنا تكون الأزمة في المنظور القرآني فردية في الأساس وإن اشترك الفرد مع آخرين، عكس منظور علم إدارة الأزمات، الذي يتعامل بالمنظور المادي الدنيوي، الذي لا يحفل بالإنسان كفرد، وإنما بالمجموع، فإذا كانت هناك أضرار تصيب الفرد كفرد، فيمكن التعامل معها على حدة وتبقى في نهاية الأمر شأنا فرديا محضا، أما الأزمات فهي تكون جماعية الشكل والطابع، على أساس أن أزمة الفرد - مهمًا كانت - ذات تأثير محدود. وبعبارة أخرى : فإن المنظور القرآني يثبت أن الإنسان معرّض للشقاء في حياته الدنيا، إما مع نفسه أو مع الآخرين، ولابد أن يوطّن نفسه على هذا المبدأ، حتى يسعى في الأرض دون كلل، مصداقًا لقوله تعالى : {وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى * وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى } [٦٧]، فالإنسان يسعى، والله تعالى يجازيه حسب سعيه إن كان خيرا أو شرا، ويدخل في هذا السعي

---

٦٣) سورة البلد، الآية (٤)

٦٤) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، دت،ج ٥، ص٦٣٢. وقيل إن الإنسان خُلِق في اعتدال وانتصاب.

٦٥) الدرّ المنثور، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، الناشر : دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣، ج٨، ص٥١٩

٦٦)الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي، شرح وتعليق : د. محمد عبد الله دراز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦، ج٢، ص٢١.

٦٧) سورة النجم، الآيات (٣٩ -٤٢).

نشاط الإنسان في الدنيا، وسعيه لرزقه، فمن سعى للرزق الحلال يأجره الله على ذلك، ومن سعى للحرام يعاقب على سعيه.

وهو ما يجرّنا إلى قضية وجود الإنسان على الأرض، فالإنسان موجود لحكمة إلهية سامية، ألا وهي عبادة الله سبحانه، { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ }[٦٨].

فإذا عبد الناس ربهم، وأحسنوا عبادته، فإن الله حافظهم ورازقهم والمنعم عليهم ؛ يجنّبهم كل كارثة أو أزمات أو مصائب، تؤدي لإهلاكهم { وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ } [٦٩]، فإذا كان أهل القرى مصلحين فيما بينهم في تعاطي الحقوق، ولا يقعون في الظلم أي الشرك والكفر، لم يكن الله - جل شأنه - ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد، كما أهلكَ قوم شعيب ببخس المكيال والميزان، وقوم لوط باللواط، ودل هذا على أن المعاصي أقرب إلى عذاب الاستئصال في الدنيا من الشرك، وإن كان عذاب الشرك في الآخرة أصعب " [٧٠]

وهذه قمة العدالة الإلهية، فما دام الناس في تعبد لله، يصلحون فيما بينهم، يواجهون العصاة المذنبين، ويأخذون على أيديهم مرضاة لربهم، ثم حفاظا على مجتمعهم، فإن الله رؤوف بهم، يحميهم، ويذود عنهم.

وفي معنى آخر، فإن الله ما كان: " ليهلك القرى بظلم وأهلها مسلمون، فإنه يكون ذلك ظلمًا لهم ونقصًا من حقهم، أي ما أهلك قومًا إلا بعد إعذار وإنذار. وقال الزّجاج: يجوز أن يكون المعنى ما كان ربك ليهلك أحدًا وهو يظلمه وإن كان على نهاية الصلاح، لأنه تصرف في ملكه، دليله قوله: " إن الله لا يظلم الناس شيئًا " [٧١]، وقيل: وما كان الله ليهلكهم بذنوبهم وهم مصلحون، أي مخلصون في الإيمان[٧٢].

فتكون المعادلة : إذا أحسن الناس عبادتهم، وابتعدوا عن الشرك بالله، وأخلصوا في إيمانهم وعبادتهم، ما كان ليعاقبهم ولا ليظلمهم شيئًا. ولو نظرنا إلى ما حلّ بقوم لوط وشعيب في المقاييس البشرية، نجد أنها أزمات أدت إلى هلاك القوم كلهم، ولكن لا بد من النظر إلى أسباب الأزمة، وطبيعة العقاب، فقوم شعيب بخسوا المكيال وغشوا في الميزان، وهذه جريمة اقتصادية كبرى، تؤدي لضياع الحقوق، وخراب ثروات الناس، وفساد الذمم والأمم، واشترك جموع القوم فيها ؛ فكان عقاب الله بإهلاكهم، ونفس الأمر مع قوم لوط حين استحلوا محارم الله، وقطعوا السبيل، وفعلوا المنكرات في أنديتهم، وصار الأمر مشاعًا مباحًا دون نكير من بينهم، فجاءتهم العقوبة كاسحة لهم، رادعة لغيرهم.

---

٦٨) سورة الذاريات، الآيات، ٥٦ –٥٨.

٦٩) سورة، هود، ١١٧.

٧٠) الجامع لأحكام القران، القرطبي، ج٩، ص١١٤.

٧١) سورة يونس، الآية ٤٤.

٧٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج٩، ص١١٤.

كذلك جعل الله تعالى الأزمات متداولة بين الناس، فالسنون لا تستمر على وتيرة واحدة، وإنما تتبدل بالناس بين قحط وخير، سعادة وشقاء، شدة ولين، كما في قوله تعالى: { إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } [٧٣]. أي يجعل الله الأيام مصرّفة متغيرة بين الناس، ودلالة "الأيام" لا تنصرف إلى اليوم المتألف من نهار وليل فقط، وإنما المقصود المواقع والأحداث والمآلات التي تصيب الناس في أيامهم، فالدلالة تتخطى زمن اليوم الواحد إلى الأيام والأشهر والسنين، ويمكن أن يترتب عليها تغييرات عميقة تصيب القوم في حياتهم، عزًا أو ذُلاً.

وقد جاءت مناسبة تلك الآية متناولة غزوتي أحد وبدر؛ ذلك أن الله عز وجل أدال (أي غيَّر) حال المسلمين مع المشركين في غزوة بدر، فقتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين. وأدال المشركين من المسلمين بأحُد، فقتلوا منهم سبعين، سوى من جرحوا منهم.[٧٤] وفي غزوة أحد ندم المسلمون كيف خلّوا بينهم وبين رسول ﷺ، وصعد النبي ﷺ الجبل، وجمع أبو سفيان جمعه، وكان من أمرهم مما كان، فلما صعد ﷺ الجبل جاء أبو سفيان فقال: يا محمد ألا تخرج؟ الحرب سجال يوم لنا ويوم لكم، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه، : "أجيبوا، وقولوا: لا سواء، لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار". قال أبو سفيان: عزى لنا ولا عزى لكم. فقال رسول الله ﷺ: "قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم". قال أبو سفيان: اعلُ هبل. فقال رسول الله ﷺ : "الله أعلى وأجلّ"، فقال أبو سفيان: موعدنا وموعدكم بدر الصغرى. ونام المسلون وبهم الكلوم"[٧٥].

الشاهد في هذه الآية أنها تتناول أحداث غزوة أحد، ومعلوم أن المسلمين انتصروا في أول الغزوة، فأسرع الرماة الواقفون أعلى جبل أحد بالنزول إلى ساحة المعركة لأخذ الغنائم، فاستغل الموقف المشركون، والتفوا من خلف المسلمين، وانقضوا عليهم. وكما رأينا في الحدث، أن الرسول ﷺ كان متمسكًا بدعوته صابرًا محتسبًا، وهو يحاور أبا سفيان، ويعلّم أصحابه أن هذه "الأزمة" عابرة، وأن قتلى المسلمين في الجنة، وقتلى الكفار في النار، وليعلُ الله جل شأنه على الجميع. وهنا تكون الآية مرسخة لجملة دروس :

إن الله ناصرٌ عباده المؤمنين متى توكلوا عليه، وأخذوا بالأسباب دون كلل أو تسلل من الدنيا إلى قلوبهم، ومن الأسباب : طاعة الرسول / القائد، التزام الأوامر مهمًا تكلف الأمر.

٧٣) سورة آل عمران، الآية ١٤٠.

٧٤) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير، أبو جعفر الطبري، تحقيق : أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م، ج٧، ص٢٣٩.

٧٥) الروايات التفسيرية في فتح الباري، عبد المجيد الشيخ عبد الباري، رسالة دكتوراه. قال مؤلفها: عزمت على جمع تلك الروايات في مكان واحد وترتيبها وتخريجها وبيان درجتها من الصحة، الناشر: وقف السلام الخيري، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦ مـ، ج١، ص٣١٢.

وأن الهزيمة أو الأزمة في مرة لا تعني الانهزام والانكشاف التام أمام الأعداء وإنما هي تقع ضمن الأيام المتداولة، لذا ذكر الله تعالى : { إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ}، فالألم يصيب المؤمن والكافر، وشتان بين مصير المؤمنين وعقاب الكافرين، فالمؤمن في انتصاره ينال الثواب والأجر ومن مات على نيته الخالصة لله نال الشهادة والجنات العلا، أما الكافرون فهم غارقون في دنياهم، ومن مات منهم فمصيره النار، خاسرًا دنياه وآخرته.

كما أن الرسول ﷺ ظلَّ ثابتًا معلمًا أصحابه، واثقا بنصر الله وعلو دعوته، لذا في وجه مضاف لتفسير قوله تعالى : { وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} أن المولى تعالى أخبر على سبيل التسلية أن الأيام على قديم الدهر لا تبقي الناس على حالة واحدة، والمراد بالأيام أوقات الغلبة والظفر، يصرفها الله على ما أراد تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء، فالحرب سجال [٧٦]

ويلاحظ أن الأزمة فيما سبق كانت ذات بُعدين : بُعد جمعي متمثل في حالة الخوف الشديد الذي يصيب المؤمنين، وبُعد فردي يتمثل في اهتزاز الثقة وركون الفرد إلى الجبن والفرار والأمل في الدنيا، أما الكفار فهم على غيهم وغرقهم في الدنيا في جمعهم وإفرادهم.

ومن هنا، فإن النهج التربوي الإسلامي، يتوّجه إلى الذات في الدرجة الأولى وينظر للجماعة في مرحلة تالية، إنه يستهدف استنهاض الذات وحفز الدوافع الإيجابية كي تخرج مكامن الخير في الأعماق، وساعتها ستكون النفس، كل نفس، تساعد الآخرين، وتحل الأزمات العارضة، بعدما اجتازت ما فيها من تناقضات، وطوّعتها للخير، وفي حالة شطط النفس فإن النهج الإسلامي - بما غرسه في النفس – سيسارع بتصويب هذا الشطط، ويمكن أن نؤكد أن منهج الإسلام في التعامل مع الذات كي تواجه أزماتها يتبلور في النقاط الآتية [٧٧]:

– إخراج القوى الكامنة في الذات :

وهي قوى متنوعة ومتعددة، وتختلف من ذات إلى أخرى، فهناك نفوس تتفوق في العلم الشرعي، وأخرى في الجانب الحركي، وثالثة في مساعدة الآخرين، ورابعة في تخصصات العلم، وهذا في مجمله يخدم المجتمع، والمجتمع الزاخر بالأفراد الصالحين المبدعين الحركيين، تكون أزماته أقل من مجتمع حافل بالجهلة أو الخاملين أو الكسالى أو الأنانيين النرجسيين.

- معالجة التركيبة التناقضية المعقدة للأخلاق والطباع :

فكل نفس بشرية فيها من الطباع التي قد تنفّر الآخرين منها، وبها تناقضات قد تجعلها متأرجحة بين البذل والبخل، الحركة والكسل، وهنا يأتي دور الإسلام الذي يهذب النفوس ويجعلها تروض الطباع الفظة، وتواجه التناقضات المحبطة وتوجهها لما فيه الخير لصاحبها. وتتم المعالجة عبر آليات

---

٧٦) تفسير البحر المحيط، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان، تحقيق : عادل أحمد، علي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م،، ج٣، ص ٣٩٦.

٧٧) قيادة الذات وإدارتها، نسيبة عبد العزيز العلي المطوع، سلسلة رؤية تربوية، ط٢، الكويت، على نفقة المؤلفة، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م، ص٥٩. مع شرح وتفصيل من قبل الباحث لكل نقطة من النقاط المذكورة.

عديدة منها : محاسبة النفس، إصلاح النية، التوبة، طرد الهوى والشيطان من العقل، كبح جماح الشهوة، حسن الظن، وهي تصلح أعطاب النفس تلقائيا، فالإسلام يجعل النفس الأمارة بالسوء والشيطان ورفقاء السوء أعداءه الأوائل[٧٨].

توليد القوة النفسية من التوازن الداخلي :

والقصد بالقوة النفسية : الدافعية، أما التوازن الداخلي فيعني : اتساق نفسية المؤمن بإزالة العوائق ، والتناقضات ، فتتخلص النفس من شوائبها ، وتتبقى فيها الدافعية للخير ، المعززة بروح وثابة ، ونفسية لا تعاني من عقد ، تضع نصب عينيها قول الله تعالى : { لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}[٧٩] ، فالبلاء يتأتى من المسارعة في الخيرات، واستغلال الأوقات والجهود في التنافس الخيريّ.

- المجاهدة الذاتية والجماعية للمعاصي تُجنِّب المجتمع أخطارًا وأزمات كثيرة

فالمعاصي لها آثارها الاجتماعية التي تسبب أزمات كثيرة ومستمرة، مثل معاقرة الخمور وإدمان المخدرات، فالمعصية مضرة لصاحبها، مفسدة للمجتمع معيقة عن الإنتاج للفرد والأمة [٨٠]. أي الوقاية للنفس والمجتمع من المعاصي ؛ خير من علاج الأزمات.

منهج إدارة الأزمة في المنظور الإسلامي :

بداية، فإن علم الإدارة هو علم وضعي، يستمد مبادئه وأسسه من تجارب العقول البشرية، والتي غلب عليها الطابع العلماني ، المقصي بدوره للجانب العقدي والإيماني عن الحياة ، فهو يركز على الجانب الدنيوي فقط. لذا، فإن نواته تتركز في بيئة الإنسان المادية فقط ، من أجل تحقيق التقدم والتطور لمجتمعاتهم ، دون النظر إلى أخلاق الإنسان وكرامته ودينه. وهذا الفصل بين الديني والدنيوي، يؤدي إلى تغييب مفهوم "المشيئة الربانية"، لأن النهج العلماني الغربي يرى العقل البشري قادرا على السيطرة على الطبيعة وقهرها ، عن طريق التحكم والتنبؤ بالمستقبل ، وعدم الأخذ في الاعتبار قضاء الله وقدره [٨١].

فلو أردنا النظر إلى رؤية الإسلام لعلم التخطيط الإداري ، الذي يتفرع منه علم إدارة الأزمة ، ستكون : "عملية استفراغ الوسع من قبل الفرد أو الجماعة في الأخذ بالأسباب الشرعية والاستفادة من دروس الماضي والحاضر ، لوضع التدابير اللازمة لمواجهة المستقبل، مع التوكل على الله فيما قدّر من نتائج، لتحقيق أهداف تتفق مع مقاصد الشريعة أو لا تتعارض معها" [٨٢].

---

٧٨) المرجع السابق، ص٤٨، ٤٩.

٧٩) سورة الملك، الآية (٢).

٨٠) قيادة الذات وإدارتها، ص٧٤.

٨١) التخطيط الإداري بين المفهوم الإسلامي والمفهوم الوضعي، د. فيصل بن أحمد شعيبي، بحث منشور في مجلة : الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، السنة ١٧، العدد ٥١، شوال – ديسمبر ٢٠٠٢، ص٢٥١، ٢٥٢.

٨٢) المرجع السابق، ص٢٥٣.

ولاشك أن إدارة الأزمة لا تخرج عن هذا التعريف كثيراً ، غير أننا سنضيف لها أن المخطط الإداري يخطط دون وجود أزمات عاجلة أو مزمنة أو قصيرة، تضغط عليه لاستجلاب الحلول لها، أما علم إدارة الأزمة من المنظور الإسلامي فهو: فنٌّ التعامل مع الأزمة، باستفراغ طاقات الفرد أو الجماعة، وكل من بيده الحل أو جزء منه، متوكلا على الله بيقين كامل، آخذا بالأسباب والخبرات المتاحة، في ضوء مقاصد الشريعة وغاياتها، من أجل إيجاد حل للأزمة.

فلابد من النظر إلى غايات الشريعة الإسلامية، التي وضعت نظاما – لو طبق كاملا – لتجنّب الفرد والمجتمع معًا أزمات لا آخر لها، وإن حدثت أزمات مفاجئة ناتجة عن أخطاء بشرية أو تقلبات طبيعية ، صار من السهل مواجهتها ، فالقصد في التشريع إقامة المصالح ، فـ"الشارع قد قصد بالتشريع إقامة المصالح الأخروية والدنيوية، وذلك على وجه لا يختل لها به نظام، لا بحسب الكل، ولا بحسب الجزء، وسواء في ذلك ما كان من قبيل الضروريات أو الحاجيات أو التحسينات، فإنها لو كانت موضوعة بحيث يختل نظامها أو تخل أحكامها، لم يكن التشريع موضوعا لها ؛ إذ ليس كونها مصالح إذ ذاك بأولى من مفاسد، لكن الشارع قاصد بها أن تكون مصالح على الإطلاق" [٨٣].

فهذا يقودنا إلى أمر مهم، يلزم وضعه في الحسبان، وهو أن الإسلام، وبهدي من القرآن وتأصيل منه ، وضع نظاما شرعيا إسلاميًا متكاملا ، لا تطغى فيه الضرورات الأساسية للمجتمع على التحسينات، وهذا من شأنه أن يحفظ المجتمع من مفاسد كثيرة، وأزمات متلاحقة، فإذا كانت هناك أزمة في الغذاء مثلاً، فهذا عائد لغياب تخطيط صحيح لتوفير الطعام من الزراعة، وإذا عمَّ الفقر فهو ناتج عن بُخل الغني وبطره، وغياب التخطيط الجيد للعمل الذي يحمي الناس من غائلة الفقر، وهذا البعد أساسي في منظور الشريعة، ولابد للراعي في المجتمع أن يضع نصب عينيه مصالح الناس الدنيوية الضرورية ، كي يحميهم من أزمات هي حادثة إن عاجلا أو آجلا ، فـ" المصالح الدنيوية – من حيث هي موجودة هنا – لا يتخلص كونها مصالح محضة، وأعني بالمصالح ما يرجع إلى قيام حياة الإنسان وتمام عيشه ونيله ما تقتضيه أوصافه الشهوانية والعقلية على الإطلاق حتى يكون منعّما على الإطلاق " [٨٤]، ولا يعني أن نهتم بالضروري أن نترك الحاجي والتحسيني، "لأنه إذا كان الضروري قد يختل باختلال مكملاته، كانت المحافظة عليها لأجله مطلوبة، ولأنه إذا كانت زينة لا يظهر حسنه إلا بها، كان من الأحق أن يخلّ بها " [٨٥].

فالهدف الأسمى للتخطيط الإداري في ضوء علم إدارة الأزمات تحقيق رضا الله سبحانه وتعالى، والعمل على تحقيق مقاصد الشريعة الخمسة (حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال)، وأن يكون الإنسان هو نواة هذا التخطيط مصداقًا لتكريم الله سبحانه للإنسان {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً }[٨٦]، والتخطيط الإداري يتوجه إلى عمارة الأرض واستثمار خيراتها بالطرق التي شرعها الله

٨٣) الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، ج٢، ص٣٠، ٣١.

٨٤) المرجع السابق، ص٢٠.

٨٥) المرجع السابق، ص٢٠.

٨٦) الإسراء، الآية (٧٠).

نظرا لتسخير الله عزّ وجلّ الكون للإنسان ؛ المستخلف من الله على الأرض، والذي في النهاية يسعى إلى تحسين حياته في مختلف النواحي، وبهدف تحقيق التنمية الشاملة للمجتمع كله، مما يحفظ لأبناء المجتمع حقوقهم وكرامتهم (٨٧).

ومن المهم مراعاة درس بالغ الأهمية، يتمثل في دور المركبات المادية وغير المادية في حياة الإنسان، وفي أزماته، فالمجتمعات الفقيرة التي تعاني من شح المادة، ويجاهد أبناؤها للعيش والحصول على لقمة الخبز، وبعضهم يغامر بحياته مستقلا القوارب هربًا من شدة الفقر، ولابد أن يحتل الأولوية، فالشخص العائش في المجتمع شديد الفقر لن ينفع معه كلام عن سعادة الروح، لأنه مشغول بفيه وأفواه أبنائه من حوله (٨٨)، وهذه أزمة متصلة لابد من تضافر المجتمعات البشرية لحلّها، وفي طليعتها الدول المسلمة الغنية، ولازلنا نتذكر أن ما يزيد عن خمسة ملايين طفل ماتوا جوعًا في الدول الأفريقية جنوبي الصحراء الكبرى. أيضًا، هناك أزمات طاحنة مرَّت على دول عديدة ولنا في المجاعات التي شهدتها الصين خلال الأعوام (١٩٥٩-١٩٦١) وأودت بحياة ما بين ١٥ و٣٠ مليون نسمة، وتلك التي وقعت في أثيوبيا (١٩٨٤-١٩٨٥) وكوريا الشمالية (١٩٩٥-١٩٩٩) فهي خير أمثلة.

وثمة عوامل طبيعية وراء العديد من المجاعات التي تحدث، مثل الجفاف والفيضانات والأعاصير وغزو الجراد والآفات الضارة والأمراض التي تصيب المحاصيل.غير أن أكثر أسباب المجاعات شيوعا الحروب التي تنشب هنا وهناك وتؤثر على توزيع المحاصيل والمواد الغذائية جراء اللجوء لأساليب الحصار والإغلاق وتدمير طرق النقل والشاحنات، ومما يفاقم المجاعات ويزيد من وتيرتها سوء إدارة الحكم، وانعدام الأمن، والافتقار إلى البنى التحتية الضرورية، والتعليم الجيد. ويوجز البعض العوامل الأخرى التي تسبب المجاعة في الفقر، والبنية التحتية الاجتماعية غير الملائمة، ونظام الحكم الضعيف(٨٩)، ناهيك عن الكوارث التي حلت ببعض البلدان المسلمة مثل أفغانستان وسورية والصومال والسودان. وفي هذه الحالة، سيتأخر البعد الروحاني عن البعد المادي، وسينقلب الكثيرون إلى أشرار وفسدة أملا في تحصيل القوت بأي ثمن، وهذه أزمات مزمنة، ترتبط بالتخطيط المركزي في هذه الدول وبتحسين الوضع الاقتصادي المتردي، وبمساعدة من الدول الثرية والمتقدمة (٩٠). ولاشك أن هذا منطقي، وأن مقولة "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان" ستتراجع أمام هذه الأزمات الحياتية، إلا أن الحل لابد أن يبدأ ممن بيده المساعدة، والقدرة على إيجاد الحلول قريبة المدى، ووضع

---

٨٧) التخطيط الإداري بين المفهوم الإسلامي والمفهوم الوضعي، ص٢٥٥، ٢٥٦.

٨٨) الإسلام والمعضلات الاجتماعية الحديثة، مجموعة من الباحثين، بحث بعنوان : الإسلام والاقتصاد، للبروفيسور الباكستاني :محمد ن. هدى، منشورات دار الكاتب العربي، ودار الشوّاف، ط١، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، ص١١.

٨٩) المجاعات في أفريقيا، تقرير إخباري، إعداد : عبد العظيم محمد الشيخ، على موقع " الجزيرة نت " الإخباري، بتاريخ السبت ١٤٣٣/٦/٢٧ هـ - الموافق ٢٠١٢/٥/١٩ م ، على الرابط
http://www.aljazeera.net/news/pages/1e60be1d-41f4-47c6-b501-9f3a69097b6f

٩٠) الإسلام والمعضلات الاجتماعية الحديثة، ص١٢.

الخطط بعيدة المدى، وهنا يأتي دور الجمعيات الخيرية ومن يدعمها من الصالحين، للمسارعة في الإغاثة، ومن بعدهم المخططون الاقتصاديون.

إن المقصود مما تقدّم وجوب إقامة النظام الاجتماعي الاقتصادي بشكل مكتمل وبما يتضمن سعي الإنسان من أجل توفير ضروريات حياته، وأيضًا حاجاته وتحسيناته، لأنه لو تقاعس الفرد عن السعي، وتقاعس المجتمع عن توفير الضروريات والحاجيات ستظهر أزمات كثيرة لأنها تتصل بأمور المعاش التي يحتاجها كل فرد. فالمقصد الشرعي للشريعة :إقامة المصالح الدنيوية والأخروية على وجه كلي، فالله تعالى أعلم بما يصلح عباده منهم، والكلي هنا يعني: أن تجري أمور الخلق على ترتيب ونظام واحد لا تفاوت فيه ولا اختلاف، وإهمال القصد في الجزئيات يرجع إلى إهمال القصد في الكلي، فلابد من صحة القصد إلى حصول الجزئيات وليس البعض في ذلك أولى من البعض [٩١].

فيجب النظر في مقاصد الشريعة، التي تتحقق فيها سعادة الناس في الدنيا، والدالة على الأولويات التي ينبغي التمسك بها، مما يمنع بلا شك كل الأزمات الحياتية والمعيشية المهددة لوجود الإنسان وما يرتبط بهذا الوجود من عقل ونفس ودين ونسل.

فهناك المقاصد الأصلية :وهي أن يحفظ دينه ؛ اعتقادًا وعملاً، ويحفظ نفسه؛ قيامًا بضروريات حياته، ويحفظ عقله :حفظًا لمورد الخطاب عن ربه، ويحفظ نسله: التفاتًا إلى بقاء عوضه في عمارة هذه الدار، وألا يضعه في حرام ؛ كيلا تختلط الأنساب، ويحفظ ماله :بالاستعانة على إقامة تلك الأوامر. ويتبع المقاصد الأصلية ما يسمى بـ "المقاصد التبعية" وهي التي روعي فيها نصيبا لتكليف الفرد، فمن جهتها يحصل له مقتضى ما فطر عليه من الشهوات والاستمتاع بالمباحات. ولو تأملنا المقاصد التبعية سنجد أنها خادمة للمقاصد الأصلية ومكملة لها، ولو شاء الله لكلف بها عباده مع الأعراض عنا لحظوظ، أو سلب بالدواعي المجبول عليها، ولكنه جلّ وعلا أنعم على عباده بما جعله وسيلة إلى عمارة الدنيا بنيل ثواب الآخرة، وجعل اكتساب هذه الحظوظ مباحا، على قوانين شرعية هي أبلغ في المصلحة [٩٢]. مما يعني أن حكمة الله - جل شأنه - جعلت المقاصد الأصلية بمثابة الأهداف الاستراتيجية لكل مخطط، ولابد من إيجادها، وهي في مجملها تحفظ حقوق الفرد في مجتمعه، مثلما تحفظ أمن المجتمع ككل، ومنع الأزمات التي تعصف باستقراره وهنائه.

فمن المؤكد أن الإسلام لا يحصر اهتمامه بمظاهر حياة الفرد الروحية وبالتعبد فقط، وإنما يتعدى هذا النطاق لبلوغ التنظيم الاجتماعي في كل مظاهره فالإسلام ينص على بناء اجتماعي خاص، قائم على العدالة والتكافل والتراحم والتماسك، وهذه قواعد عامة، والتفاصيل متروكة لمتطلبات الزمان والمكان[٩٣] ويمنع في سبيل ذلك أية أنشطة مخالفة للشريعة وإن عادت بالنفع على بعض الفئات،

---

٩١) الموافقات في أصول الشريعة، للشاطبي، ج٢، ص٥١، ٥٢.

٩٢) المرجع السابق، ج٢، ص١٥٢، ١٥٣.

٩٣) الإسلام والمعضلات الاجتماعية، بحث : الاقتصاد في البناء الاجتماعي في الإسلام، للشيخ محمد أحمد، ص٢٥

فمن يقول إن إباحة إقامة مصانع الخمر والمسكرات والدخان وما شابه تكون منافع اقتصادية لبعض الناس في المجتمع، وتوفر فرص العمل وتؤدي لاتساع نطاق التجارة الداخلية والخارجية، نرد عليه : أن الإسلام لم يبال بالمنفعة المادية العاجلة ليتفادى أخطاء هائلة ناجمة عن إباحتها تطول الدين والعقل والخلق والسلوك (٩٤)، فهي تتعارض مع مقاصد الشريعة ابتداء وانتهاء.

الأزمة والابتلاء في القرآن الكريم :

بداية، لابد من الإشارة إلى أن الأزمات ابتلاء يصيب الناس مصداقًا لقوله تعالى : {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ* الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}(٩٥)

فخطاب الآية موجه للمؤمنين، يؤكد أن ما يصيبهم من خوف، وجوع، ونقص في المال والثمار، وخسارة بعض الأنفس ؛ إنما هو من الابتلاء، ولأن الخطاب موجه إلى المؤمنين فإن الله جل شأنه يعطيهم النهج الصحيح، وهنا نجد أن المصطلح الدال على الأزمة جاء واضحًا في لفظين : "النبلونكم" ، "المصيبة"، الأول يعطي دلالة البلاء ويعني لغويا الاختبار (٩٦)، وهو نفس المعنى الشرعي تقريبًا ، فيمكن أن يكون الابتلاء خيرًا أو شرًّا ؛ في الخير بكثرة المال والولد والمزروعات والأنعام... ؛ وفي الشر بتعرض الصحة للضرر والفقر والقتل والنفي والقحط... {وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }(٩٧) ودلالة الحسنات تعني: الخيرات، والسيئات تعني بعض الأزمات التي تصيب الفرد، من مرض وتعب وشقاء. ويمكن أن يكون هذا لذنوب اقترفها أصحابها: {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ}(٩٨) فاشتملت الآية على تنبيه المؤمنين أن المصائب تكون مما فعلوا من معاص، ولكن رحمة الله واسعة بالكثيرين، وكما قال تعالى : { ونبلوكم بالشرّ والْخيرِ فتنةً }(٩٩).

وعموم المفسدة في حد ذاته يعد من الأزمات ، لأنها مؤدية إلى أزمات اجتماعية واقتصادية وإنسانية عديدة، وإذا قيل إن المجتمع الواحد يكون فيه من الأمور الصالح والطالح، فكيف يمكن التنبيه على وجود مفاسد قد تؤزم الحياة المجتمعية، يكون الجواب إن "المصالح والمفاسد الراجعة إلى الدنيا إنما تفهم على مقتضى ما غَلَبَ، فإذا كان الغالب جهة المصلحة، فهي المصلحة المفهومة عُرفًا، وإذا غلبت الجهة الأخرى فهي المفسدة المفهومة عُرفًا... فإن رجحت المصلحة فمطلوب ويقال

---

٩٤) دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٥هـ، ص٥٩

٩٥) سورة البقرة، الآيات (١٥٥ -١٥٧).

٩٦) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط ١، د ت، فصل الياء، باب الباء، ج١٤، ص٨٣.

٩٧) سورة الأعراف، الآية (١٨٦)

٩٨) سورة الشورى، الآية (٣٠).

٩٩) سورة الأنبياء، الآية (٣٥).

فيه إنه مصلحة، وإذا غلبت جهة المفسدة فمهروب عنه ويقال إنه مفسدة" (١٠٠)، وهذا يتطلب أن يكون الراعي واعيًا لحركة المجتمع، وحجم المصالح والمفاسد ومدى انتشارها فيه، كيلا تعم البلوى، وتشتد الأزمة.

ويمكن أن يكون البلاء بالنّعم والخيرات { أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ } (١٠١).

والخطاب هنا موجه للجماعة المؤمنة، فالله تعالى عاقب بالهلاك أقوامًا، نالوا التمكين في الأرض، بما يستتبعه من سلطان وقوة وعمارة وتوسع، ونعموا بخيرات طبيعية من أمطار وأنهار وزروع وثمار، ولكنهم كفروا بأنعم الله، فكان الهلاك.

مرة أخرى : تكون الأزمة بمعصية الله، ويكون العقاب بالإهلاك. إذن، الوجه المقابل : في حالة استمرار الطاعة، فإن الله لا ينزل عقابه الجماعي، مادام عباده مؤمنين مؤدين طاعاته، إلا في حالات الابتلاء، التي قد تكون فردية أو لدى جماعة صغيرة، ليمحص الله بها المؤمنين.

ويمكن أن نرصد أشكال الابتلاء في القرآن على شكلين (١٠٢):

الأول : ابتلاء العقول : ويعني أزمات تصيب العقل البشري، فيفتقد الحكمة، وتغيب عنه البصيرة، فيتخبط في الحياة، ولا يهتدي إلى طريق الخير والرشاد، فمن المصائب أن يرزق الإنسان الذكاء، ويضل في الفهم. مصداقًا لقوله تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا }(١٠٣). والثاني : ابتلاء الأجساد وما يستتبعه من آلام ومشكلات في الحياة والمعيشة.

وقد جاء في تفسير البغوي : فجعلناه سميعًا بصيرًا لنبتليه ؛ لأن الابتلاء لا يقع إلا بعد تمام الخلقة، أي بينا له سبيل الحق والباطل والهدى والضلالة، وعرفناه طريق الخير والشر؛ إما مؤمنا سعيدًا وإما كافرًا شقيًا. وقيل : معنى الكلام الجزاء، بما يعني أننا بيّنا له الطريق إن شكر أو كفر (١٠٤)، وهنا تكون الحكمة الربانية في جعل الابتلاء ضمن قدرات الإنسان، وبعد تمام تكوينه الجسدي والعقلي والنفسي، لتكون له الخيارات في حياته.

---

١٠٠) الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، ص٢١.

١٠١) سورة الأنعام، الآية (٦).

١٠٢) مفهوم الابتلاء في القرآن الكريم، د. نصار أسعد نصار، بحث منشور في مجلة جامعة دمشق، المجلد ٢٠، العدد الأول ٢٠٠٤ م، ص١٨، ١٩.

١٠٣) سورة الإنسان، الآيتان (٢، ٣).

١٠٤) معالم التنزيل، المعروف باسم : تفسير البغوي، للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق : محمد عبد الله العمر، عثمان جمعة، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ج٨، ص٢٩٢، ٢٩٣.

وتتفق الأزمة مع الابتلاء في أوجه ويختلفان في أوجه أخرى...

أما أوجه الاتفاق فيبدو في أن كل منهما ألمٌ وتعب يصيبان الفرد المؤمن في حياته، وينال المؤمن الأجر على الصبر والاحتساب، وقد تكون تكفيرا للذنب، واختبارا للمؤمن، وسبيلا للترقي الروحي والإيماني والسلوكي...

أما أوجه الاختلاف فتبدو في كون الأزمة حسب المفهوم المعاصر (في علم إدارة الأزمات) تصيب جماعة من الناس؛ قليلة أو كثيرة، في حين أن الأزمة وفق الرؤية الإسلامية تصيب الفرد والجماعة، ويمكن أن تتخذ أبعادًا عديدة: نفسية واجتماعية واقتصادية وسياسية، وبعض هذه الأزمات يكون ابتلاء، وبعضها عقابا، والعقاب قد يشمل الفرد ذاته، أو الفرد والجماعة المنتمي إليها، أما في علم إدارة الأزمات، فإنه يركز على الآليات والإجراءات الواجب اتباعها من أجل الخروج من الأزمة في ضوء مسبباتها، أما في الرؤية الإسلامية، فإن هذه الإجراءات مطلوبة في ضوء واجب الراعي والرعية عند وجود الأزمة، ولكن لابد من مراجعة الذات النفسية والمجتمعية، لنرى هل هذه الأزمات عقابًا أم ابتلاءً، وكيف تكون النجاة من المعاصي لنيل رضا الله تعالى.

وهنا تثار قضية مهمة، تتصل بمفهوم "دولة الرفاه الاقتصادية" وما يمكن تسميته بالنعم الموفورة والرعاية الاجتماعية والاقتصادية الكاملة للمواطنين، على كثرة ما فيها من معاصٍ وجرائم ونأي عن منهج الله، فالرؤية الاقتصادية فيها تعتمد على تلبية احتياجات الفرد / المواطن بكافة متطلباتها المادية، وذلك بتقديم خدمات كاملة له من قبل الحكومات، فهي تلبِّي الاحتياجات الإنسانيَّة الأساسيَّة لمواطنيها كجزء من إحقاق حقوقهم السِّياسيَّة، وبشكل أكثر تحديدًا إنَّ دولة الرِّفاه تسعى إلى ضمان الأمن الاجتماعي لمواطنيها، وتوفير دخلٍ ثابت، وتغذية، ورعايةٍ طبيَّة، وتعليم، وسكنى، وعملٍ وخدمات رفاهٍ خاصَّة لكُلِّ مواطنيها، وكذلك تقليص الفجوات الاجتماعيَّة إلى حدٍّ معيَّن. يتمّ تحقيقُ هذه الأهدافِ بواسطة فعاليّاتٍ تُبادرُ إليها الدَّولةُ بعددٍ من الطُّرُق، تشملُ: مدفوعات مباشرة لمخصَّصات التّقاعُد، تزويدًا مباشرًا للخدمات الاجتماعيَّة، ضمان تقاعُدٍ غير مباشر بواسطة نظام الضَّرائب، وكذلك عمليّات تدخُّل مختلفة في الاقتصاد وسوق العمَل [١٠٥]، وإن كان حدث تراجع كبير في هذا المفهوم في ضوء العجز في ميزان المدفوعات، واتساع حجم البطالة، وإعاناتها، وتكاليف شبكات الرعاية الاجتماعية المختلفة، مما حدا بالاقتصاديين إلى تبني مفهوم الليبرالية الجديدة، المعتمد على المزيد من تحرير الأسواق، وكبح النقابات العمالية، وتعزيز الاستثمار الأجنبي عبر البنيات التحتية القوية، وتخفيض أجور العمالة، وإعانات البطالة، وتقليل نفوذ الحكومات، والحد من ضرائب الإغراق والتحكم في الأسواق المحلية[١٠٦].

---

١٠٥) راجع : سياسات الرفاه الاقتصادي والاجتماعي في قطر: طبيعتها وانجازاتها وآثارها السياسية،عبد الكريم محمود الدخيل، مركز البحوث والدراسات السياسية، جامعة القاهرة، ١٩٩٣، ص٣-٤ وانظر أيضا: دولة الرفاه، جون جيل، ترجمة :يوسف شحادة على موقع clickit3.ort.org.il/APPS/Public/GetFile.aspx?inline

١٠٦) راجع : اقتصاد يغدق فقرا، هورست افهيلد، ترجمة : د. عدنان عباس علي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، يناير ٢٠٠٧م، ص٢٢ وما بعدها.

فأمر دولة الرفاه محمود ومطلوب وواجب على من بيده الأمر، ولكن القضية أن تنحصر المهمات الموكولة في الجوانب المادية فقط، مما يجعل الفرد غارقا في إشباع ملذاته، وإهمال الجوانب الروحانية، فلن تكون " الأزمات " مادية، بل نفسية واجتماعية، وذلك ما نراه جليا في ارتفاع نسب الانتحار وإدمان المخدرات في دول كثيرة حظيت بالرفاه في أفضل نماذجها (مثال الدول الاسكندنافية)، والمنظور الإسلامي يعتمد على التوازن بين المادية والروحانية، بحيث لا يطغى جانب على آخر، ولا تطغى مصلحة الفرد على مصلحة الجماعة، مع حفظ ملكية الفرد، والاهتمام بمصلحة الجماعة،

بل جعل النشاط الاقتصادي سعيًا في سبيل الله، فالهدف رباني، والأهم التقوى فهي مفتاح الخيرات لجماعة المؤمنين[107] { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }[108] فالكفر بأنعم الله يصبح سبيلاً لانتقام الله، وقد يحدث ما يسمى "الاستدراج بالنعم" حيث ينال أهل المعاصي لذة من عيش ويدركون أمنياتهم الدنيوية، فيكون ذلك استدراجا من الله ونقمة[109]، عملاً بقول الرسول ﷺ : "إذا رأيت الله تعالى يعطي العباد ما يشاءون على معاصيهم إياه، فإنما ذلك استدراج منه لهم"[110]، وتلا قوله تعالى : {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ}[111]

إذن هناك أمور عديدة يجب التوقف عندها :

فالإسلام يحض على حفظ حقوق الفرد والجماعة، ويوجب على الراعي وولي الأمر حفظ هذه الحقوق وفق السبل المقررة شرعا، وما تجود به القرائح البشرية من خبرات وأفكار تساهم في نهضة المجتمع، كما يوجب على الفرد المسارعة في النوائب؛ واجبةً على الأهل والإخوان والجيران، وتبرعا على البعداء الذين لا يدلون بنسب ولا يتعلقون بسبب للفرد، ويعد هذا من شيم المروءة، ومن حكم المؤازرة[112].

والإسلام في نهجه الاجتماعي والاقتصادي يرسخ مبدأ المادية والروحية، فلا يطغي جانب على آخر، والروح هي الأساس، عكس ما يراه علم إدارة الأزمات وغيره من العلوم الحديثة، التي تقتصر على رصد المتغيرات المادية، وسبل علاجها، وتعدّ التغيرات النفسية من الآثار المترتبة على الأزمة فقط،

---

١٠٧) موسوعة القضايا الفقهية المعاصرة والاقتصاد الإسلامي، د. علي السالوس، نشر : مكتبة القرآن، القاهرة، ط٧، ٢٠٠٢م، ص٢٨، ٢٩.

١٠٨) سورة الأعراف، الآية (٩٦).

١٠٩) أدب الدنيا والدين، الماوردي، ص١٣٨.

١١٠) رواه ابن لهيعة عن عقبة بن مسلم، عن عقبة بن عامر، رواه أحمد بن حنبل في مسنده برقم (١٦٩٧٧) وذكره في كتاب الزهد، وذُكِر في كتاب الشكر لله لابن أبي الدنيا، وذكره ابن حجر العسقلاني في اتحاف البهرة برقم (١٣٣٦٩).

١١١) سورة النساء، الآية (٤٤).

١١٢) أدب الدنيا والدين، الماوردي، ص٤٣٣-٤٣٥.

ولا علاقة بالروح والنفس بالأزمات، فهي تبدأ بالمادي وتنتهي به، وتكون النفس تابعة للمادي، أما رؤية الإسلام فهي ترى أن الروح والمعاصي والخطايا مع أخطاء البشر المادية أيضًا سببًا في الأزمات والكوارث، ناهيك عن عقاب الله للعصاة والمجرمين.

ووفور النعم ليس دائمًا ، فهذا شأن الدنيا، تتقلب بالناس والمجتمعات، والرؤية الإسلامية تعتمد على تحقيق متطلبات الفرد (الضروريات والحاجيات والتحسينات) وفق الأولوية لها على الترتيب، تحسبًا لأية تقلبات اقتصادية أو طبيعية مفاجئة، وقد أعدّ لهذا المجتمع المسلم، من الجانب

الروحاني، بأن تكون الأزمة ناتجة عن عصيان لله، وقصور في عبادته، وإسراف في التمتع بالنعم إلى حد السفه، وقصور في إدارة الثروات في الدولة، ومن هنا لابد أن تكون المراجعة أثناء الأزمة فردية وجماعية، وحل الأزمة فردي وأيضًا جماعي.

وعندما وضع الإسلام مبدأ التكافل وضمان الكفاية ضمن مبادئه الاقتصادية[١١٣]، فإنه أوجب تضافر جميع القوى والأفراد والمؤسسات في المجتمع مع الحكومة قبل وأثناء وبعد الأزمة في علاج هذا الأمر، فلا ينأى الأغنياء عن مسؤولياتهم الاجتماعية، ولا يُترك الفقراء تقطّعهم الحاجة. وهذا ما أكدته البحوث الاقتصادية للأزمات التي تكتوي بها المجتمعات المأزومة، حيث رأت ضرورة : تعزيز السبل الضرورية وتوسيعها لمشاركة الأهالي مشاركة فعالة في الإجراءات الحكومية، وتغيير توزيع الدخل القومي ليشمل حصول كل شخص على متطلبات حياته، والأهم إحياء وتشجيع ومؤازرة الأغنياء للفئات الأخرى [١١٤].

أيضًا ، فإن رؤية الإسلام لدور الفرد في جماعته، ودور الجماعة نحو الفرد تتعزز من كون "صلاح الدنيا معتبر من وجهين، أولهما : ما ينتظم به أمور جملتها "جماعتها"، والثاني : ما يصلح به حال كل واحد من أهلها، فهما شيئان لا صلاح لأحدهما إلا بصاحبه، لأن من صلحت حاله مع فساد الدنيا واختلال أمورها لن يعدم أن يتعدى إليه فسادُها، ويقدح فيه اختلالها... ومن فسدت حاله مع صلاح الدنيا وانتظام أمورها، لم يجد لصلاحها لذة ولا لاستقامتها أثرًا"[١١٥] وهو برهان أن الفرد والمجتمع متلازمان، تلازمًا نفسيًا وماديًا وروحيًا.

ملامح الأزمة في القرآن الكريم :

يمكن أن نرصد ملامح الأزمة، كما أبانتها الآيات القرآنية التي تعرض أحوال الأزمات بالناس، ومآلها، وهي مأخوذة من النماذج العديدة للأزمات المقدمة في القرآن الكريم، والتي تكاد تتشابه فيما بينها ، على النحو الآتي :

١) اشتداد الأزمة وتعقدها :

فمن صفات الأزمات إذا اشتدت أنها تصيب الناس بالاضطراب الفكري والنفسي، وتجعلهم في حالة من الظلام والشكوك، كما في قوله تعالى : {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ

١١٣) موسوعة القضايا الفقهية المعاصرة والاقتصاد الإسلامي، د. علي السالوس، ص٣٨.

١١٤) اقتصاد يغدق فقرا، هورست افهيلد، ص١١٥.

١١٥) أدب الدنيا والدين، الماوردي، ص١٨٠.

فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ [116]. نجد الوصف القرآني دقيقًا، مستخدمًا صورة فنية قوامها التشبيه، فمع اشتداد الأزمة، يكون حال أصحاب العقول كأنهم وسط بحر مظلم، لا يستطيع أن يدرك ما حوله، فضلاً عن إدراك حواسه نفسها. وهذا ينطبق على حال الكافر الداعية لمذهبه والذي يتقلب في خمسة من الظّلَم: فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلى

الظلمات إلى النار، ونفس الأمر مع قلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذي لا يعرف حال من يقوده، ولا يدري أين يذهب، بل كما يقال في المثل للجاهل[117] فالكافر الجاهل التابع مثل داعيته، يعيشان في ظلام دامس، ونفس الأمر ينطبق على أناس كثيرين يسقطون في أزمات كثيرة، ولكن الأزمة الأشد فقدان الرشد في الحياة وطريق الهداية.

أيضًا، فإن هذا الأمر يكون لدى كثير من الناس عندما يجدون أزماتهم لا فكاك منها وأنها تشتد يومًا بعد يوم، فيصبحون مثلما يمسون، ليلهم كنهارهم لأنهم فقدوا الصواب وأيضًا الطريق إلى الحل، وهذا من علامات تعقد الأزمة.

٢) مفاجأة الأزمة :

{ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ } [118]

فالمفاجأة عنصر ملازم للأزمة / العقاب، قد تكون هناك مقدمات لا ينتبه إليها إلا العقلاء وأصحاب الإيمان، ولكن الكفار والعصاة ومن تابعهم غارقون في ملذاتهم، حتى يجدوا أنفسهم ضائعين وسط الكارثة التي تأخذهم وتأخذ أموالهم، فلا يستطيعون تصرفًا وقد حاق مكر الله بهم، وينجي الله سبحانه من يشاء.

٣) التشكك ثم اليقين :

{ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ}[119]. تشير الآية إلى حال الكرب الشديد الذي يصيب من في الأزمات حيث تبغتهم المفاجأة، بعد اطمئنان وسعادة، فيجدوا الريح العاصفة، والموج العالي، وارتجاج السفينة بهم، فلا ملاذ من كل هذا إلا الله، وهنا يستحضرون الإخلاص في الدين والعبادة، ويتمنون النجاة من الله، شاكرين أنعمه.

٤) تآمر الأعداء وإحاطتهم :

فالله تعالى يصف حال المؤمنين في وقت المحنة : {إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا}[120]. فحين تشتد الأزمة بالجماعة

١١٦) سورة النور، الآية (٤٠).

١١٧) تفسير ابن كثير، الآية(٤٠) من سورة النور، ج٦، ص٧٢.

١١٨) سورة الأنبياء، الآية (٤٠).

١١٩) سورة يونس، الآية (٢٢).

١٢٠) سورة الأحزاب، الآية (١٠).

المؤمنة ، في مواجهة الأعداء ، ويشعرون أن العدو قد أحاط بهم ، وأنه لا فكاك منه ، والمواجهة حتمية في ضوء أن قواته أكثر من المؤمنين ، تبدو الأزمة في أبعادها النفسية ، فالقلوب وجلة ، والعيون زائغة، والأبدان مرتعدة، والشيطان يبث في القلوب ظنونا وشكوكا، ويأتي التعبير القرآني " وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ " في كناية عن شدة القلق، فكأن ما في القلوب من شكوك وخوف يجد طريقه مباشرة إلى الحناجر موطن تكوين الكلمات، قبل النطق.

وفي غزوة الأحزاب نموذج رائع لاشتداد الأزمة ، وكيف جاء الحل ربانيا ، وأيضًا حسن إدارة الرسول ﷺ للمعركة عقديًا وعسكريًا واستخباراتيًا. فقد تتالت الأنباء إلى رسول الله ﷺ أن قريشًا جمعت جموعها وظاهرتها قبيلة غطفان وتابعتها قبيلة أشجع وخرجوا جميعًا لقتال المسلمين، وجاء خبر أشد بأن بني قريظة من اليهود نكثوا عهودهم، أملاً في طعن المسلمين من الخلف، والقضاء على دين الله تعالى، فصدقت الآيات : فالعدو من كفار قريش والقبائل من فوقهم ، واليهود الغادرون أسفل منهم، أي أحيط بهم من كل جانب، فهلعت القلوب أمام الكرب، واشتد البلاء، وتحوّل الأمر إلى محنة عظيمة، وعظمت الشكوك مع مقولات المنافقين، حيث قال بعضهم : لقد كان محمد يعدنا بكنوز كسرى وقيصر، وإن أحدنا لا يملك أن يذهب لقضاء الحاجة... { هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شديدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا } [١٢١]، وهمت طائفة بالفرار، وإيقاع الضعف بالمسلمين، وجاءت تستأذن رسول الله كذبا وخداعا {وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا }[١٢٢]، وجاء الفرج بإسلام نعيم بن مسعود وما قام به من تخذيل للأعداء. حيث قال له الرسول ﷺ: " إنما أنت رجل واحد، فخذّل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة. فقام نعيم بالوقيعة المعروفة بين اليهود والمشركين، بأن نصح اليهود أن يأخذوا رهائن من المشركين، وهو ما سعى به عند المشركين بأن يمتنعوا عن إعطاء رهائن للمسلمين، وكان هذا طلبه من قريش وغطفان، فتخاذل الفريقان وخارت عزائمهم، وكان دعاء الرسول ﷺ لله تعالى: "اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم "[١٢٣]، فتم النصر بعون الله، ثم حسن قيادة الرسول للجماعة المؤمنة.

---

١٢١) سورة الأحزاب، الآيتان ١١، ١٢.

١٢٢) سورة الأحزاب، الآية ١٣

١٢٣) الرحيق المختوم (بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام)، الشيخ صفي الرحمن المباركفوري، نشر : المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م، ص٢٨٥، ٢٨٦م، وانظر أيضاً: قصص القرآن، علي محمد البجاوي، السيد شحاتة، محمد أبو الفضل إبراهيم، محمد أحمد جاد المولى، دار الرائد العربي، بيروت١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، ص٢٩٥، ٢٩٦

وفي هذه الغزوة ما فيها من الدروس والقيم، ولعل أبرزها في مجال إدارة الأزمات : الجمع ما بين الإيمان الخالص، والثبات على العقيدة، والتوكل على الله سبحانه، وأخذ الأسباب، وعدم الاستهانة بأي سبب وإن صغر أو قلَّ، ولا استصعاب أي فكرة وإن عظمت وكثرت.

٥) شدة الضر والابتلاء:

يقول المولى جل شأنه:{ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَآءُ وَالضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ}[١٢٤]

الخطاب هنا للجماعة المؤمنة حين تعصف بهم الأزمة، وتشتد كرباتها عليهم، فيجب أن يعلموا أنهم ماداموا مستمسكين بمنهج الله، فهم في دائرة الابتلاء، الذين يكون بشدة البؤس، وشدة الضر،

والزلزلة التي تصيب النفس، وتلهج الألسنة متسائلة عن موعد نصر الله. ومن المستفاد في هذه الآية أن: "دخول الجنة هنا... بدون سبق عناء وبلوى، هو دخول الذين استوفوا كل ما وجب عليهم ولم يقصروا في شيء منه، وإلا فإن دخول الجنة محسوب لكل مؤمن ولو لم تأته البأساء والضراء أو أتته ولم يصبر عليها، بمعنى أن الصبر على ذلك وعدم الضجر منه موجب لغفران الذنوب، أو المراد من ذلك أن نالهم البأساء فيصبروا ولا يرتدوا عن الدين، لذلك فيكون دخول الجنة متوقفًا على الصبر على البأساء والضراء بهذا المعنى، وتطرق هاته الحالة سنة من سنن الله تعالى في أتباع الرسل في أول ظهور الدين وذلك من أسباب مزيد فضائل اتباع الرسل، فلذلك هيئ المسلمون لتلقيه من قبل وقوعه لُطفًا بهم ليكون حصوله أهون عليهم"[١٢٥].

فالمؤمن فائز في الجنة، وترتفع درجاته عندما يصبر على الضر والبؤس، والله تعالى يهيئ المؤمنين لإمكانية وقوع البلاء، وهذا وارد ضمن الحياة الدنيا، سواء كان البلاء فرديا للفرد المؤمن أو يصيب الجماعة كلها.

٦) الفشل :

{ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ }[١٢٦].

والكلام هنا عن حال الفئة الكافرة أو العاصية، حين يصابون بالعجز القريب من الشلل الحركي، فلا يتقدمون ولا يتأخرون في سعيهم.

سُبل انفراج الأزمة :

فكما أبان القرآن الكريم مظاهر الأزمة واشتدادها، أوضح سُبل الفرج، وما يتعيّن على العبد المؤمن القيام به، كي ينال رضا الله وتفريج كربته، فالأمر مرهون بعلاقة العبد مع ربه، وسعيه في نيل رضوان المولى تعالى، على نحو ما سنذكر في النقاط الآتية :

---

١٢٤) سورة البقرة، الآية (٢١٤).

١٢٥) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، د ت، ج٢، ص٣١٤، ٣١٥.

١٢٦) سورة يس، الآية (٦٧).

١) حسن التوكل والتقوى :

كما في قوله تعالى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ} [١٢٧] {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ }[١٢٨].

فتقوى الله مفتاح كل خير، ومن تسلّح بها مقدما، جعل الله له مخرجا في كل أزمة، وآتاه الرزق من غير ما يتوقع، ومعلوم أن الرزق لا ينحصر في المال فقط، فهو ما ينتفع به من المال أو الجاه أو السلطان أو الصحة أو الملبس أو المسكن أو الذرية أو العلم. ويشمل العطاء الدنيوي والأخروي. والأرزاق نوعان: أرزاق ظاهرة للأبدان مثل الأقوات، وأرزاق باطنة للقلوب والنفوس كالمعارف

والعلوم[١٢٩]، وبالتالي فإن مفهوم الرزق يتسع ليشمل أوجه النفع التي تعود على الفرد، ومنها أيضًا ما هو نفسي مثل السكينة والراحة والطمأنينة والأمان، ومنها ما هو مادي مثل الدار والمفروشات والدابة وتوافر سبل العيش الكريم خارج الدار وفرص العمل والتعليم... إلخ، ولو تأملنا في هذا المفهوم سنجد أنه مسبب الأزمات وأحد مظاهرها، فكم من الكوارث والحروب التي قامت بفعل منازعات الماء والثمار والحصول على الثروات الطبيعية، وما نتج عنها من مظالم ومفاسد وتهديد للأنفس وقتلها. أيضًا فإن النظر إلى أرزاق القلوب والعقول من معارف وعلوم هي من الرزق، فالعلم جالب للمال : اختراعات، وكتبا منشورة، وتعليما للطلاب، مثلما هو جالب للأفكار التي تساهم في خير البشرية وتقدمها وتيسير سبل العيش الكريم لها، مما ينقذها في نهاية الأمر من الأزمات والكوارث، فرب سدٍ يقام على نهر بفكرة وتخطيط وتنفيذ علمي مانع لآلاف الكوارث الناتجة عن فيضان النهر في مواسم أو شح مائه في مواسم أخرى.

ويتصل بمفهوم الرزق مفهوم التوكل، فالتوكل يجمع شيئين :أحدهما : الاعتماد على الله، والإيمان بأنه مسبب الأسباب، وأن قَدَره نافذ، وأنه قَدَّر الأمور وأحصاها وكتبها سبحانه وتعالى، والشيء الثاني : تعاطي الأسباب، فليس من التوكل تعطيل الأسباب، بل من التوكل الأخذ بالأسباب، والعمل بالأسباب، ومن عَطَّلها فقد خالف شرع الله وقَدَرَه، فالله أمر بالأسباب وحث عليها سبحانه وتعالى، وأمر رسوله ﷺ بذلك فلا يجوز للمؤمن أن يعطل الأسباب، بل لا يكون متوكلاً على الحقيقة إلا بتعاطي الأسباب[١٣٠].

وهذا أمر عقدي قلبي، ويتصل فكريًا أيضًا ببعض المفاهيم السائدة لدى عامة الناس، حين يتحوّل التوكل إلى تواكل، بالاكتفاء بالاستعانة بالله سبحانه وتعالى وطلب المساعدة والنجدة منه جل شأنه ، دون الأخذ بالأسباب من تخطيط وتنفيذ وحركة فاعلة، وهو أمر يضاف إلى الرؤية الإسلامية

---

١٢٧) سورة العنكبوت، الآية (٦٠).

١٢٨) سورة الطلاق، الآية (٢).

١٢٩) لسان العرب، ابن منظور، مادة " رزق "، ج ٣، ص ١٦٣٦

١٣٠) فتاوى نور على الدرب، سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، تحقيق : عبد الله بن محمد الطيار، محمد بن موسى بن عبد الله الموسى، نشر: مؤسسة الشيخ عبد العزيز بن باز للخير، ج١، ص٣٦٤.

لإدارة الأزمات، بالتسلح بالإيمان والتقوى، وحسن التوكل على الله، والأخذ بالأسباب، مما يتيح للمسلم أن يتعظ من الأزمة.

٢) التخطيط وحسن استغلال الوقت :

{قالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ* ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ}[١٣١]

ففي قصة يوسف عليه السلام الكثير من العِبر والدروس، وهي نموذج فاعل لإدارة أزمة القحط وشح الطعام التي فاجأت شعب مصر وامتدت إلى الشعوب الأخرى المجاورة، واستطاع يوسف عليه السلام القائم على خزائن الأرض أن يدير الأزمة بكفاءة عالية، ولعل أبرزها التخطيط الدقيق الذي وضعه يوسفعليه السلام، بإعداد المخازن وملئها بالغلات الوفيرة والخيرات الكثيرة، بطرق تخزين صحيحة، تحفظها فترات طويلة، حتى إذا أقبلت السبع الشداد، استقبلها القوم آمنين، فلم تغير لهم حالاً، ولم تنل منهم شيئًا[١٣٢]. فقد رأينا أُسس التخطيط الاقتصادي الإسلامي القائم على : منع الاحتكار، وحصر الموارد والنفقات العامة للدولة، وحسن توزيع الثروة، والتوازن بين الروحي والمادي[١٣٣].

ولاشك أن دراسة نهج النبي يوسف، سيمنحنا الكثير من الدروس والعبر في مجال التخطيط بمستوياته المختلفة، طويل ومتوسط وقصير الأجل، وأيضًا سبل مساعدة المجتمعات الأخرى، وحسن القيادة والسياسة، والأمانة في حفظ المال.

٣) التضافر والتعاون :

{ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا }[١٣٤]

وفي قصة ذي القرنين الذي ذهب إلى المغرب غازيا فاتحا، محاربا مجاهدا، غير عابئ بتضاريس البلدان والمفاوز، من مرتفعات أو منخفضات، غير مبال بحر أو قر، ولا سهل أو وعر، فقد مكن الله له في الأرض، ورزقه الطاعة والانقياد في جنده، وكان ملكًا عظيمًا، وإنما سُمِّي ذا القرنين ؛ لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس، قال: وقال بعض أهل الكتاب : لأنه ملك الروم وفارس. وقال بعضهم : كان في رأسه شبه القرنين. وقد سُئل علي رضي الله عنه عن ذي القرنين، فقال : كان عبدًا ناصح الله فناصحه، دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات، فأحياه الله، فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات، فسمي ذا القرنين ويقال : إنه إنما سمي ذا القرنين ؛ لأنه بلغ المشارق والمغارب، من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب، تعليم الألسنة، كان لا يغزو قوما إلا كلمهم بلسانهم[١٣٥]، فسلك طريقا فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها، وكان كلما مرَّ بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله عز وجل،

---

١٣١) سورة يوسف، الآيتان (٤٧، ٤٨)

١٣٢) قصص القرآن، ص٩٥.

١٣٣) التخطيط الإداري بين المفهوم الإسلامي والمفهوم الوضعي، ص٢٦٩.

١٣٤) سورة الكهف، الآية (٩٥).

١٣٥) تفسير ابن كثير، ج٥، ص١٨٩، ١٩٠.

فإن أطاعوه وإلا أذلهم وأرغم آنافهم، واستباح أموالهم وأمتعتهم، واستخدم من كل أمة ما يستعين به مع جيوشه على أهل الإقليم المتاخم لهم، ولما انتهى إلى مطلع الشمس وجد قوما ليس لهم بناء

يكنهم، ولا أشجار تظلهم وتسترهم من حر الشمس أنهم بأرض لا تنبت لهم شيئًا ، فهم إذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب، حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعايشهم[١٣٦]، فهاله كفرهم، وعظم عليه طغيانهم فاستخار الله في أمرهم فخيره الله بين سبيلين يختار، إما أن يمهلهم ويدعوهم أو يوقع بهم النكال، فاختار الأول... {قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا }[١٣٧]، وسار حتى وصل إلى بلاد استجاروا به من يأجوج ومأجوج وهم قوم ركب الشرّ نفوسهم، ولا يرتدعون، فطلب القوم من ذي القرنين أن يبني لهم سدا ليمنع عنهم يأجوج ومأجوج، فطلب منهم أن يعينوه قدر ما استطاعوا فجمعوا له الحديد والنحاس والخشب والفحم، فوضع بين الجبلين قطع الحديد بقوته العظيمة ثم أوقع عليها النار فذابت وأفرغ عليها ذائب النحاس، فاستوى كل هذا سدًا منيعًا، لا مجال ليأجوج ومأجوج لنقبه أو هدمه[١٣٨].

في هذه القصة نموذج آخر لإدارة الأزمة، فبالرغم من الملكات العظيمة التي تميز بها ذو القرنين، وكثرة أتباعه، وعظم جيوشه، وما وهبه الله من علم عظيم، إلا أنه كان حريصًا على استنهاض همم الناس، ودعوتهم إلى الخير والهدى، وعلّمهم كيف يتضافروا في سبيل تنفيذ ما يحلمون به بإقامة سد منيع، ضد هجمات يأجوج ومأجوج، فكان السد حلما جماعيا، استطاع ذو القرنين أن يقيمه، بتعاون القوم معه، وهكذا لا تنتظر الشعوب من يحل مشكلاتها، أو حسب مفهوم القائد الملهم، والبطل العظيم، الذي توافر في شخص ذي القرنين، ولكنه لم يغتر بقوته وملكاته، وإنما يضع الله نصب عينيه، ويستخيره في كل عمل، ويساعد الشعوب ويرشدهم، ويعلمهم أهمية الاعتماد على ذاتهم الجمعية لتحقيق ما يصبون إليه، وهو دور الزعيم القائد في الأمة، يجمعهم على مبدأ ومشروع وليس على شخصه الفاني، ينمي مهاراتهم ويدعوهم إلى الهداية، لا إلى تمجيده والرغبة في تخليده.

والخلاصة أن في كل شعب قادة وزعماء قادرون على قيادة الأمة فلابد أن يتقدموا، مستعينين بالله أولا، ثم بقدرات شعوبهم، واضعين حلا عمليا للتهديد الدائم لهم، ويكون هذا المشروع حلمًا جماعيًا، يرى كل فرد من الشعب أنه مساهم فيه.

ولنا نموذج آخر في قصة فرعون، وما حاق به، جزاء لما فعله مع موسى عليه السلام وبني إسرائيل...{ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ}[١٣٩] ثم تكون عاقبتهم : { فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ

---

١٣٦) تفسير ابن كثير، ج٥، ص١٩٤، ١٩٥.

١٣٧) سورة الكهف، الآيتان (٨٧، ٨٨).

١٣٨) قصص القرآن، ص٢٢٩، ٢٣٠.

١٣٩) سورة الأعراف، الآية (١٣٠).

الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ}[١٤٠]

فلقد كفر فرعون، واستخف قومه فأطاعوه، ولم يفلح إنذار موسى له أن يرتدع ويخشى الله تعالى، فجاء عقاب الله تعالى أليمًا شديدا... حيث يحمل النقص في الثمار على الجدب في بواديهم أو إصابة النقصان في مزارعهم أو على نحو ذلك وقد بدت آيات الله تعالى فيما أعطاه لموسى عليه السلام من معجزات عظيمة، رافقت موسى كما رأينا في يده عليه السلام ولسانه وعصاه والبحر والطوفان، وكما شاهدنا في المحنة التي أصابت القوم الكافرين بأن جاءهم الجراد والقمل والضفادع والدم [١٤١].

فالملاحظ أن العقوبات التي يرسلها الله تعالى تأتي بعد الإعلام بسبيل الهدى، عبر إرسال الرسل والأنبياء، وتكون دائمًا الأزمة متمثلة في المحنة التي تصيب المؤمنين الذين يتعرضون لتنكيل الكفار بهم، ومن ثم يكون التخطيط لمواجهة الأزمة وإنجاء المؤمنين، ويأتي عقاب الله للكافرين أليمًا ، ثم يتم احتواء الأزمة وخروج المؤمنين منها، فالله تعالى ينصر من آمن وذاد عن دينه [١٤٢].

وبالعودة إلى قصة فرعون وقومه نجد أن : "النص يصرح بالغرض من سياقة القصة في هذا الموضع... إنه النظر إلى عاقبة المفسدين وبعد ذلك الإجمال الموحي بالغاية، تعرض الحلقات التي تفي بهذه الغاية، وتصورها تفصيلاً . والقصة تقطّع إلى مشاهد حية، تموج بالحركة وبالحوار، وتزخر بالانفعالات والسمات ، وتتخللها التوجيهات إلى مواضع العبرة في السياق ، وتكشف عن طبيعة المعركة بين الدعوة إلى رب العالمين وبين الطواغيت المتسلطة على عباد الله، المدعية للربوبية من دون الله، كما تتجلى روعة العقيدة حين تستعلن، فلا تخشى سلطان الطواغيت، ولا تحفل التهديد والوعيد الشديد..." [١٤٣].

وفي سياق القصة المتقدم يركز على عاقبة الكافرين ، الذين كفروا برب العالمين وعبدوا الطاغوت فالأزمة هنا ذات بعدين، الأول يصيب المؤمنين المتأذّين من تعذيب الكفار لهم، والثاني : يصيب الكفار أنفسهم الذين عبدوا طاغوتا بشريا، واستلذوا بعبادته وطغيانه، غير عابئين بدعوة موسى عليه السلام وما فيها من خير وهدى. " لقد ظلموا بهذه الآيات -أي كفروا وجحدوا- والتعبير القرآني يكثر من ذكر كلمة الظلم وكلمة الفسق في موضع كلمة الكفر أو كلمة الشرك.وهذه من تلك المواضع التي يكثر ورودها في التعبير القرآني. ذلك أن الشرك أو الكفر هو أقبح الظلم، كما أنه كذلك

---

١٤٠) سورة الأعراف، الآيتان (١٣٦، ١٣٧).

١٤١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المؤلف : محمود الألوسي أبو الفضل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت، ج٥ص١٨٢

١٤٢) انظر تفصيلا : إدارة ومعالجة الأزمات في الإسلام، د. سوسن سالم الشيخ، دار النشر للجامعات، القاهرة، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م، ص٢٣، ٢٤.

١٤٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٨ م، تفسير الآية ١٣٠ وما قبلها..، ج٣، ص٢٦٥.

هو أشنع الفسق... والذين يكفرون أو يشركون يظلمون الحقيقة الكبرى - حقيقة الألوهية وحقيقة التوحيد - ويظلمون أنفسهم بإيرادها موارد الهلكة في الدنيا والآخرة.ويظلمون الناس بإخراجهم من العبودية لله الواحد إلى العبودية للطواغيت المتعددة والأرباب المتفرقة وليس بعد ذلك ظلم[١٤٤]. فقد جاءت العقوبة الربانية لقوم فرعون لأنهم كفروا، والكفر استتبع معه: الظلم والفسق، ذلك أن الظالم الذي لا يدعه دين ولا خلق، ويجد من أتباعه وقومه من ينافقه ويزين له عمله ؛ يكثر من

الفسق، وينشره في قومه، وبعبارة أخرى : يكون الفسق لازما للظلم، والظلم شامل لظلم الإنسان نفسه بالكفر والمعاصي وظلم الآخرين بالاعتداء على حقوقهم واستعبادهم، أما الفسق فيشمل مختلف صور العصيان والإفساد الخلقي في المجتمع، فإذا تحكم هذان الأمران في مجتمع، فإن عقوبة الله محيطة بهم، بعدما تكررت إشارات إنذارهم مرات، دون أن يرتدعوا أو يتوقفوا عن غيّهم.

وفي الفصل التالي سنتناول جانبًا من الإرشاد القرآني ﷺ.

---

١٤٤) السابق، ج٣، ص٢٦٥.

الفصل الثاني

التوجيه القرآني لأزمات المجتمع المسلم في عهد الرسول ﷺ

الغاية في هذا الفصل: دراسة التوجيه القرآني إلى الرسول ﷺ خلال مسيرة الدعوة النبوية، فكم من الأزمات التي عصفت بالمجتمع المسلم في بداية تكوينه ولم يكن لدى الرسول ﷺ حل لها، وكم من الأسئلة التي وُجِّهت إلى ﷺ ولم تتوافر الإجابة الفورية عنها.

فمن خصائص النبي ﷺ نزول الوحيّ عليه، قال تعالى : { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ } [١٤٥]، كما نال الرسول ﷺ الكثير من الرحمات والخصائص دون عامة المكلفين من الناس، منها نزول القرآن على وفق مراده ورغبته كما في قوله تعالى { قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } [١٤٦]، فقد كان الرسول ﷺ يحب أن يردّ إلى الكعبة، وقال تعالى : {تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ}[١٤٧] لأنه حُبِّب إليه النساء، فلم يوقف فيهن على عدد، وكان ذلك خصيصة له، كما نزل القرآن وفق مراد صحابته الكرام، مثل موافقة القرآن لمطلب عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال للرسول ﷺ: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ؟ فنزلت الآية كريمة { وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى } [١٤٨] وفي نزول آية الحجاب، حين قال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله يدخل عليك البرّ والفاجر، فلو أمرتَ أمهات المؤمنين بالحجاب ؟ فأنزل الله آية الحجاب [١٤٩].

لقد كان القرآن الكريم مواكبًا لأسئلة الرسول ﷺ ، والمواقف التي تُعرض له ولا يجد ردًا عليها، وأيضًا لرغباته، وهذا دليل على اختصاص الرسول ﷺ بالمحبة من قبل الله جل وعلا، وفي الحديث الشريف : "... ألا وأنا حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع وأنا أول مشفِّع ولا فخر " وأنه – جلَّ شأنه - جعله شاهدًا على أمته واختصه بذلك دون

١٤٥) سورة النساء، الآية (١٦٣).

١٤٦) سورة البقرة، الآية (١٤٤).

١٤٧) سورة الأحزاب، الآية (٥١).

١٤٨) سورة البقرة، الآية (١٢٥).

١٤٩) الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي، ج٢، ص٢١٣، ٢١٤.

الأنبياء عليهم[150] مصداقًا لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}[151].

يجدر بالذكر أن للرسول ﷺ يجوز له الاجتهاد عقلاً وهو رأي جمهور الأصوليين [152]، ورأى السرخسي أن الرسول ﷺ كان يقوم بما يشبه الوحي عبر استنباط الأحكام من النصوص بالرأي والاجتهاد، فهذا بمنزلة الثابت بالوحي لقيام الدليل على أنه يكون ثوابا لا محالة، فإنه كان لا يُقَرُّ على الخطأ، فكان ذلك منه حجة قاطعة، ومثل هذا من الأمة لا يجعل بمنزلة الوحي، لأن المجتهد يخطئ ويصيب، فقد علم أن للرسول ﷺ صفة الكمال، ما لا يحيط به إلا الله، فلا شك أن غيره لا يساويه في إعمال الرأي والاجتهاد في الحكم. ورأى بعض العلماء أن الاجتهاد في الأحكام إنما هو حظ الأمة، فأما حظ رسول الله ﷺ، فهو العمل بالوحي، وأصح الأقاويل – في نظر السرخسي- أن الرسول كان يعمل فيما يبتلي من الحوادث التي ليس فيها وحي منزّل، وأنه كان ينتظر الوحي في الحادثة التي تعرض له، فإن لم يأت كان يعمل رأيه فإذا أُقرّ عليه من قبل المولى جلّ وعلا بات حجة قاطعة للحكم، وهناك الكثير من الشواهد والحوادث التي تؤيد ذلك، منها أنه ﷺ أراد النزول يوم بدر دون البئر، فقال له الحباب بن المنذر رضي الله عنه : إن كان عن وحي فسمعا وطاعة، وإن كان رأي فإني أرى الصواب أن ننزل على الماء ونتخذ الحياض فأخذ ﷺ برأيه ونزل على الماء [153]، كما ورد في قوله تعالى : { وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ }[154] وقد دخل في جملة المستنبطين الرسول ﷺ الذين أخبر الله أنهم يعلمون بالاستنباط [155]. لذا، فقد كان اجتهاد الرسول ﷺ تعبّدًا لله تعالى، وأملاً في المثوبة، وقد جاءت في مجالات أربعة : في الأمور الدنيوية

١٥٠) السابق، ج٢، ص٢١٦، والحديث المذكور رواه الترمذي، وقال حديث غريب.

١٥١) سورة البقرة، الآية (١٤٣).

١٥٢) اجتهاد الرسول (صلى الله عليه وسلم)، د. نادية شريف العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، ص٤٠، ٤١، حيث أشار كثير من الأصوليين إلى جواز اجتهاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) عقلا، فيما لا يوحى إليه فيه، وعارض ذلك الإمام ابن حزم الظاهري ورأى المنع مطلقا، معللا بأن الأنبياء يوحى إليهم، بدليل قوله تعالى : { إن أتبع إلا ما يوحى إليّ } (الأحقاف، الآية ٩).

١٥٣) أصول السرخسي، للإمام الفقيه أبي بكر محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي (ت ٤٩٠هـ)، تحقيق : أبو الوفا الأفغاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ، ١٩٩٩م، ج٢، ص٩١.

١٥٤) سورة آل عمران، الآية (٨٣).

١٥٥) أصول السرخسي، ج٢، ص٩٣، وذكر أن المراد بقوله تعالى " ففهمناها سليمان " أنه وقف بالحكم بطريق الرأي لا بطريق الوحي، لأن ما كان بطريق الوحي (لدى الأنبياء) فداوود وسليمان عليهما السلام فيه سواء، في حين خص سليمان عليه السلام بالفهم لنعرف أن المراد به هو طريق الرأي.

الصرفة، في أمور الحرب، في أقضيته، في أبواب العبادات المعروفة في السنة المطهرة [١٥٦].

فاستعمال الرأي من قبل الرسول ﷺ جائز فيما يتعلق بحقوق العباد في أمور الدنيا والحرب والشورى في المعاملات، فالمطلوب به الدفع عنهم أو الجر إليهم فيما تقوم به مصالحهم، واستعمال الرأي جائز مثله لحاجة العباد إلى ذلك، فإنه ليس في وسعهم أكثر من ذلك [١٥٧]. وقد اختلف المجوّزون فيما بينهم في مقامين: في محل اجتهاده وفي وقوع الاجتهاد، فأما المقام الأول وهو محل الاجتهاد، فقد رأى الأصوليون بجواز وقوع الاجتهاد منه ﷺ، في الأقضية وفصل الخصومات، وكذلك في أمور الحروب والدنيا، أما المقام الثاني المتعلق بوقوع الاجتهاد، فمنهم من رأى أن الاجتهاد من قبل الرسول ﷺ واقع بشكل مطلق، وبمجرد وقوع الحادثة، وآخر رأى أنه وقع منه بعد انتظاره الوحي، والثالث الوقف دون القطع بشيء في هذا الأمر [١٥٨].

تثار هذه القضية، لأننا بصدد تناول الوحي القرآني في عدد من الحوادث والأسئلة التي عرضت للرسول ﷺ، ولم يجتهد فيها الرسول ﷺ برأي، وإنما انتظر حتى تنزّل عليه الوحي بالجواب، وكثير من هذه المواقف كانت أسئلة، أو حوادث عارضة، أو مستجدات في الحياة، أو أزمات تضرب فردًا أو أفرادًا أو الجماعة المؤمنة كلها.

ولأن إدارة الأزمات محور دراستنا، فإننا سنقوم بعرض أبرز الأزمات التي صادفت الرسول ﷺ والمجتمع المسلم في عهده، والتوجيهات الربانية القرآنية في ذلك ؛ من أجل تحقيق أهداف عديدة يمكن إجمالها فيما يأتي:

- إعادة قراءة الأزمات المذكورة لاستنباط الدروس المستفادة منها، والتي يمكن أن تزيد الجهود العلمية في علم إدارة الأزمات من المنظور الإسلامي.

- الوقوف على الهدي الرباني في إرشاد النبي ﷺ وصحابته عليهم الرضوان، وهو إرشاد إلهي في مشاكلهم الدنيوية.

- المقارنة بين منهج الرسول ﷺ والصحابة في معالجة الأزمات المذكورة وبين الإرشاد الرباني في معالجتها، وهي مقارنة توضح الجهد البشري المبذول من قبل الرسول ﷺ وصحابته الكرام، والإرشاد الإلهي في حل الأزمة.

- تبيان آثار الحل البشري وتبعاته، والحكم والدروس المستفادة من الحل الإلهي.

- إنصاف الجهد البشري من قبل الرسول أو صحابته وتسديد خطاهم في اجتهاداتهم.

في ضوء هذه الأهداف، سنقوم بعرض أبرز الأزمات المذكورة في القرآن الكريم وواجهت الرسول ﷺ ، وسيكون منهجنا فيها قائمًا على عرض تفاصيل الواقعة / الأزمة، وأبعادها الفردية والمجتمعية

---

١٥٦) اجتهاد الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ص ٨٣.

١٥٧) أصول السرخسي، ج٢، ص٩٢.

١٥٨) اجتهاد الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ص٤٣-٤٥.

والنفسية، كيف جاء التوجيه القرآني للحل، وآثار الحل ونتائجه الطيبة، وهو ما يمكن تناوله في المحاور الآتية :

١) الشائعة سببًا للأزمة (حادثة الإفك) :

لعل هذه الحادثة من أبرز الأزمات التي واجهت النبي ﷺ، نظرًا لأنها تمس جانبا شخصيا منه يتصل بإحدى زوجاته، وهي من ؟ إنها أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها وأرضاها، وأقرب زوجاته إلى قلبه، وابنة أبي بكر الصديق – صديقه الصدوق وأول من أسلم من الرجال -، وبالنظر إلى دقة المصطلح القرآني "الإفك" وكيف أن دلالاته اللغوية تنصرف إلى ثلاثة معان: الكذب، الصرف، التقليب[١٥٩]، وتكاد المعاني الثلاثة تتواجد في الحادثة المذكورة، فقد كان الأمر في جملته كذبا وبهتانا على السيدة عائشة، وقلب الأمر على وجهه الصحيح دون تحرّي الحقيقة من قبل المرجفين والمنافقين، وصرف للجهد الفكري والنفسي للمجتمع المسلم إلى أمر مستهجن.

ولكن في نهاية الأمر ولحكمة إلهية عظيمة، كانت للحادثة فوائد جمة، على نحو ما سنعرضه...

قال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ }[١٦٠].

فهؤلاء المفترون على عِرض السيدة عائشة رضي الله عنها وأرضاها كانوا من نفس فئة الجماعة المؤمنة، من نفس صفهم، {عُصْبَةٌ مِنْكُمْ }، وإن ظن البعض أن هذه الأزمة كانت شرا أصابت المجتمع المسلم، إلا أن الله – جل وعلا – يقرر أنها خير لهم، فكل إنسان يتحمل ما اقترف من الإثم، وعلى رأس هؤلاء زعيم المنافقين

لقد كان ذلك في غزوة المريسيع؛ لأن الماء الذي نزل عليه هذا الحي يسمى بماء المريسيع، وسميت بغزوة بني المصطلق باعتبار من غزاهم، وكانت سنة (٦) هجرية [١٦١].

وكما جاءت في رواية أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين أزواجه، وأيهن خرج سهمها خرج بها النبي ﷺ. قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ، بعدما أُنزل الحجاب فكنت أحمل في هودج، وأنزل فيه. فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل، ودنونا من المدينة قافلين، آذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري فإذا عقد لي من جزع ظفار (خرز معروف في سوادِه بياضٌ كالعروق) قد انقطع فرجعتُ فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه. قالت : وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي، فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه، وهم يحسبون أني فيه و، كان النساء إذ ذاك

---

١٥٩) لسان العرب، ابن منظور، م س، ج١، ص١٦٦.

١٦٠) سورة النور، الآية(١١).

١٦١) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، الناشر : مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الخامسة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، *ج٣، ص٥٥٣.*

خِفافًا لم يهبلن ولم يغشهن اللحم إنما يأكل العلقة (ما يتبلغ به من العيش) من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت به وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إلي، فبينما أنا جالسة في منزلي، غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم فعرفني حين رآني وكان رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني[١٦٢].

وأكملت السيدة عائشة رضي الله عنها:

"فأخذت الخمار فغطيت به وجهي وأعرض عني رضي الله عنه، ووالله ما كلمني بكلمة، وأناخ لها البعير رضي الله عنه وأرضاه، وصفوان بن المعطل صحابي جليل له فضله، فإنه لما اتُّهم بأم المؤمنين رضي الله عنه وعنها وأرضاهما، قال: (والله! ما كشفتُ كنف أنثى)، أي: ما زنيت بامرأة قط، وهذا من عفته رضي الله عنه وأرضاه، وقد كان من ساقة الجيش، والساقة يتفقدون مَن وراء الجيش، لكي يعينوه إذا أصابه العجز عن المسير، أو حصل به ضرر -لا سمح الله-.

قالت: فاحتملني فما كلمني بكلمة حتى دخل بها المدينة، فرآهما عدو الله عليه مِن الله اللعنة عبد الله بن أبي بن سلول فقال مقالته الخبيثة، قال: والله! ما نجا منها ولا نجت منه، وروج للفتنة فاستجاب له ثلاثة أنفار فرددوا ما قال وهم حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش ، وفي قوله تعالى{والذي تولى كبره} هو ابن أُبيّ المنافق وتورط آخرون ولكن هؤلاء الأربعة هم الذين أشاعوا وروّجوا الفتنة في المدينة واضطربت لها نفس رسول الله ﷺ ونفوس أصحابه وآل بيته، فصار الناس مختلفين : منهم من حمل الحديث ونقله دون أن يصدقه ولكن كان يشهِّر به في المجالس، ومنهم من سمعه وصدقه. فأصبح الناس ما بين مصدِّق ومكذِّب، وناقل للحديث.

وكان قد مضى على الحادثة شهر، دون علم السيدة عائشة، فقد كانت مريضة في بيت أهلها، فعلمت من أم مسطح بن أثاثة بالخبر، وأن الناس جميعًا يلوكون في عرضها، حتى فوجئت بزيارة الرسول ﷺ وقال: يا عائشة ! إن كنت أذنبت ذنبًا فاستغفري الله وتوبي إليه، فطلبت من أبيها الرد فلم يستطع، وكذلك أمه فقالت: والله! لئن قلتُ لكم: إني لم أفعل لم تصدقوني، ولو قلت لكم: إني فعلتُ صدقتموني، فوالله! ما فعلت؛ ولكن الله سيبرئني، ثم قالت: ولكن أقول كما قال أبو يوسف -عجز عنها اسم يعقوب عليه السلام من شدة ما وجدت رضي الله عنها من الهم والحزن-: { فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ } [١٦٣] فاستعانت بالله عز وجل، فما قضت حديثها حتى نزل الوحي على رسول ﷺ وبرَّأها الله عز وجل من فوق سبع سماوات رضي الله عنها وأرضاها، فكانت هذه الحادثة من أشد الحوادث المدنية على رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآيات التي صبَّرها الله عز وجل بها[١٦٤]

١٦٢) تفسير البغوي، ج٦، ص١٨

١٦٣) سورة يوسف، الآية ١٨.

١٦٤) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، م س، ج٣ص٥٥٤

أبعاد الأزمة والمستفاد منها :

بالنظر إلى أحداث الغزوة، نكتشف أمورًا عديدة، لو تناولناها بحكم كونها أزمة، فقد كان الأمر مزلزلا للجميع، للرسول ﷺ وصحابته ولزوجته السيدة عائشة ووالديها، وتأثر بها الرسول ﷺ نفسيًا، فجوانب الأزمة واضحة، وقد بنيت وتطورت وتعقدت بعد مقولة البهتان التي أطلقها رأس الفتنة ابن سلول، ولاكتها ألسن الناس خاصة ثلاثة منهم، مرَّ ذكرهم. وهذا يعني أن الشائعة التي أطلقت من نفس مريضة، لقد استهدفت الحادثة – من قبل المنافقين – أمورا عديدة أهمها:

أ. الطعن في عرض رسول الله ﷺ وصاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ تشويهًا للدعوة وأصحابها وتنفيراً منها، ويؤيد هذا قول ابن أُبَيّ حين رأى صفوان بن المعطل آخذا بزمام ناقة عائشة : امرأة نبيكم باتت مع رجل على نحو ما ذكر القرطبي في تفسيره.

ب. القدح في المكانة الخلقية للدعوة الإسلامية.

جـ. إشعال نار الفتنة داخل المجتمع الإسلامي، وذلك ببعث حمية الجاهلية وإثارة المشاعر العدائية بين الأوس والخزرج، وهو الأمر الذي كاد أن يتحقق لولا تدخل رسول الله ﷺ في المنازعة التي كانت بين السعدين وتهدئته للفريقين.

د. حديث الإفك لم يكن مقصورًا على عائشة رضي الله عنها ولا خاصًا بها، وإنما كان موجها في المقام الأول إلى شخص رسول الله ﷺ وإلى الدعوة التي جاء بها. ولا يزال هذا المنهج العدائي للمنافقين ومن وراءهم من أعداء الإسلام هو السائد مع اختلاف الأزمنة والأمكنة ؛ إذ يحرصون على النيل من أعراض الدعاة والمصلحين ورميهم بالزور والإفك والبهتان وتلفيق التهم لهم، وإشاعة الدعايات المغرضة ضدهم[١٦٥]

وكانت أجواء الأزمة مشتعلة طيلة شهر كامل، والسيدة عائشة في بيت والديها مريضة غير عالمة بمن يخوضون في عرضها، حتى أن رسول الله ﷺ جاءها يطلب منها التوبة والاستغفار، ظانًا منه أنها عالمة، ولكنها تتمسك ببراءتها، موقنة أن الأمر بيد الله سبحانه، بعدما دبّ الشك في قلوب الناس، وباتت الشائعة أقرب إلى الحقيقة، وخاض فيها من لا يتوقع خوضهم. وإزاء هذه الأجواء المسمومة، يتنزل الوحي الإلهي مطهرا السيدة عائشة، كاشفًا رؤوس النفاق، مظهر حقيقتهم. قال المولى جل وعلا:

{ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ* لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ * وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }[١٦٦]

---

١٦٥) وقفات مع آيات الإفك، د.عبد العزيز بن عبد الله الخضيري، بحث منشور في مجلة البحوث الإسلامية، الصادرة عن الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، الرياض، ربيع الأول إلى جمادى ١٤٣٠هـ، رقم الجزء : ٨٧، ص ٣٠٥

١٦٦) سورة النور، الآيات (١٢-١٥).

يأتي الخطاب الرباني ناصحًا المؤمنين، مؤكدًا لهم ألا يتركوا آذانهم ونفوسهم عرضة لكل شائعة دون تثبت ودليل، فعليهم أن يقرروا أن هذا : كذب وإفك وبهتان. والحكم الشرعي المستقر، أنه لا بد من البينة وهي أربعة شهداء، ولا يكفي شاهدان في هذه الحالة وإنما الذي يحتاج إلى أربعة هو الزنا [١٦٧]، وهو ما أبانته الآيات الكريمة { لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ } ذلك لأن الأعراض حرمات الله في الأرض، لا سبيل إلى إباحتها بأي حال، سواء عرض الرجل أو عرض غيره، لذا أبيح فقهيا دفاع الرجل عن عرضه مباشرة ولو مات في سبيل ذلك عُدّ من الشهداء، ونفس الأمر مع المرأة إذا تعرضت إلى اعتداء أو تحريض على الزنا، فلها أن تدافع نفسها ولو قتلت مغتصبها[١٦٨].

لقد كانت هذه الحادثة نذيرًا شديدًا لما ما قد يترتب عليها من آثار، لأنها تتصل بأمر عظيم يمس كلا من : عرض المرأة والرجل في آن (الزوج والزوجة)، وما قد يؤدي إلى تفرقة أو قتل وتشويه للسمعة، وكذلك : الطعن في الأنساب، لذا أوجب الشارع الحكيم أن يكون هناك أربعة شهداء، فإن لم يكن فعلى الألسنة أن تلوذ بالصمت لأنه ليس بالأمر اليسير :{وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ}، لذا كانت هذه الحادثة والتبرئة الإلهية المنزّلة حاملة دروسًا عديدة للمجتمع المسلم، الذي يمكن أن يصاب بفتنة عظيمة، لو أعمل الناس ألسنتهم بمثل هذا الشيء.

ثم ينتقل المولى جل وعلا منبهًا على قضايا مهمة بقوله سبحانه :

{إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ * وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }[١٦٩].

هنا دروس عديدة بعد انقضاء الأزمة، أولها : أن المتحدثين المروجين للفاحشة في المجتمع لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة، لأنهم يلوكون بألسنتهم أعراض الناس دون تثبت أو دليل، فالقضية انتقلت هنا من أمر خاص بحادثة الإفك إلى أمر عام يخص الجماعة المسلمة، ألا وهو حب شيوع الفاحشة، ومن أحبها فهو من الفسقة الفاسدين بالنظر إلى دلالة الفعل " يحبون "، وقد جاء في التفسير : جعل الوعيد على المحبة لشيوع الفاحشة في المؤمنين تنبيها على أن محبة ذلك تستحق العقوبة ؛ لأن محبة ذلك دالة على خبث النية نحو المؤمنين، ومن شأن تلك الطوية أن لا يلبث

---

١٦٧) الفقهُ الإسلاميُّ وأدلَّتُهُ، الشَّامل للأدلّة الشَّرعيَّة والآراء المذهبيَّة وأهمّ النَّظريَّات الفقهيَّة وتحقيق الأحاديث النَّبويَّة وتخريجها، د. وَهْبَة الزُّحَيْلِيّ، دار الفكر، دمشق، سوريَّة، الطَّبعة الرَّابعة المنقَّحة المعدَّلة، ج٦، ص٦٠٦.

١٦٨) المرجع السابق، ج٦، ص٦٥٦، و "من قتل دون أهله فهو شهيد» ولما ذكره الإمام أحمد من حديث الزهري بسنده عن عبيد بن عمير: «أن رجلاً أضاف ناساً من هذيل، فأراد امرأة على نفسها، فرمته بحجر فقتلته، فقال عمر: والله لا يودى أبدًا »، ولأنه إذا جاز الدفاع عن المال الذي يجوز بذله وإباحته، فدفاع المرأة أو الرجل عن أنفسهم، وصيانتهم عن الفاحشة التي لاتباح بحال: أولى.

١٦٩) سورة النور ، الآيات (١٩ – ٢١).

صاحبها إلا يسيرا حتى يصدر عنه ما هو محبب له أو يسر بصدور ذلك من غيره، فالمحبة هنا كناية عن التهيؤ لإبراز ما يحب وقوعه، ومعنى {أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ } أن يشيع خبرها؛ لأن الشيوع من صفات الأخبار (١٧٠).

والدرس الثاني : تحذير المولى تعالى من اتباع خطوات الشيطان، الذي يبدأ بالتحدث العام بالفاحشة، ومن ثم يصبح الأمر مباحا بل مستلذا أحيانا، وهذا يؤدي إلى تحريض النفوس على الفاحشة، فالخطوة الشيطانية تبدأ بكلام عن الفاحشة، تحبه الآذان، ومن ثم ترغب في الفعلة، وهذا دافع للزنا والاغتصاب وما شابه.

يمكن القول، إن حادثة الإفك فيها من الدروس والعبر الكثير، ولكنها من منظور علم إدارة الأزمة تتناول بعدا مهمًا يتصل بدور الشائعة في إحداث الفتنة وكيف أن الكذب يتحول من كثرة ترديده إلى ما يشبه الصدق، في ضوء غياب الشهود، وفي ضوء تورط الناس - وإن علت منزلتهم - في الحديث دون تبين للحادثة، وهو ما قد يؤدي إلى اقتتال وشكوك وفتنة عظيمة، بدايتها تعليق آثم.

٢) أزمة الموروث الجاهلي (المرأة المجادلة) :

حين بزغ نور الإسلام كدين جديد، فإنه حرّم الكثير من العادات المتوارثة من المجتمع، ومنها عادة الظهار ؛ بأن يقول الرجل لزوجته إذا أراد أن يمتنع عن الاستمتاع بها : أنتِ عليّ كظهر أمي. فتحرم زوجته عليه. ويمكن أن يكون الظهار مؤقتًا ، كأن يقول الرجل لزوجته: " أنت علي كظهر أمي يومًا أو شهرًا أو سنة " ينتهي بانتهاء الوقت بدون كفارة عند الجمهور؛ لأن الظهار كاليمين له مؤقت بزمن، وينتهي بانتهاء أجله، بعكس الطلاق الذي لا يحله شيء فلا يتوقت. وقال المالكية: يبطل التأقيت ويتأبد الظهار، ولا ينحل إلا بالكفارة، قياسًا على الطلاق، وإذا كان تحريم الطلاق لا يحتمل التأقيت، فكذا تحريم الظهار مثله. وإن كان الظهار مؤبدًا أو مطلقًا ، فينتهي حكم الظهار أو يبطل بالاتفاق بموت أحد الزوجين، لزوال محل حكم الظهار، ولا يتصور بقاء الشيء في غير محله (١٧١)، يصح الظهار بغير هذا اللفظ ؛ إذا وضع مكان الجملة، جملةً أخرى يعبّر عنها كالرأس والوجه والرقبة والفرج، أو مكان الظهر عضوًا آخر يحرم النظر إليه من الأم كالبطن والفخذ. ومكان الأمّ ذات رحم محرم منه من نسب أو رضاع أو صهر أو جماع، بمثل أن نقول : أنت علي كظهر أختي من الرضاع أو عمتي من النسب أو امرأة ابني أو أبي أو أمّ امرأتي أو بنتها، فهو مظاهر(١٧٢)، إذن، فالظهار مشكلة كبرى، تواجه الزوجات في حياتهن الزوجية، وتسبب تفكك الأسرة وضياع الأطفال. وفي الحادثة التي شكّلت الأزمة، نجد هذا الموروث الجاهلي يطلّ بقوة، ولم يكن وقتئذٍ تشريع يحل هذه المشكلة على نحو ما سنعرض.

١٧٠) تفسير التحرير والتنوير، م س، ج١٩، ص١٨٤، تفسير الآية (١٩).

١٧١) الفِقْهُ الإسلاميُّ وأدلَّتُهُ الشَّامل للأدلّة الشَّرعيَّة والآراء المذهبيَّة، م س،د. وَهْبَة الزُّحَيْلِيّ، ج٩، ص٥٨٥

١٧٢) تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق : عبد الرزاق المهدي، ج٧، ص٩

قال المولى تعالى : { قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ }.

وأحداث الأزمة : كما ترويها السيدة عائشة رضي الله عنها، تقول : تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي إلى رسول الله ﷺ من زوجها أوس بن الصامت وتقول : يا رسول الله، أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني (أي قال لها : أنت عليّ كظهر أمي)، اللهم إني أشكو إليك [١٧٣] ، فقال رسول الله ﷺ: حُرّمتِ عليه، فقالت : أشكو إلى الله فاقتي. ثم أعادت قولها: يا رسول الله طالت صحبتي ونفضت له بطني، فقال رسول الله ﷺ: حرمتِ عليه. فجعل إذا قال لها : حرمت عليه هتفت وقالت: أشكو إلى الله فاقتي. قال : فنزل الوحي، وقد قامت عائشة تغسل شق رأسه، فأومأت إليها (عائشة) أن اسكتي. قالت : وكان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي أخذه مثل السبات، فلما قضي الوحي قال: ادعي زوجك، فتلا عليه رسول الله ﷺ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما... (إلى قوله: والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا - أي يرجع فيه - فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا، أتستطيع رقبة ؟ قال : لا قال : فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين قال: يا رسول الله، إني إذا لم آكل في اليوم ثلاث مرات خشيت أن يعشو بصري. فتلا قوله تعالى: فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا، قال : أتستطيع أن تطعم ستين مسكينا ؟ قال : لا يا رسول الله إلا أن تعينني، فأعانه رسول الله ﷺ فأطعم[١٧٤].

وهكذا تم حل الأزمة من فوق سبع سماوات، واستجاب الله تعالى لشكوى المرأة، وهذا ما استفتحت به آيات السورة {وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ }، فلم يجد الرسول ﷺ حُكمًا فقهيًا، والقضية جديدة، والأزمة واردة في المجتمع المسلم الجديد، نظرا لقرب عهده بالجاهلية، وكثير من التقاليد لا تزال راسخة في النفوس، والأحكام الشرعية تتوالى يوما بعد يوم في المستجدات المختلفة. لقد نزل الحكم الإلهي واضحًا : { إِنْ أمهاتهم إلاَّ اللائي وَلَدْنَهُمْ } فالأمهات على الحقيقة إنما هنّ الوالدات وغيرهنّ ملحقات بهنّ لدخولهنّ في حكمهنّ، فالمرضعات أمّهات؛ لأنهنّ لما أرضعن دخلن بالرضاع في حكم الأمهات، وكذلك أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين؛ لأن الله حرّم نكاحهن على الأمة فدخلن بذلك في حكم الأمهات. وأما الزوجات فأبعد شيء من الأمومة لأنهنّ لسن بأمّهات على الحقيقة. ولا بداخلات في حكم الأمهات، فكان قول المظاهر: منكرًا من القول تنكره الحقيقة وتنكره الأحكام الشرعية وزورًا وكذبًا باطلاً منحرفًا عن الحق [١٧٥].

١٧٣) تفسير ابن كثير، ج٨، ص٣٤.

١٧٤) تفسير الطبري، ج٢٣، ص٢٢٠، ٢٢١.

١٧٥) تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، م س، ج٧، ص٩.

وهنا تتقرر الحقيقة التي لا لبس فيها، شتان ما بين الأم الحقيقية التي وضعت الابن، والزوجة عندما يظاهرها زوجها، فلا التقاء بينهما إلا عبر هذه العادة المتوارثة، فالإسلام يعيد العلاقات إلى حقيقتها، مثلما فعل في قضية التبني، فتم تحريم التبني بالمفهوم الجاهلي، فلا يحمل الابن المتبنى اسم من تبناه، وإنما يحمل اسم أبيه الأصلي، ونفس الأمر في قضية الظهار، لا تصبح الزوجة مثل الأم.

أما عن الحكم في علاج هذا الظهار، فهو تأديب وتهذيب للنفوس حتى يحفظ الرجال ألسنتهم، ويحترموا زوجاتهم، فيجب الاتعاظ بهذا الحكم حماية للأسرة، وخوفا من عقاب الله عليه [١٧٦].

ولو قمنا بقراءة قضية الظهار في ضوء فقه إدارة الأزمة، لوجدنا أمورا عديدة:
فالأزمة في بدايتها خاصة باثنين : خولة بنت ثعلبة، وزوجها أوس بن الصامت، وتتمثل في كلمته التي ألقاها في لحظة غضب بأن زوجته صارت كظهر أمه، وهذا يعني الفراق بين الزوجين.

وقد أدركت السيدة خولة عظم المصيبة، فلديها أطفال صغار، لو ضمتهم إليها جاعوا فلا نفقة عندها، ولو ضمهم زوجها إليه ضاعوا فلن يحسن تربيتهم، وهكذا اشتدت الأزمة، لتكشف عن مشكلة اجتماعية موروثة عن الجاهلية.

من حيث زمن الأزمة كان قصيرا، ينحصر في شكوى خولة إلى الرسول ثم إلى الله تعالى، ومن ثم نزول آيات الظهار، ولكنها ذات امتداد زمني سابق، يعود لسنوات طويلة في الجاهلية، وزمن مستقبل يتصل بحكم فقهي للظهار، يوازي أحكام الطلاق.

وأصدر الرسول ﷺ حكمه سريعًا، بأنها حُرّمت على زوجها، فلما تنزّل الوحي بالآيات البينات، أسرع بتغيير حكمه باستدعاء الزوج، كي يتم التنفيذ.

أمر آخر، فإن الله خص رسوله وصحابته الكرام بموافقة التنزيل لمرادهم، ومنها استجابة الله تعالى لشكوى السيدة خولة [١٧٧]، وكان في تعامله مع المرأة وزوجها نموذجا للخصيصة الربانية التي حظي بها من المولى جلا وعلا، وتجلت في تسميته بجملة من أسماء الله مثل : الرؤوف، الرحيم، الخبير، الحكيم [١٧٨].

وقد رأينا في حوار المجادلة وفي طريقة معالجة الأزمة السلوك الراقي المعبر عن ما اختصه به الله سبحانه.

وكان الرسول ﷺ رحيمًا بالرجل، لكبر سنه وفقره وضعف صحته، فساعده في الكفارة، وهذا يعلمنا دور القائد والداعية في حل المشكلات والأزمات، فلم يكتف ﷺ بتبيان الحكم الشرعي وكفاراته، وإنما كان قريبًا من طرفي الأزمة : خولة وأوس، وساعدهما في عودة الحياة الزوجية بينهما.

إن المستفاد من هذه الأزمة دروس عظيمة :

أولها : إن القائد / الداعية / المسؤول بينه وبين الناس اتصال دائم ومصارحة، وقد يعترضون

---

١٧٦) تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، م س، ج٧، ص٩

١٧٧) الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي، ج٢، ص٢١٥.

١٧٨) السابق، ج٢، ص٢١٩.

على فتواه وآرائه، ويتوجهون بالشكوى إلى الله سبحانه.

ثانيها : إن الأزمة وإن صغرت واقتصرت على أسرة محدودة ، إلا أنها ذات آثار اجتماعية وإنسانية ودينية عظيمة، لذا أنزل المولى سبحانه من فوق سبع سماوات الحكم الشرعي فيها، من أجل تخليص الناس من بعض موروثات الجاهلية ، وتضع حكما شرعيا وكفارته لأنها لابد حادثة إن عاجلا أو آجلا.

ثالثها : إن الرحمة عنوان أساس في موقف الرسول ، ومعها قدرته على حل المشكلة تماما ، ومعرفته الجيدة بالمجتمع من حوله.

رابعها : قد يرى البعض أنها ليست أزمة، وإنما قضية فقهية، ولكن المتأمل فيها يجد أن الآثار المترتبة على استمرارها، وعدم حسمها سريعًا ، ستكون مضاعَفة وخطيرة، لأنها تؤثر على حياة زوجية استمرت سنوات، وأطفال يحتاجون إلى رعاية، وهذه الأزمة لو ترُكِتْ وتكررت فإنها بلا شك ستحدث أزمات متتالية في المجتمع.

خامسها : مساعدة الرسول ﷺ لأوس في الكفارة، يعلمنا أن دور الداعية والقائد والمسؤول ألا يكتفي بطرح الحل نظريا أو فقهيا، وإنما يستمر في التطبيق العملي، فربما يكون الحل المقترح عظيما، ولكن يفشل التطبيق، لعدم الاستطاعة أو عدم الفهم، أو عدم القدرة الجسدية، أو القدرة النفسية... إلخ.

سادسها : إن تماسك المجتمع المسلم ، يبدأ بتماسك الأسرة الصغيرة ، فإهمال شؤون الأسرة ، والاهتمام بالشأن العام المجتمعي فقط ، أمر هادم للمجتمع ، فلا معنى لسعادة ووحدة مجتمعية، والأسر ممزقة، وضحية لمفاهيم خطأ، وممارسات قد تعود لتقاليد بالية من رواسب المجتمع الجاهلي، أو تكون بدعا ما أنزل الله بها من سلطان.

٣) الحسم والرفق في القرار (أزمة أسرى بدر) :

قال تعالى : {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآَخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }[١٧٩].

وقع حوالي السبعين من المشركين أسرى للمسلمين في غزوة بدر، وقتل منهم زهاء هذا العدد، وقد استشار الرسول ﷺ كلاً من أبي بكر الصديق وعمر الفاروق رضي الله عنهما، فقال أبو بكر : يا نبي الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن نأخذ منهما الفدية، فيكون ما أخذنا منهم قوة على الكفار، وعسى أن يهديهم الله تعالى، فيكونوا لنا عضدا، فقال الرسول ﷺ: وما ترى يا بن الخطاب ؟

قال عمر : والله ما أرى ما يرى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكني من فلان (قريب لعمر)، فأضرب عنقه، وتمكن عليًا من عقيل، فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم[١٨٠]، قال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله، أنت في واد كثير الحطب، فأضرم الوادي عليهم نارا، ثم ألقهم فيه. قال : فسكت رسول الله ﷺ فلم يرد عليهم شيئًا، ثم قام فدخل، فقال ناس : يأخذ بقول أبي بكر. وقال ناس : يأخذ بقول عمر. وقال ناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة. ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم، عليه السلام، قال:{فمنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[١٨١]، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى، عليه السلام قال : {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[١٨٢] وإن مثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام، {رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ}[١٨٣] ، وإن مثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام :{وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا}[١٨٤]، أنتم عالة فلا ينفلتن قال ابن مسعود :قلت : يا رسول الله، إلا سهيل بن بيضاء، فإنه يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع علي حجارة من السماء مني في ذلك اليوم، حتى قال رسول الله ﷺ: إلا سهيل بن بيضاء فأنزل الله تعالى ما كان لنبي أن يكون له أسرى '(إلى آخر الآية) [١٨٥].

---

١٧٩) سورة الأنفال، الآيتان (٦٧، ٦٨).

١٨٠) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق : د. السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م، ص٣٥، ٣٦.

١٨١) سورة إبراهيم، الآية (٣٦).

١٨٢) سورة المائدة، الآية (١١٨).

١٨٣) سورة يونس، الآية (٨٨).

١٨٤) سورة نوح، الآية (٢٦)

١٨٥) تفسير ابن كثير، ج٤، ص٨٨، ٨٩.

لقد هوى رسول الله ﷺ ما قاله أبو بكر، ولم يهوَ ما قال عمر، فأخذ منهم الفداء، حتى كان من اليوم التالي، غدا عمر إليهما، فوجد الرسول ﷺ وأبا بكر يبكيان، فقال : يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك ؟ فإذا وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال النبي ﷺ: أبكي للذي عرض لأصحابك من الفداء، لقد عرض عليّ عذابكم، أدنى من هذه الشجرة... وأشار لشجرة قريبة، وتلا قول الله تعالى في أسرى بدر [١٨٦].

ومعنى ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يكون له بأس عظيم في الأرض بين القبائل والشعوب، فما ينبغي أن يكون له أسرى ؛ يتردد أمره فيهم بين المن والفداء إلا بعد أن تتم له القوة والغلبة، فلا يكون اتخاذه الأسرى سببا لضعفه أو قوة أعدائه، حتى يغلب في الأرض. وفسره أكثر المفسرين بالمبالغة في القتل، ومعناه : حتى يقوى ويشتد ويغلب ويبالغ ويقهر. والمراد منه حتى يبالغ في قتل أعدائه [١٨٧].

وهنا كان العتاب من الله سبحانه وتعالى، لأنهم أسروا وهم لم يثخنوا في الأرض، وأنهم قبلوا الفدية من أولئك المجرمين، الذين لم يكونوا أسرى حرب أبدا، وإنما أكابر الكفر، الذين يحاكمون ويعدمون أو يحبسون حتى الموت في قوانين الحرب الحديثة [١٨٨]. إلا أن الأمر استقر على رأي الصديق، وأخذ النبي ﷺ الفداء منهم، وكان من أربعة آلاف إلى ثلاثة آلاف درهم، وقبل أيضًا الألف درهم، ومن لم يكن عنده فداء دُفِع إليه عشرة غلمان من أبناء المدينة المنورة، فإذا حذقوا الكتابة فهم فداء، ومنّ رسول الله على عدة أسرى، فأطلقهم بغير فداء... كما أطلق ختنه أبا العاص بشرط أن يخلي سبيل ابنته زينب، وكانت قد بعثت بقلادة تعود لأمها خديجة، فلما رآها رق لها رقة شديدة، واستأذن أصحابه في إطلاق أبي العاص، ففعلوا، في مقابل إطلاق سبيل زينب من قبل أبي العاص، ففعل بدوره. وقد أشار عمر على الرسول ﷺ أن ينزع ثنيتي سهيل بن عمرو وكان خطيبا مفوها، ليدلع لسانه، فلا يخطب ضد الرسول أبدا، بيد أن الرسول رفض هذا الطلب، احترازا من المثلة، ومن بطش الله يوم القيامة [١٨٩].

والرأي الفقهي المستقر في قضية الأسرى وهو مذهب الجمهور أن الأمر في الأسارى الكفرة من الرجال يعود إلى الإمام الحاكم، بفعل ما هو لخدمة الإسلام والمسلمين إما المن أو الفداء، وقد وقع منه ﷺ الأمرين معًا، فالفداء كما فعل في أسرى بدر وكذلك المنّ مع بعضهم، ووقع منه أيضًا القتل

---

١٨٦) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، لابن الجوزي، ص٣٦.

١٨٧) التفسير الكبير المسمى البحر المحيط، ثير الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف الأندلسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت، ج٤، ص٥١٩، ٥٢٠.

١٨٨) الرحيق المختوم في سيرة سيد المرسلين، م س، ص٢٠٨.

١٨٩) السابق، ص٢٠٩.

فإنه قتل النضر بن الحرث وعقبة بن أبي معيط وغيرهما، فللإمام الحاكم أن يمن على من شاء من الأسارى ويقتل من شاء منهم ويفدي من شاء واختار بعض أهل العلم القتل على الفداء، وقد ذهب إلى جواز فك الأسير من الكفار بالأسير من المسلمين جمهور أهل العلم(١٩٠)

من خلال ما تم في هذا الموقف، نتساءل : هل هذا الأمر شكّل أزمة بالفعل ؟ والجواب: نعم، إنها أزمة لها جوانب نفسية واجتماعية وفقهية بالطبع، وهذا نراه في كثير من هؤلاء الأسرى على صلة قرابة بالصحابة عليهم الرضوان، لذا نجد عمر مصرا على محو هذه الصلة، وأن يقتل كل صحابي من يمت له بصلة، لأن الإسلام مقدم على رابطة الدم، وكان هذا الرأي شديدًا على الرسول ﷺ وعلى صاحبه أبي بكر، وهما فضّلا الفداء على القتل، وكذلك موقف الرسول ﷺ من ختنه أبي العاص، زوج ابنته زينب، ورؤيته قلادة السيدة خديجة رضي الله عنها. صحيح أن الله تعالى عاتب نبيه على قبول الفداء، قبل الإثخان في الأرض، إلا أن الأمر انتهى ببعد إنساني رفيع، على نحو ما تقدم، فقبل الرسول ﷺ الفدية، وعفا عن الفقير، وتعامل مع عدوه سهيل بإنسانية عالية، واستفاد من الكفار عارفي القراءة والكتابة في تعليم صبيان المدينة المنورة، فكانت نهاية الأزمة تحمل بصمات إنسانية راقية، دلت على حنو الرسول وهديه الكريم الذي يقدم الرفق في كل شيء، حتى مع أعدائه.

وما نزول الآيات في أسرى بدر، إلا إرشاد وهداية من الله إلى ﷺ ، وصحابته الكرام، وعاب عليهم إرادتهم عرض الدنية (الفدية)، وفي ذلك يقول الشيخ محمد الخضري : " لولا حكم سابق من الله ألا يعاقب مجتهدا على اجتهاده – ما دام المقصد خيرا - لكان العذاب، ثم أباح لهم الأكل من الفدية المبني أخذها على النظر الصحيح، وهذا من أقوى الأدلة على صدق نبينا عليه الصلاة والسلام فيما جاء به، لأنه لو كان من عنده ما كان يعاتب نفسه على عمل عمله بناء على رأي كثير من الصحابة"(١٩١)

هناك كثير من الأمور المستفادة من هذه الأزمة :

أولها : إنها أزمة محدودة جاءت عقب أزمة واسعة، تمثلت في غزوة بدر الكبرى، التي أنعم الله على رسوله والمسلمين بالنصر، ودائما الأزمات الكبرى تتلوها أزمات صغرى، على القائد وولي الأمر الانتباه إليها، فقد يكون فيها ما يقضي على مكتسبات النصر في الأزمة الكبرى.

ثانيها : نظرًا لحساسية العلاقة بين المسلمين في المدينة وأسرى قريش من الكفار، فإن الرسول ﷺ تعامل بالشورى مع صحابته الكرام في أمرهم، ورأينا تفاوتا في الرأي، دالا على تفاوت الطباع والعقول، مع صدق الإخلاص والقصد.

١٩٠) نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار، محمد بن علي بن محمد الشوكاني دار إحياء التراث العربي، بيروت د ت، مصورة عن طبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة،ج ٨، ص١٠٦

١٩١) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، الشيخ محمد الخضري، تعليق وضبط : إبراهيم محمد علي، دار الجيل (بيروت)، دار عمار (عمّان)، ط١، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، ص١٤٧، ١٤٨.

ثالثها : إن الرسول ﷺ آثر الرفق في نهاية الأمر، ممتثلا لعتاب ربه جل وعلا، متعاملا بإنسانية عالية مع الأسرى، وهو ما انعكس إيجابًا على موقف الدعوة الإسلامية بشكل عام، وعبَّر عن رسالة الإسلام الرحيمة بشكل خاص.

رابعها : إن الرسول ﷺ كان واعيا لشخصيات صحابته الكرام، وقد استخدم الآيات القرآنية واصفا كلا من : أبي بكر بأنه مثل : إبراهيم وعيسى، وواصفا عمر بأنه مثل موسى ونوحا، وفي استشارته ﷺ لأبي بكر وعمر لدليل على استئناسه برأيهما، رغم أن الظاهر أن كليهما مختلف التوجه في الحكم. ومعلوم أنه ﷺ وصف عمر قائلاً: "لو كان بعدي نبي، لكان عمر بن الخطاب"[192].

خامسها : في تنفيذ الفداء هناك فوائد عديدة، أبرزها : إطلاق السيدة زينب ابنة الرسول ﷺ، ورضي الله عنها، والاستفادة العلمية من تعليم صبيان المدينة الكتابة، وهذا يستفاد منه الآن في استغلال الأسرى إذا كانوا أصحاب خبرة وعلم في إفادة المسلمين، والنهي عن المثلة، قولاً وفعلاً.

سادسها : إن الأزمة لا تقتصر على الشدائد التي تصيب جماعة من الناس، وإنما تتصل باتخاذ القرار ذاته، وتنفيذه في ضوء هدي القرآن والشريعة، فكم من القضايا تحولت إلى أزمات مزمنة، للبطء في التوصل إلى حكم شرعي أو قانوني حولها، وأيضًا للخطأ في تنفيذ الحكم، أو البطء في عدم تنفيذه، أو إيثار الشدة في موطن الرفق، واستخدام الرفق في موطن الشدة، دون الوعي بالعواقب في كل الأحوال.

٤) أزمة الاغترار بالقوة :

{لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شيئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[193]

تشكل غزوة "حنين" اختبارًا مهمًا للمسلمين، حين أعجبتهم كثرتهم في هذا اليوم، وتهامسوا بأنهم لن ينهزموا من قلة، فتسللت الدنيا إلى قلوبهم، وتناسوا أن النصر من عند الله العزيز الحكيم ؛ وبتأييده وتقديره، لا بعدد القوم ولا بعدتهم، فلما نجحت خدعة الأعداء، ولّوا مدبرين إلا القليل منهم، الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ حيث أنزل الله نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه.

إن مدارسة هذه الغزوة من منظور إدارة الأزمة، فيه من الفوائد والنفع الكثير. لاعتبارات عديدة ؛ فهي أزمة تتعلق ببعد نفسي نبّه عليه الإسلام، وحذّر المسلمين منه، وهو الاغترار بأسباب الدنيا، والبعد عن طلب التأييد من الله تعالى. أيضًا ، فهي أزمة تتصل بواقعة حربية، كانت المواجهة فيه

١٩٢) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ابن الجوزي، ص٢٧، والحديث رواه عقبة بن عامر، ومذكور في سنن الترمذي (٥/٢٨٢)، ورواه أحمد في مسنده، والحاكم في مستدركه عن عقبة بن عامر، وضعّفه السيوطي في الجامع الصغير.

١٩٣سورة التوبة، الآيات (٢٥، ٢٦، ٢٧).

بين أهل الحق وأهل الباطل من الكفار ومشركي الجزيرة العربية ومن تحالف معهم من القبائل التي حملت حقدا وضغينة ضد دولة الإسلام في المدينة المنورة، وأن هذه المعركة تمثل آخر المعارك الكبرى مع مشركي الجزيرة العربية، وقد استهدفوا بنيان الدولة المسلمة الناشئة في المدينة المنورة، والتي انضوى تحتها بقاع وقبائل كثر في أنحاء الجزيرة العربية، بما يعني انتهاء نفوذ قبائل كثيرة، ظلّت على الشرك، وتآمرت ضد تمدد الإسلام فيما تبقى من أرض العرب.

جاءت وقعة "حنين" عقب فتح مكة في شهر شوال سنة ثمان من الهجرة، وذلك لما فرغ عليه السلام من فتح مكة، وتمهدت أمورها، وأسلم عامة أهلها، وأطلقهم رسول الله ﷺ فبلغه أن قبيلة هوازن جمعوا له ليقاتلوه، وأن أميرهم مالك بن عوف النضري، ومعه قبيلة ثقيف بكمالها، وبنو جشم وبنو سعد بن بكر، وأوزاع من بني هلال، وهم قليل، وناس من بني عمرو بن عامر، وعوف بن عامر، وقد أقبلوا معهم النساء والولدان والشاء والنعم، وجاءوا بقضهم وقضيضهم فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه للفتح، وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة، وهم الطلقاء في ألفين أيضًا ، فسار بهم إلى العدو، فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له " حنين "، فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح، نزلوا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد هاجموهم ورشقوهم بالنبال، وتعاوروهم بالسيوف، وحملوا على المسلمين حملة رجل واحد، كما أمرهم ملكهم.

وساعتها ولى المسلمون مدبرين، وثبت رسول الله ﷺ وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها تجاه العدو، وعمه العباس آخذ بركابها الأيمن، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بركابها الأيسر، يثقلانها لئلا تسرع السير، وهو ينوه باسمه ﷺ ويدعو المسلمين إلى الرجعة وينادي: أين يا عباد الله ؟ إليّ أنا رسول الله، ويقول في تلك الحال : أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، فثبت معه من أصحابه ما يقرب من مائة، وقيل ثمانون، فمنهم : أبو بكر، وعمر، والعباس وعلي، والفضل بن عباس، وأبو سفيان بن الحارث ، وأيمن بن أم أيمن، وأسامة بن زيد ، وغيرهم - رضي الله عنهم - ثم أمر الرسول عمه العباس، وكان جهير الصوت، أن ينادي بأعلى صوته : يا أصحاب الشجرة - يعني شجرة بيعة الرضوان، التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها، على ألا يفروا عنه- فجعل ينادي بهم : يا أصحاب السمرة ويقول تارة: يا أصحاب سورة البقرة، فجعلوا يقولون: يا لبيك ، يا لبيك، وانعطف الناس فجعلوا يتراجعون إلى رسول الله ﷺ حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع، لبس درعه ثم انحدر عنه، وأرسله، ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ فلما رجعت فئة منهم، أمرهم ﷺ أن يصدقوا في حملتهم، وأخذ قبضة من التراب بعدما دعا ربه واستنصره، وقال : اللهم أنجز لي ما وعدتني ثم رمى القوم بها، فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينيه وفمه ما شغله عن القتال، ثم انهزموا، فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون، وما تراجع بقية الناس إلا والأسارى مجدّلة بين يدي رسول الله ﷺ [(١٩٤)].

تأتي ملامح الأزمة هنا على وجوه :

---

١٩٤) تفسير ابن كثير، ج٤، ص١٢٦، ١٢٧.

الوجه الأول : وهو قبل الغزوة، ويتصل بما لحق المسلمين من شعور بالقوة الناتج عن فتح مكة، ودخول كثير من الناس أفواجا في الدعوة، وسقوط أكبر معقل للكفر في الجزيرة العربية، المتمثل في مكة المكرمة، وهدم الأصنام المنصوبة حولها، وإعلان سقوط الشرك وعبادة غير الله في العرب، وعودة الكعبة المشرفة إلى دين التوحيد. إن هذا الشعور، اكتنف الكثير من الصحابة، خاصة وهم يسيرون في أكثر من اثني عشر ألف جندي، وهو عدد كبير بالقياس إلى الغزوات والسرايا والوقائع الحربية السابقة، فكون تسلل هذا الشعور في القلوب لهو أمر طبيعي، يتسق مع الطبيعة البشرية، وتقلباتها النفسية في ضوء موازين القوة المتغيرة، وتحولات الدنيا بهم.

فكانت الأزمة في بداياتها تتصل بالجانب النفسي، بهذا الاغترار النوعي، الذي يمنع النفس البشرية من رؤية الأمور بشكل محايد، وتقدير قوة العدو، والتعامل مع المواقف بمنطق العقل الدنيوي وحساباته القائمة على العدد والعدة.

الوجه الثاني : وهو أثناء الغزوة، حين كمن الأعداء للمسلمين بوادي حنين، وكانت المفاجأة حين باغتوهم مع طلوع الصبح، والضوء لا يزال مغبشا ببقايا الظلام، ولأول مرة يجد الصف المسلم المحارب نفسه مضطرا إلى الإدبار، أمام وقع السهام، ومباغتة السيوف، وقبل ذلك هول المفاجأة، وسقوط وهم القوة المسبق. وكانت المحصلة أزمة شديدة، فالمسلمون يتراجعون، ويدْبُرون، وهم الذين دانت لهم رقاب العرب بفتح مكة، وتهاوي أصنام الكفر. والأهم أن رسول الله، صاحب الرسالة، المؤيد من قبل الله تعالى، موجود بينهم، ولكن فعله غير فعلهم. إنها أزمة الفرار لجيش المسلمين، وفيه من فيه من كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار.

فكلا الوجهين يعبر عن الأزمة، ولو تخيلنا أن تنتهي الغزوة عند هذه النتيجة، لكانت النتائج أليمة على الدعوة الإسلامية، فالناس لا يزالون حديثي عهد بالإيمان، وتؤثر فيهم نتائج المعارك، وتقدّم أو تراجع الجماعة المؤمنة.

الوجه الثالث : ويشمل انفراج الأزمة على المستوى الكلي، ولكنه كان أزمة في حد ذاته، لأن الرسول وحده، ومعه نفر قليل، وآلاف المسلمين من صحابته الأبرار فروا وأدبروا، مستحضرين الدنيا، إنه حب الدنيا وكراهية الموت، ويصبح العدد الكثير غثاء، فكان ثبات الرسول ﷺ على "الشهباء" قيادة للصف المسلم الذي انحرف عن مقاصد الإسلام، ولاذ بالدنيا، فراح يوجه بغلته ناحية الأعداء، مخالفا إدبار المسلمين، مذكرًا المسلمين ممن حوله ومن تناءى منهم أن يهرعوا إليه فهو النبي لا كذب ؛ مؤكدًا أن نبوته لا تتأثر بعارض دنيوي وإن كان هزيمة حربية، وأنه من نسل عبد المطلب، الزعيم القرشي ذي النسب العظيم، والدور الأعظم في تاريخ مكة، ساعة هجوم أبرهة الأشرم على الكعبة.

وجاء خطاب الرسول الذي بلّغه عمه العباس، وهو جهوري الصوت، خطابا إيمانيا، يذكّر الجماعة المسلمة بمواقفهم ساعة بيعة الرضوان التي تمت على مناصرة الرسول في الشدة والثبات وقت الفرار، مناديا على أصحاب سورة البقرة.

فالأزمة الآنية : الرسول ومعه فئة قليلة، أمام جموع الأعداء الكثيرة، هو بدعائه وندائه وهم بقوتهم وعتادهم، فما كان من المسلمين إلا أن عادوا ثانية، فالنداء إيماني بالأساس وليس حربيا، لأن الأزمة أزمة نفسية، وليست أزمة عددية، فالرسول القائد ﷺ وضع يده بسرعة على سبب الأزمة

(الاغترار)، وقام بالحل (التذكير بالإيمان)، وقدّم القدوة في ثباته وثبات كبار الصحابة معه، فعاد المجاهدون، وحملوا على الأعداء، وكلمات الرسول ﷺ ترن في آذانهم، وذرات التراب تتطاير على وجوه الأعداء، فتم النصر بفضل إعادة عامل الإيمان، الذي هو المعيار الأساسي في قوة المسلمين أمام أعدائهم.

الوجه الرابع : إن التوجيه القرآني للرسول ﷺ ولصحابته الأبرار، أشار إلى أن الكثرة لم تغن عنهم شيئًا ، وأن الأزمة اشتدت عليهم، فهم في وادٍ فسيح، ومع ذلك { فقد ضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ }، ونلحظ دقة التعبير القرآني المعجز المعبر عن جو الأزمة، فالأرض في منظور عيون المسلمين وفي قلوبهم ضاقت بهم نفسيا وفكريا وحربيا، على رحابتها المكانية المادية، فالأزمة ليست أزمة موضع، وإنما أزمة نفوس، وهذا ما جعلهم يولون مدبرين.

وجاء نصر الله بإنزال السكينة على الرسول وعلى المؤمنين، والسكينة تعني الهدوء ورباطة الجأش والثبات، مما يسمح بحسن التصرف، وفهم عاقبة الأمر، والقدرة على التفكير في الأزمة، وحلها، والشجاعة في مواجهتها. لنعلم أن النصر لا يتأتى إلا من عند الله، عندما تقاتل الجماعة المؤمنة عدوها، ما دامت ساعية إلى نصرة دين الله والذود عن حياضه، مصداقًا لقوله تعالى { ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ }، وكما نرى في الآية، فإن السكينة تنزلت على الرسول ﷺ أولاً، فهو الرسول المبلغ الملهم، والقائد، والأسوة، ومن ثم تنزلت على المؤمنين، فثبتوا وكانوا قلة، وإن اختلف المفسرون في عددهم، فقيل كان حول رسول الله ﷺ ثلاثمائة من المسلمين وانهزم سائر الناس.وقال آخرون: لم يبق مع النبي ﷺ يومئذٍ غير: العباس بن عبد المطلب، وأبي سفيان بن الحارث، وأيمن بن أم أيمن، فقُتل يومئذٍ بين يدي رسول الله ﷺ.[195]، أما الرسول فهو الوحيد الذي لم يولّ، ظلَّ ثابتًا في موضعه قبل وأثناء وبعد الغزوة، وحين رآهم يدبرون، كان أول من ناداهم على نحو ما تقدم، وحين عادوا للقتال ثانية، تطلع إلى موضع الاشتباك، حيث أخذ ﷺ حصياتٍ فرمى بهنَّ وجوه الكفار، ثم قال: انهزموا وربِّ محمد، (يقول الراوي وكان العباس بن عبد المطلب) فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى ، قال: فو الله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى حدَّهم كليلا وأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا[196]، وفي رواية أخرى، قال ﷺ: شاهت الوجوه. بعد رميه حفنة التراب، فما خلق الله إنسانًا إلا ملأ عينيه ترابًا من تلك القبضة، فلم يزل حدهم كليلاً، وأمرهم مدبرا. وما هي إلا ساعات قليلة، حتى انهزم العدو وقُتِل من ثقيف وحدها سبعون، وحاز المسلمون ما كان مع العدو من مال وسلاح وظعن [197]. وانتهت الغزوة بنصر الله تعالى المؤزر على الكافرين، وأنعم الله جل وعلا بالمغفرة على المسلمين، ويقبل توبتهم { ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ }.

---

١٩٥) معالم التنزيل، المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي [المتوفى ٥١٦هـ] حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، ج٤، ص٢٧.

١٩٦) السابق، ج٤، ص٢٧.

١٩٧) الرحيق المختوم، ص٣٨٣.

وكانت الغزوة درسًا ، تعلم منه الصحابة ، وقادوا الفتوحات الإسلامية وفقًا له ، فلن تدين الدنيا للمسلمين إلا إذا دانت قلوبهم لله تعالى أولاً ودائمًا.

٥) فتنة مسجد الضرار :

{وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ}(١٩٨).

تمثّل هذه الأزمة على صغر شأنها - كما يبدو عند الوهلة الأولى بالنظر إلى قلة مسببيها واستغراقها أيامًا قليلة – مشكلة كبرى يمكن أن تعترض حياة الجماعة المؤمنة، فهناك من يتوسل ببناء المساجد لتفريق صف المسلمين وإحداث فتنة بينهم ، وكانت وسيلتهم في ذلك بناء مسجد ، ظانين أنهم قادرون على خداع الصف المسلم ، بهذا الأمر ، فلن يجادل أحد في مسجد بناه مسلمون ، ولكن جاءتهم الأقدار بما لا يشتهون، لأنهم يتعاملون مع النبي ﷺ الموحى إليه من المولى تعالى.

لقد قام اثنا عشر رجلاً وهم : خذام بن خالد من بني عبيد بن زيد، أحد بني عمرو بن عوف، وهو الذي بنى المسجد من مساحة بيته، ومعه ثعلبة بن حاطب من بني عبيد، وهو إلى بني أمية بن زيد. ومعتب بن قشير من بني ضبيعة بن زيد. وأبو حبيبة بن الأزعر من بني ضبيعة بن زيد وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف من بني عمرو بن عوف، وجارية بن عامر وابناه : مجمع بن جارية وزيد بن جارية ، ونبتل بن الحارث وهم من بني ضبيعة ، وبحزج وهو إلى بني ضبيعة وبجاد بن عثمان وهو من بني ضبيعة ووديعة بن ثابت وهو إلى بني أمية رهط أبي لبابة بن عبد المنذر. بنى هؤلاء النفر هذا المسجد ، ليكون ضرارًا وندًّا وكُفرًا بالله تعالى ضد مسجد قباء الذي بناه رسول الله ﷺ(١٩٩) ورغبة في تفريق المؤمنين كي يصلي فيه بعضهم دون مسجد الرسول ﷺ فيشتد الخلاف وتتعاظم الفرقة بين المسلمين، وكان هذا من إعداد أبي عامر الكافر الذي خالف الله ورسوله، وكفر بهما، وقاتل رسول الله ﷺ قبل ذلك في غزوة الخندق، حين حزّب الأحزاب لقتال رسول الله ﷺ فلما خذله الله وأصاب الأحزاب بهزيمة نكراء، لحق بالروم يطلب النصر من ملكهم على نبي الله، وكتب إلى أهل مسجد الضرار يأمرهم ببناء المسجد الذي كانوا بنوه، فيما ذكر عنه ؛ ليصلي فيه (٢٠٠).

وقد بلغ من جرأة هؤلاء، أنهم دعوا الرسول للصلاة في هذا المسجد، حين أتوه فقالوا : يا رسول الله ، إنا قد بنينا مسجدا لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه. فقال ﷺ: إني على جناح سفر وحال شغل ولو قدمنا أتيناكم - إن شاء الله - فصلينا لكم فيه (٢٠١).

---

١٩٨) سورة التوبة، الآيتان(١٠٧، ١٠٨)

١٩٩) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، م س، ص٢٩٦.

٢٠٠) تفسير الطبري، ج١٤، ص ٤٧٠

٢٠١) السيرة النبوية، لأبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري، المعروفة بسيرة ابن هشام، تحقيق وتخريج : جمال ثابت، محمد محمود، سيد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٤، ٢٠٠٤م، ج٤، ص٤١٠.

وكان الرسول ﷺ يعد العدة ساعتها لغزوة تبوك، فلما أقبل رسول الله ﷺ من تبوك، وفي طريق عودته، نزل بذي أوان، وهي بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار، أتاه خبر المسجد وعلم النية المبيتة فيه، فدعا رسول الله ﷺ أحد صحابته وهو مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف، ومعن بن عدي -أو أخاه :عاصم بن عدي - أخا بني العجلان فقال : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرّقاه. فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك لمعن :أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي، فأخذ سعفا من النخل، فأشعل فيه نارا، ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرقاه وهدماه، وتفرق الناس عنه[٢٠٢].

يمكن أن نقرأ هذه الأزمة في ضوء شخصيات من قاموا بها، فهؤلاء جماعة من المنافقين، نفذوا رغبة أحدهم "أبي عامر" الذي هُزِم في غزوة الأحزاب مع جماعات اليهود والكفار والمشركين، فهرب إلى بلاد الروم، وهناك تآمر وطلب من النفر المذكورين من قبل أن يبنوا هذا المسجد، فكان ما حدث.

إذن، تبدو أبعاد الأزمة في خيوط عديدة :

فالبناة هم من المنافقين، وإن رفعوا شعار المسجد الخادم لعباد الله في حياتهم ؛ لصاحب العلة والحاجة والاحتماء به في الليلة المطيرة وشديدة البرودة، وهكذا كان الهدف حميدًا كما هو معلن، ولكن الحقيقة هي الضد، بالنظر إلى من البناة المحرضين، ومن ورائهم من ذوي الكفر. والبعد الخارجي واضح، من خلال تآمر أبي عامر الفار إلى بلاد الروم، والعداء معروف بين الدولة الإسلامية وبين الروم.

كذلك فإن الرسول قبل الدعوة في بداية الأمر، بعدما سمع من بُنَاته، فلما تحقق من الغرض وهو يعلم الأشخاص حق المعرفة، أمر اثنين من صحابته الكرام، بحرق المسجد وهدمه، لتنتهي الأزمة من أساسها، وتزول علامتها وهي المسجد نهائيا، كي لا تبقى هذه العلامة مسببة لفتنة أكبر، فعندما يقصد المسلمون المسجد للصلاة فإن رؤوس النفاق، سيبثون أحاديث الفتنة والبلبلة، مما يؤدي إلى أزمات أكبر.

لم يستمر المسجد كثيراً، قال ابنُ جريج : فرغوا من إتمام ذلك المسجد يوم الجمعة، فصلُّوا فيه ذلك اليوم ويوم السبت والأحد، وانهار في يوم الاثنين[٢٠٣]، وهذا دليل على سرعة اتخاذ القرار من قبل الرسول ﷺ، كي لا يكتسب موضعًا في نفوس الناس، وإظهار حزم الرسول في التعامل مع مثل هذه الأزمات، وردعا لكل من يحاول أن يسبب فتنة للناس.

ويمكن استخلاص العديد من الدروس المهمة في هذه الأزمة :

---

٢٠٢) تفسير الطبري، ج١٤، ص٤٦٩، وأيضا : سيرة ابن هشام،ج٤، ص٤١٠.

٢٠٣) تفسير اللباب في علوم الكتاب، الشيخ العلامة سراج الدين ابن عادل أبي حفص عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي/ ت بعد ٨٨٠ هـ، بتحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٩ هـ، ١٩٨٩م، ج٨، ص٣٧٠

- عدم انخداع المسلمين بمن يتوسل بالمساجد ودور العبادة لأهداف خبيثة في نفسه، ولابد من النظر في شخصيات هؤلاء دائمًا ، فتاريخهم وممارساتهم تفضحهم.

- إن معالجة الرسول ﷺ للأزمة كانت حاسمة وقوية، وبوحي مباشر من الله، بأن لا يقوم فيه ولا يصلي، ولا يقترب منه.

- في قوله تعالى { لَا تقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ } توجيه مباشر إلى النظر إلى المسجد من زاوية مختلفة، ألا وهي نية البنائين، لذا جاءت الآية القرآنية مقارنة بين مسجد الضرار ، ومسجد قباء... فمسجد قباء أُسِّس على الخير والتقوى والإحسان، من رجال مؤمنين طاهرين مخلصين. فـ "فعلة المنع وقعت بمجموع الأمرين، (أي) كون مسجد الضرار سببًا للمفاسد المذكورة وهي المضارة والكفر والتَّفريق بين المؤمنين وإرصاده لمن حارب الله ورسولهُ ، وكون مسجد التقوى يشتمل على الخيرات الكثيرة" [٢٠٤] ومن هنا كان النظر والتقييم على أساس المقصد.

- إن حرق المسجد تم بالفعل، وهذا لا يعني أن المسلمين كانوا يتعاملون مع أي مسجد جديد بحذر، بل ذكر في كتب السيرة العديد من المساجد التي كانت تتوافر في المدينة المنورة، وكان الرسول ﷺ يقصدها [٢٠٥]، ولكن مسجد الضرار كان يهدف إلى الفتنة.

- لم يحارب أو يضطهد الرسول القائد هذه الفئة من الناس، وإن عَلِمَ نفاقهم، بل اكتفى بحرق المسجد وهدمه، ولما استقر بالمدينة عفا عن المعتذرين والمتخلفين حين جاءوه، معتذرين كذبا، فقبل عليه الصلاة والسلام علانيتهم، ووكل ضمائرهم إلى الله واستغفر لهم. وهي خطوة رائعة، تدل على حرص النبي الكريم على وحدة الصف، وعدم المغالاة في العقاب، وإفساح الفرصة لمن يشاء في التوبة، وقبول الاعتذار، ونستفيد من هذا ضرورة ترك المجال للمخطئين والمتآمرين للعودة والتوبة.

ونفس هذا الأمر، سار عليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد رُوي أنَّ بني عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء أتوا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته ليأذن لمجمع بن حارثة، فيؤمّهم في مسجدهم، فقال : لا والله ولا نعمة عين! أليس بإمام مسجد الضرار؟ فقال له مجمع : يا أمير المؤمنين، لا تعجل عليّ، فوالله لقد صليتُ فيه وأنا لا أعلم ما أضمرُوا عليه، ولو علمتُ ما صلَّيتُ

---

٢٠٤) تفسير اللباب في علوم الكتاب، ج٨، ص ٣٧٠.

٢٠٥) ورد في السيرة النبوية لابن هشام أن مساجد رسول الله بين المدنية وتبوك معلومة ومسماة، ومنها : مسجد بتبوك، ومسجد بثنية مدران، ومسجد بذات الزراب، ومسجد بذي خشب... إلخ، سيرة ابن هشام، ج٤،ص٤١٠.

معهم، كنتُ غلامًا قارئًا للقرآن، وكانوا شُيُوخًا لا يقرؤون فصليت ولا أحسب إلاَّ أنهم يتقرَّبُون إلى الله، ولم أعلم ما في أنفسهم فعذره عمر وصدَّقه وأمره بالصلاةِ في مسجد قباء. قال عطاءٌ : لمَّا فتح الله على عُمر الأمصار أمر المسلمين أن يبنوا المساجدَ، وأمرهم ألاَّ يبنوا في مدينة مسجدين يضار أحدهما صاحبه [٢٠٦].

فهناك من المسلمين خُدِعَ وصلى بالناس في مسجد الضرار، ولكن عمر ﵁ كان من الفقه، فتفهم دفاع "مجمع"، فأذن له بما طلب. إلا أننا نتوقف عند بناء مسجدين متجاورين، فهذه قضية فقهية، حيث استنبط الفقهاء أحكاما فقهية تمنع تكرار مثل هذه الأزمات... فلا يجوز أن يُبنى مسجد إلى جانب مسجد، ويجب هدمه، والمنع من بنائه، لئلاَّ ينصرف أهل المسجد الأول فيبقى شاغرًا ، إلاَّ أن تكون المحلة كبيرة فلا يكفي أهلها مسجدٌ واحدٌ فيبنى حينئذٍ. وكذلك قالوا : لا ينبغي أن يبنى في المصر الواحد جامعان وثلاثة، ويجب منع الثاني، ومن صلَّى فيه الجمعة لم تجزه. وقال علماؤنا : كلّ مسجد بُنِيَ على ضِرارٍ أو رياء أو سمعة فهو في حكم مسجد الضِّرارِ لا تجوز الصلاة فيه[٢٠٧].

الحكم الفقهي يمنع بناء المساجد للفخر والاختيال والتباهي، فهناك من الموسرين من يفعل ذلك رياء وسمعة، وهذا منهي عنه شرعا، لأنه يفتح باب فتنة كبيرة، فمن المهم منعها قبل الشروع في البناء، استفادة مما حدث في فتنة مسجد الضرار.

أما المسجد الذي يُتَّخذ للعبادة فإن الشارع حضّ على بنائه فمَنْ بنَى للهِ مسجدًا، ولوْ كَمَفْحَصِ قطاةٍ بنى اللهُ لهُ بيتًا في الجنَّةِ [٢٠٨].

وقد تساءل البعض : هل يلزمُ من هذا ألاَّ يصلى في كنيسة ونحوها ؛ لأنَّها بُنيت على شر ؟ وباعتبار أن الكنيسة تعبر عن ديانة بها تحريف في العقيدة واضح. فأجاب الإمام القرطبي بأن هذا لا يلزمُ؛ لأنَّ الكنيسة لم يقصد ببنائها الضَّرر بالغير، وإن كان أصل بنائها على شرٍّ، وإنما اتَّخذت النَّصارى الكنيسة واليهود البيعة موضعًا لعبادتهم بزعمهم كالمسجد لنا فافترقا، وقد أجمع العلماء على أن من صلَّى في كنسةٍ، أو بيعة على موضع طاهرٍ أنَّ صلاته صحيحةٌ جائزةٌ. وذكر البُخاريُّ أن ابن عباس كان يصلي في البيعة إذا لم يكن فيها تماثيل[٢٠٩]. فما أشار إليه الإمام القرطبي من أن بناء الكنيسة لا يهدف إلى الضرر بالآخرين وإن اختلفت العقيدة، وفي هذه الحالة يجوز للمسلم أن يصلي في أي موضع ما دام طاهرًا، ويخلو من التماثيل وما شابه.

فمعول الأمر كله، قائم على منع الفتنة بين الناس، واحترام معابد الديانات الأخرى، وما جواز الصلاة فيها إلا تعبير عن احترام المسلمين لعقائدهم ومعابدهم، وفيه أمر بعدم التعرض لها، بل وحمايتها من قبل الدولة المسلمة، فهو فرع من حرية الاعتقاد واحترام للعقيدة التي يختارها

---

٢٠٦) تفسير اللباب في علوم الكتاب، ج٨، ص٣٧٠.

٢٠٧) السابق، ج٨، ص٣٧٠

٢٠٨) تفسير اللباب في علوم الكتاب، ج٨، ص٣٧١

٢٠٩) السابق، ج٨، ص٣٧٠. وذكر أبو داود عن عثمان بن أبي العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره أن يبني مسجد الطائف حيثُ كان طواغيتُهم مقامة.

الإنسان، لذلك يترك الإسلام لغير المسلم حرية ممارسة العبادات التي تتفق مع عقيدته، ثم يأمر بالمحافظة على بيوت العبادة التي يمارس فيها شعائره، ويحرم على المسلميـن الاعتداء على بيوت العبادة أو هدمـها أو تخريبها، أو الاعتداء على القائمين فيها، سواء في حالتي السلم والحرب [٢١٠].

أما متى يتدخل ولي الأمر في هدم المسجد، لمنع أزمات يمكن أن تنتج عنه ؟ فإن العلماء وضعوا شرطا مستفادًا من قصة مسجد الضرار، حيث أشاروا إلى أن المسجد " يُهْدم إذا كان فيه ضرر بغيره... كمنْ بنى فرنًا أو رحًى أو حفر بئرًا ، أو غير ذلك ممّا يدخل ضررًا على الغير. والضَّابطُ فيه : أنَّ منْ أدخَلَ ضررًا على أخيه منع، فإن أدخل على أخيه ضررًا بفعل ما كان له فعله في ماله، فأضرَّ ذلك بجاره، أو غير جاره، نظر إلى ذلك الفعل، فإن كان تركه أكبر ضررًا من الضَّررِ الدَّاخل على الفاعل قطع أكبر الضَّررين[٢١١].

فالضابط الفقهي هو منع الضرر على الآخر، وهو أمر عظيم، يدرك عظم الحكمة المترتبة على هذا المقصد السامي، والشرع الحنيف جاء لتحقيق مصالح الناس والأحكام الشرعية كلها إنما شرعت لتحقيق هذه المصالح، فما من حكم شرعي إلا قصد به تحقيق أحد هذه المصالح أو أكثر، بحيث يكفل التشريع جميع المصالح وكان منهج التشريع الإسلامي لرعاية هذه المصالح باتباع طريقين أساسيين: الأول: تشريع الأحكام التي تؤمن تكوين هذه المصالح وتوفر وجودها... الثاني: تشريع الأحكام التي تحفظ هذه المصالح وترعاها وتصونها، وتمنع الاعتداء عليها أو الإخلال بها، وتؤمن الضمان والتعويض عنها عند إتلافها أو الاعتداء عليها، وبذلك تصان حقوق الإنسان، وتحفظ، وينعم الناس بها، ويتمتعون بإقرارها عمليًا في الحياة[٢١٢].

ومن منظور إدارة الأزمات، فإن منع مسببات الأزمة كفيل بمنع وقوعها، وإن وقعت لخطأ ما أو إجراء ما... فإن تطبيق الأحكام الشرعية المقررة في هذا الشأن كفيل، بحل الأزمة، دون التفكير في حلول جديدة، لأن حل الأزمة موجود والأزمة نشبت بترك القاعدة الشرعية، التي هي عند تطبيقها يتم التغلب على الأزمة.

٦) العصيان لهوى النفس (الثلاثة الذين خلفوا) :

{ وعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[٢١٣].

ليست مجرد أزمة لأفراد ثلاثة ؛ تخلّفوا في غزوة تبوك، وهم : كعب بن مالك ومرارة بن ربيعة العامري وهلال بن أمية الواقفي وكلهم من الأنصار. وقد خرج البخاري ومسلم حديثهم. وقد

---

٢١٠) حقوق الإنسان محور مقاصد الشريعة،.د أحمد الريسوني،.د محمد الزحيلي، د محمد عثمان شبير، سلسلة كتاب الأمة، وزارة الأوقاف، قطر، العدد ٨٧، باب مقاصد الشريعة أساس حقوق الإنسان، ص٢٢.

٢١١) تفسير اللباب في علوم الكتاب، ج٨، ص٣٧١.

٢١٢) حقوق الإنسان محور مقاصد الشريعة، ص٢٣.

٢١٣) سورة التوبة، الآية (١١٨).

وردت حكايتهم في مصادر عديدة، وتقتصر في عرضها على الرواية من وجهة نظر فرد ألا وهو كعب بن مالك، فكأننا نرى المحنة من منظوره الشخصي، ومن معاناته الخاصة، ولكن الأمر لم يكن أزمة تخصه مع صاحبيه الآخرين، وإنما تشمل أيضًا أفرادا في المجتمع المسلم يمكن أن يقعدهما الكسل والدعة والراحة عن الخروج للجهاد.

وسنتعرف من خلال سرد كعب لقصته، سمات المجتمع المسلم في العهد النبوي، وكيف كانوا ينظرون إلى الجهاد في سبيل الله، وكيف كانوا يتجاوبون مع أوامر المصطفى ﷺ. وسنتناول القصة على مقاطع، محاولين أن نقف على أبعاد الأزمة والمستفاد منها، لأنها ليست أزمة فردية، ولا عارضة ، وإنما متكررة الحدوث، حينما يتعلق الشيطان بالنفس، ويتحكم فيها هوى أو شح أو رغبة، وقد آثرنا عرض نص القصة كما وردت، لأن بها الكثير مما يستفاد منه، عبر التفاصيل الدقيقة، التي نتعرف بها على خبيئة السارد كعب، وعلى تصرفات الناس من حوله، وأبعاد الأزمة التي مرَّ بها.

ولنذهب مع كعب في قصته، كما أخرج الإمام مسلم (٢١٤) عن كعب بن مالك قال : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك غير أني قد تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحدًا تخلف عنه إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك : أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا واستقبل عدوًا كثيراً فجلا للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ يريد بذلك الديوان" (٢١٥).

فإن كعبًا رضي الله عنه، تميز بكونه :

- لم يتخلف قط عن أي غزوة غزاها الرسول ﷺ من قبل إلا غزوة بدر، وهذا دليل على حرصه على الجهاد.
- أن الرسول ﷺ ليس من دأبه معاتبة من تخلّف عن الغزو معه.

٢١٤) صحيح مسلم، المسمى الجامع الصحيح، الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري، مرتبة وفق ترتيب المعجم المفهرس لألفاظ الحديث، ومطابقة لترقيم نسخة العلامة محمد عبد الباقي، نشر : دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م، الحديث رقم : ٢٧٦٩، ص١١٠٧-١١١١، وراجع أيضا : تفسير القرطبي ج٨، ص٢٠٠-٢٠٤، تفسير ابن كثير، ج٤، ص٢٣٠ - ٢٣٢.

٢١٥) السابق، ص١١٠٨.

- إن حديث كعب عن نفسه فيه كثير من الاعتراف بالذنب، فهو يقرر أنه – في غزوة تبوك التي تخلف عنها مع صاحبيه – كان في أفضل أحواله المادية، أي انتفى عنه العذر المادي مثل افتقاد راحلة، فكانت معه راحلتان، وكان في حال صحية طيبة وبخير.

- إن غزوة تبوك كانت في أيام حر شديد، وعلى مبعدة كبيرة من المدينة المنورة، فيها من المفازات ومشاق السفر الكثير.

- لقد حدثته نفسه أن ليس هناك ديوان لتسجيل أسماء المجاهدين المشاركين، وربما يضيع ذكره بين الجنود، أو لن يتوقف أحد عند تخلفه.

ويواصل كعب سرده، متحدثًا عن تلكؤه في الخروج، والرسول ﷺ وصحابته الأبرار (عليهم الرضوان)، يُعدّون الجيش : نفقة وعتادا وجندا، وهم متباطئ، متخذا من التسويف نهجا طيلة أيام الإعداد...

قال كعب : فقلّ رجل يريد أن يتغيب يظن أن ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي من الله تعالى، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال فأنا إليها أصعر، فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمسلمون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئًا وأقول في نفسي : أنا قادر على ذلك إذا أردت فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ غازيًا والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئًا ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئًا فلم يزل كذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو فهممت أن أترحل فأدركهم فيا ليتني فعلت ثم لم يقدر ذلك لي فطفقت إذ خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلاً مغموصًا عليه في النفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء "[٢١٦]

نلاحظ هنا في مرحلة خروج المسلمين إلى الغزوة :

- إن التسويف كان ديدنه، وكان يتظاهر أمام نفسه بأنه قادر على اللحاق بالجيش في أي وقت، متى أراد.

- إن نفس كعب ظلت تراوده بين البقاء والخروج حتى تحرك الجيش للغزو، وبقي هو في المدينة المنورة، مستسلما للكسل والفتور.

- أن نفسه لامته، فأراد اللحاق بهم، ولكنه لم يستطع.

- أنه تطلع إلى المدينة، فوجد أن كل قادر على حمل السلاح خرج في جيش المسلمين، ولم يتبق إلا ذوو الحاجات والضعاف والزمنى والأعذار. وفي هذا دلالة بينة على عظم شأن الجهاد، وتدافع المسلمين – زمن النبي ﷺ - للخروج، ولا يبقى إلا ذوو الحاجة.

ويكمل كعب : "ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك : ما فعل كعب بن مالك ؟ فقال رجل من بني سلمة :يا رسول الله، حبسه برداه والنظر في عطفيه. فقال له معاذ بن جبل :بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرًا. فسكت رسول

٢١٦) السابق، ص١١٠٨.

الله ﷺ فبينما هو على ذلك رأى رجلاً مبيضًا يزول به السراب فقال رسول الله ﷺ: كن أبا خيثمة فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري وهو الذي تصدق بصاع التمر حتى لمزه المنافقون. فقال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حضرني بثي فطفقت أتذكر الكذب وأقول : بم أخرج من سخطه غدًا وأستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي فلما قيل لي : إن رسول الله ﷺ قد أظل قادمًا زاح عني الباطل حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبدًا، فأجمعت صدقه، وصبح رسول الله ﷺ قادمًا، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله، حتى جئت فلما سلّمتُ تبسم تبسمَ المغضب ثم قال: تعال فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي : ما خلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ قلت : يا رسول الله، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخط بعذر ولقد أُعطيت جدلاً ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه أني لأرجو فيه عُقبى الله، والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. قال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك " [٢١٧].

ثمة أمور عديدة، ينبغي التوقف عندها في تطورات الأزمة :

فهي ذات بُعد نفسي في الأساس، ونكتشف من خلال السياق أن كلاً من كعب، والرسول ﷺ كانا مهمومين ، الأول مهموم لقعوده عن الجهاد ، والرسول ﷺ كان مهمومًا بتخلف بعض أصحابه وأحبائه عن الجهاد.

ونلاحظ قوة ذاكرة الرسول ﷺ التي يعرف بها أصحابه واحدًا واحدًا، بجانب إلهام العزيز القدير له ، فعلى كثرة عدد الجنود في الجيش، فإنه ﷺ يعرف الغائبين ويسأل عنهم، وعندما يسأل عن كعب، فإن هناك من يتبرع ليخبره أنه قد "حبسه برداه والنظر في عطفيه "، كناية عن الكسل والدعة اللذين يطلبهما. ولكن معاذ بن جبل ﷺ ينبري سريعًا ، ويرد عن الرجل في غيبته، ويؤكد أنه ما علموا عنه إلا كل خير. وهذا دال على أمرين : طبيعة النفوس البشرية التي قد تلمز كما فعل الرجل من بني سلمة، وخلق المسلم الرفيع في رد معاذ بن جبل، وأن هذا كان أمام الرسول، والرسول يقوّم أصحابه دوما.

نلاحظ أيضًا أن الرسول ﷺ كان على صلة حية، ودافئة، ومستمرة بكل أصحابه، وما سؤاله عن كعب وغيره إلا دليل هذا الحب، فهم وإن تفاوتوا في العطاء والجهاد، إلا أنهم متساوون في قلب المصطفى ﷺ ، يهفو لهم جميعًا ، ويتفقد من غاب منهم. وكما رأينا في شوقه إلى أبي خيثمة، فكان من لحق بالجيش هو أبو خيثمة ﷺ، ولم يلتفت في ذلك إلى قلة بذل أبي خيثمة ، ولا إلى لمز المنافقين له، لأن علاقة الحب أسمى وأرفع من أي لمز أو غمز.

---

٢١٧) صحيح مسلم، نص الحديث، ص١١٠٨، ١١٠٩.

وفي عودة الرسول ﷺ إلى المدينة، فإن القلق استبد بكعب، وظل يتحين وصول الرسول إلى المسجد، واجتماع الناس عليه. وذاك دليل على عذاب الضمير، وتأنيب النفس اللوامة، التي أخذت عليه قعوده، وكانت نفسه تنازعه أن يكذب كما فعل المرجفون والمنافقون الذين جاءوا يعتذرون وكانوا بضعة وثمانية رجلاً، فقبل أعذارهم على ما أعلنوه، إلا أن كعبا أبى أن يفعل ذلك.

وأنه لما جلس إلى الرسول ﷺ نظر إليه الرسول مبتسمًا ابتسامة المغضب، وسأله عن حاله، فلما عرف أن لديه راحلة، ولم يمنعه مانع، وأقرَّ كعب بما في نفسه: "والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك"، ونشعر هنا من كلماته، برغبته في التخلص من تأنيب الذات، وأنه ذو فطرة طيبة، لذا، شهد له الرسول بالصدق، وطلب منه أن يقوم انتظار لقضاء الله في أمره. وهذه فراسة الرسول -المبلغ من الله تعالى- في أصحابه.

ولنكمل القصة، لنقف على تطورات الموقف:

يقول كعب: "فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنبًا قبل هذا، لقد عجزت في ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المتخلفون، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول ﷺ لك. قال: فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذِّب نفسي. قال: ثم قلت لهم هل لقي هذا معي من أحد؟ قالوا: نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك. قال قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن ربيعة العامري وهلال بن أمية الواقفي. قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة، قال: فمضيت حين ذكروهما لي. قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه. قال: فاجتنبنا الناس. وقال: وتغيروا لنا، حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرَّك شفتيه برد السلام أم لا! ثم أصلي قريبًا منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي وإذا التفت نحوه أعرض عني حتى إذا طال ذلك علي من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إلي فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام، فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمن أني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت فعدت فناشدته فسكت، فعدت فناشدته فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار، فبينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ قال: فطفق الناس يشيرون له إلي حتى جاءني فدفع إلي كتابًا من ملك غسان، وكنت كاتبًا فقرأته فإذا فيه: أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك. قال: فقلت حين قرأتها: وهذه أيضًا من البلاء فتيممت بها التنور فسجرته بها، حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحي إذا رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك. قال فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها فلا تقربنها. قال: فأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك. قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر. قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال:

لا، ولكن لا يقربنك، فقالت : إنه والله ما به حركة إلى شيء، ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. قال : فقال بعض أهلي لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه. قال فقلت : لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدريني ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب، قال : فلبثت بذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نُهي عن كلامنا" (٢١٨)

في المقطع السابق، نجد الأزمة قد اشتدت على كعب، فكان ما يأتي :

- تطوّع فئة من الناس، وراح يؤنبون كعبًا على صدقه، وكان بإمكانه الكذب، فكاد أن يهتز ويندم على صدقه، لكنه تماسك، وأصر على موقفه.
- أنه فوجئ بحكم الرسول ﷺ عليه وعلى الاثنين الآخرينِ، والذي تضمن أن يهجرهم الناس، فلا يسلمون عليهم، ولا يتكلمون معهم، وكان كعب قد سأل عنهما، فعرف أنهما : مرارة بن ربيعة العامري وهلال بن أمية الواقفي، وهما من الصحابة الصالحين، إلا أنهما اعتزلا الناس في بيتيهما أما هو فكان يخرج ويخالط الناس في الأسواق وفي المسجد، لنتعرف - عبر عينيه - كيف هجره الناس جميعًا ، حتى استبد الهم والضيق به ، وتسور جدار ابن عمه أبي قتادة الذي رفض أن يتحدث معه ويجيب عن أسئلته، مكتفيا بقوله : الله ورسوله أعلم.
- نرى وحدة المجتمع المسلم في المدينة المنورة، وكيف أنهم امتثلوا لأمر الرسول بهجران الثلاثة المتخلفين عن الغزوة، حتى أقرب الأقربين منهم، أي الزوجات وأبناء العم.
- إن موقف الرسول ﷺ كان مشاركًا في حزنهم، وممتثلاً لأمر الله، فقد كان في شوق إلى كعب، فيلتفت كعب إليه في الصلاة ، فيجد الرسول ﷺ منصرفًا عنه ، فإذا كان في صلاته ، يجد الرسول ﷺ ملتفتًا إليه.
- إن موقف الرسول ﷺ مع الثلاثة مختلفًا عن بقية المتخلفين المعتذرين، فلم يعاملهم بنفس المعاملة ، وإنما عامل النفر الثلاثة لأنهم من الصالحين الأبرار ، ولا ينبغي لمثل هؤلاء أن يضعفوا أمام الدنيا والنفس.
- إن الخبر وصل إلى خارج المدينة المنورة ، فيرسل إليه ملك غسّان ، يطلب منه الحضور كي يناصره ويواسيه ، فكان كعب واعيا ، فرمى الرسالة في التنور ، مدركا أنها علامات الأزمة والامتحان بالنسبة إليه.
- إن الدنيا ضاقت بالنفر الثلاثة على رحابتها ، لأنهم صادقو الإيمان ، ومشتاقون إلى رحاب الرسول ﷺ، وإلى العلاقة الحميمة مع الصف المسلم في المدينة المنورة، وهذا دال على ترابط المسلمين ، وهم يتنعمون بتوجيهات رسولهم ، وتأديبه إياهم ، فباتت الدنيا لا تساوي شيئًا عند النفر الثلاثة أمام غضب الرسول منهم، ومخاصمة أهل المدينة لهم.

---

٢١٨) صحيح مسلم، ص١١٠٩.

ويكمل كعب لنرى كيف جاء الفرج/ الحل الرباني، فيقول :

"قال: ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله منا قد ضاقت عليَّ نفسي وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت ؛ سمعت صوت صارخ أوفى على سلع يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر. قال : فخررت ساجدًا وعرفت أن قد جاء فرج. قال : فآذن رسول الله ﷺ الناس بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، فذهب قبل صاحبي مبشرون ، وركض رجل إلي فرسا وسعى ساع من أسلم قبلي وأوفى الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوته إياهما ببشارته ، والله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما فانطلقت أتأمم رسول الله ﷺ ؛ فتلقاني الناس فوجًا فوجًا يهنئونني بالتوبة ويقولون : لتهنئك توبة الله عليك ، حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد وحوله الناس فقام طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني والله ما قام رجل من المهاجرين غيره. قال : فكان كعب لا ينساها لطلحة.
قال كعب : فلمَّا سلَّمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور ويقول : أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك. قال : فقلت أمن عند الله يا رسول الله أم من عندك ؟ قال : لا بل من عند الله. وكان رسول الله ﷺ إذا سرَّ استنار وجهه حتى كأن وجهه قطعة قمر. قال : وكنا نعرف ذلك. قال : فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ، إن من توبة الله علي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، فقال رسول الله ﷺ: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك. قال: فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر. قال : وقلت: يا رسول الله ، إن الله إنما أنجاني بالصدق ، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقًا ما بقيت. قال: فوالله ما علمت أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا أحسن مما أبلاني الله به ، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا وإني لأرجو الله أن يحفظني فيما بقي [٢١٩]".

أمام بُشرى الفرج والحل، نلاحظ جوانب عدة :

فكثير من المسلمين فرحوا بعودتهم لأخيهم ، بنفس درجة فرحته بعودته إليهم ، فمنهم من هرول إليه ليخبره ، ومنهم من تهلل ووقف له عند دخوله للمسجد ، وكثير منهم سارعوا للتهنئة فرحين ، في دلالة على أن حزن أخيهم يحزنهم.

كما أن الرسول امتثل مثل الثلاثة بأمر الله تعالى أن يتم هجرانهم ، حتى يأتي الفرج من الله وهذا ما حدث ، وقد جاء الوصف القرآني دقيقًا ، مؤكدًا أن هذه الأزمة عظيمة بعظم جرم التخلف دون عذر عن الخروج للجهاد ، خاصة أن الغزوة كانت في قيظ الحر ، وعلى الجماعة المؤمنة ألا يتراجع أي فرد فيها ويميز نفسه عن الآخرين ، ويتقاعس خوفًا من حر أو برد أو مشقة سفر.

وقد سأل ابن عباس عمرَ بن الخطاب عن ساعة العسرة في تبوك فقال عمر : خرجنا مع رسول الله إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلاً فأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده ، فقال أبو بكر الصديق : يا رسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء فأهطلت ثم

---

٢١٩) صحيح مسلم، ص١١٠٩، ١١١٠.

سكبت فملأوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت المعسكر وقد وقع الاتفاق بين الرواة أن ساعة العسرة هي غزوة تبوك[٢٢٠]، كان الحر شديدًا ، واحتمل المسلمون هذا الحر مرضاة للرب حتى أنجاهم الرسول بدعائه.

وفي تفسير آخر لقوله :{ وعلى الثلاثة الذين خلفوا } قال : يعني خلفوا عن التوبة لم يتب عليهم حين تاب الله، لم يتب عليهم حين تاب الله على أبي لبابة وأصحابه [٢٢١] ، وهذا يعطينا مزيدًا من المعنى، فالنفر الثلاثة لم يشملهم عفو الله تعالى وتوبته مثل ما هو معروف في حادثة أبي لبابة ومن معه ، فالقضية مختلفة ، والحكم أيضًا مختلف ، وتمييز للنفر الثلاثة في العقوبة وأيضًا في الإثابة ، بتوبة الله عليهم، ونيلهم عفوه ورضاه.

أما قوله تعالى : { وظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } تأكيد على أن حل الأزمة بيد الله المولى سبحانه، في دلالة على عظم الجرم، خاصة أنه من نفر مؤمنين، وفي إشارة إلى أن الرسول ﷺ والصحابة (عليهم الرضوان) لم يمتلكوا من أمرهم ولا أمر الثلاثة شيئًا ، فكل مرهون بقدر الله، وحكمه، والكل ممتثل له.

وتظل المكافأة الكبرى لهؤلاء النفر وصبرهم على العقاب، وتحملهم ما أصابهم من هجران ؛ هي رضا الله عليهم وعفوه عنهم، ذلك العفو متأكد بلغ الغاية القصوى في الكمالِ والقوَّةِ، قال عليه الصلاة والسلام : "إنَّ اللهَ ليغفِرُ ذَنْبَ الرَّجُلِ المُسلمِ عشرينَ مرَّة " وهذا معنى قول ابنِ عبَّاس في قوله : { ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ } يريدُ ازداد عنهم رضا. قال ابنُ عبَّاس : مَنْ تاب اللهُ عليه لمْ يُعذِّبْه أبَدًا"[٢٢٢] وإن كان هناك تفسير آخر للآية، ذكره الألوسي لقوله تعالى : { ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ } أي وفقهم للتوبة {لِيَتُوبُواْ} أو أنزل قبول توبتهم في القرآن وأعلمهم بها ليعدهم المؤمنون في جملة التائبين أو رجع عليهم بالقبول والرحمة مرة بعد أخرى ليستقيموا على التوبة ويستمروا عليها، وقيل : التوبة ليست هي المقبولة، والمعنى قَبِلَ توبتهم من التخلف ليتوبوا في المستقبل إذ صدرت منهم هفوة ولا يقنطوا من كرمه سبحانه[٢٢٣]، وهذا وجه آخر في التفسير، حيث اقتصرت التوبة عن خطئهم في التخلف عن الغزوة، أما التوبة فمستمرة حسب أعمالهم في المستقبل.

وقد ظهر معدن كعب بن مالك فقد أراد التصدق بماله، فأمره الرسول أن يمسك بعض ماله، مما يدل على أن المال لا يساوي شيئًا أمام رضا الله ثم رضا رسوله الكريم، وهكذا كان خلق الصحابة عليهم الرضوان، لا يعبأون بمال ولا متاع، وإنما رضا الله هو مبتغاهم.

وأخيرًا ، تظل قيمة الصدق عظيمة ، لأنها أنجت الثلاثة ، وجعلت المولى تعالى يشملهم بتوبته ورحمته، وأنزل من فوق سبع سموات ما يشرح صدورهم.

---

٢٢٠) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الإمام الشوكاني، ج٢، ص٦٠٠.

٢٢١) السابق، ج٢، ص٦٠٠.

٢٢٢) تفسير اللباب في علوم الكتاب، ج٨، ص٣٩٠.

٢٢٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود ابن عبدالله الحسيني الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت، ج٧، ص٣٩٤

ويمكن قراءة هذه الأزمة من أوجه عدة :

إنها ليست أزمة فردية كما بدا لنا، وإن أزمة فئة من الجماعة المؤمنة، قد يزيد عددهم أو يقل في أي وقت، ولكنه وارد، فإذا كان قد حدث في عهد الرسول ﷺ والصحابة الأبرار، الذين هم خير القرون، فما بالنا بزماننا والأزمنة القادمة، مع أجيال مختلفة في التزامها.

كذلك فإن ما ورد في كتب التفاسير والأحاديث الشريفة، كان في جلّه من سرد "كعب بن مالك"، لنعرف عمق الأزمة في بعدها الفردي، وكيف تعامل الرسول وصحابته مع النفر الثلاثة، وهذا أعطانا إضاءات واسعة على العلاقة بين الرسول والصحابة، فردًا فردًا، وبين الصحابة بعضهم البعض فقد "فرح المسلمون، وفرح الثلاثة فرحًا لا يقاس مداه ولا غايته، فبشروا وأبشروا واستبشروا وأجازوا وتصدقوا وكان أسعد يوم من أيام حياتهم" [٢٢٤].

في نفس الوقت كانت هناك فئة في المدينة المنورة، لم يخرجوا للجهاد لعذر، وهؤلاء يمثلون النقيض من النفر الثلاثة المتخلفين وأصحاب الأعذار الكاذبين، وقد نعتهم القرآن الكريم { لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [٢٢٥]، وهؤلاء امتدحهم الرسول ﷺ بقوله حين دنا من المدينة عائدا من غزوة تبوك : "إن بالمدينة رجالاً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم، حبسهم العذر. قالوا : يا رسول الله، وهم بالمدينة ؟ قال : وهم بالمدينة" [٢٢٦]، فأعمالهم الصالحة، وصدق نياتهم، أبلغتهم هذه الدرجة.

فالمستفاد من الأزمة في جوهره هو عدم التخلف عن الزحف، مادام المرء قادرا وليس لديه عذر، فهو أمر كارثي، ويعد خيانة لله ولرسوله وللأمة والأمانة. وكذلك ضرورة امتثال المجتمع المسلم لأوامر الله ورسوله، وأيضًا ولي الأمر، وتنحية القرابة والعلاقات الشخصية في أمور الدين والشريعة والأمة.

---

٢٢٤) الرحيق المختوم، ص٤٠٢.

٢٢٥) سورة التوبة، الآية(٩١)

٢٢٦) الرحيق المختوم، ص٤٠٢

٧) في مواجهة تقاليد المجتمع (أزمة زيد وزينب)

{ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً } [٢٢٧]

ليست هذه أزمة واحدة، بل أزمتان، أزمة تخص علاقة الرسول ﷺ بزيد بن حارثة، وعلاقته بالسيدة زينب بنت جحش ابنة عمته.

فأما الأزمة الأولى فهي أزمة زيد بن حارثة ذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبنّاه، وجاء في تفسير قوله تعالى { لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ }، أي : أنعم الله عليه بالإسلام، ومتابعة الرسول، عليه أفضل الصلاة والسلام، {وَأَنْعَمْتَ عَلَيْه} أي أنعم الرسول عليه بالعتق من الرق، وروي أن عمه لقيه يوم ا وكان قد ورد مكة في شغل له، فقال: ما اسمك يا غلام ؟ قال : زيد، قال : ابن من ؟ قال : ابن حارثة. قال ابن من ؟ قال : ابن شراحيل الكلبي. قال: فما اسم أمك ؟ قال : سعدى، وكنت في أخوالي طي، فضمه إلى صدره. وأرسل إلى أخيه وقومه فحضروا، وأرادوا منه أن يقيم معهم، فقالوا : لمن أنت ؟ قال : لمحمد بن عبد الله، فأتوه وقالوا : هذا ابننا فرده علينا. فقال : اعرض عليه، فإن اختاركم فخذوا بيده فبعث إلى زيد وقال : هل تعرف هؤلاء ؟ قال : نعم هذا أبي، وهذا أخي، وهذا عمي. فقال له النبي ﷺ: فأي صاحب كنت لك ؟ فبكى وقال : لم سألتني عن ذلك ؟ قال : أخيرك، فإن أحببت أن تلحق بهم فالحق وإن أردت أن تقيم فأنا من قد عرفت فقال : ما أختار عليك أحدا. فجذبه عمه وقال: يا زيد، اخترت العبودية على أبيك وعمك ! فقال : أي والله العبودية عند محمد أحب إلي من أن أكون عندكم. فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا أني وارث وموروث. فلم يزل يقال: زيد بن محمد إلى أن قطع الله هذه النسبة[٢٢٨] بقوله { وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ }[٢٢٩] وكان زيد حبيبًا إلى النبي ﷺ، يقال له : الحِب، ويقال لابنه أسامة :الحِب ابن الحِب[٢٣٠]. وقد زوجه الرسول ﷺ من ابنة عمته السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها، إلا أن الزواج لم يستمر لخلافات بين زينب وزيد، ، ويشكو منها غلظة قول وعصيان أمر، وأذى باللسان وتعظّما بالشرف، وأخبره زيد بأنه يريد فراقها، وكان الرسول ﷺ يطلب منه أن يمسك عليه زوجته، إلا أنه لم يعد قادرا، فطلقها [٢٣١]، وأباح الله لرسوله تزوجها لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأدعياء ثم زاد ذلك بيانا وتأكيدا بوقوع تزويج رسول الله ﷺ

---

٢٢٧) سورة الأحزاب، الآيتان (٣٧، ٣٨).

٢٢٨) تفسير البحر المحيط، ج٧، ص٢٣٤

٢٢٩) سورة الأحزاب، الآية(٤)

٢٣٠) تفسير ابن كثير، ج٦، ٤٢٤.

٢٣١) تفسير القرطبي، ج١٤، ص١٧٢

بزينب بنت جحش لما طلقها عملا بقوله تعالى : { وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ } [٢٣٢]ليحترز من الابن الدعي؛ فإن ذلك كان كثيراً في الجاهلية [٢٣٣].

كانت أزمة زيد مع زينب في استعلائها عليه بنسبها، وعدم التوافق بينهما، وشكوى زيد منها إلى الرسول ﷺ، فكان يتوسط بينهما، وينصحهما، إلا أن العلاقة تعود للتأزم بينهما. ونلاحظ هنا غياب الحب بينهما كزوجين.

لقد جاء زواج زيد من زينب، بعد تحريم التبني بمفهومه الجاهلي، وعودة اسمه إلى أبيه ليكون زيد بن حارثة بدلا من زيد بن محمد، ومن ثم يزوجه بزينب ابنة عمته، تكريما له، وقد كان مقربا من قلبه.

أما الأزمة الثانية ، فهي في علاقة الرسول ﷺ بزينب بنت جحش ، وكان النبي ﷺ قد وقع منه استحسان لزينب بنت جحش ، وهي في عصمة زيد، وكان حريصًا على أن يطلقها زيد فيتزوجها هو ؛ ثم قال له : اتق الله - أي فيما تقول عنها - وأمسك عليك زوجك وهو يخفي الحرص على طلاق زيد إياها. وهذا الذي كان يخفي في نفسه، ولكنه لزم ما يجب من الأمر بالمعروف، وكان الرسول عليه السلام، قد أتى زيدا يوما يطلبه، فأبصر زينب قائمة، كانت بيضاء جميلة جسيمة من أتم نساء قريش، فهويها وقال : سبحان الله مقلب القلوب !فسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد، ففطن زيد فقال : يا رسول الله ائذن لي في طلاقها، فإن فيها كبرا، تعظم علي وتؤذيني بلسانها، فقال عليه السلام : أمسك عليك زوجك واتق الله. وقيل : إن الله بعث ريحا فرفعت الستر وزينب متفضلة في منزلها، فرأى زينب فوقعت في نفسه، ووقع في نفس زينب أنها وقعت في نفس النبي ﷺ وذلك لما جاء يطلب زيدًا، فجاء زيد فأخبرته بذلك، فوقع في نفس زيد أن يطلقها" [٢٣٤].

كلتا الأزمتين مترابطتان، فالرسول ﷺ زوَّج زيدًا من زينب، وفي نفس الوقت وقع هوى زينب في نفسه، وكان هذا ترتيبًا ربانيًا، كي يتم محو أحد تقاليد الجاهلية في منع زواج زوجات الأبناء بالتبني ، وكان الاختبار واقعًا على الرسول ﷺ نفسه، الذي وقع في هوى زينب وهذا ما تحسّب له، لذا كان يأمر زيدًا أن يمسك عليه زوجته مقاومًا رغبته في ذلك.

لذا، كان ينصح زيدًا قائلاً : " اتق الله في قولك وأمسك عليك زوجك وهو يعلم أنه سيفارقها ويتزوجها، وهذا هو الذي أخفى في نفسه، ولم يرد أن يأمره بالطلاق لما علم أنه سيتزوجها، وخشي رسول الله ﷺ أن يلحقه قول من الناس في أن يتزوج زينب بعد زيد، وهو مولاه، وقد أمره بطلاقها، فعاتبه الله تعالى على هذا القدر من أن خشي الناس في شيء قد أباحه الله له، والله أحق أن يخشاه في كل الأحوال " [٢٣٥].

فلما طلقها زيد، جاء حل الأزمة، بتزويج الله سبحانه تعالى لنبيه الكريم { فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا }، وقد وكّلت " زينب " أمرها إلى الله وصح تفويضها إليه تولى الله إنكاحها، ولما

---

٢٣٢) سورة النساء، الآية (٢٣)

٢٣٣) تفسير ابن كثير، ج٦، ٤٢٦

٢٣٤) تفسير القرطبي، ج١٤، ص١٧٢.

٢٣٥) السابق، ج١٤، ص١٧٣.

أعلمه الله بذلك دخل عليها بغير إذن، ولا تجديد عقد ولا تقرير صداق، ولا شيء مما يكون شرطا في حقوقنا ومشروعا لنا. وهذا من خصوصياته ﷺ التي لا يشاركه فيها أحد بإجماع من المسلمين. ولهذا كانت زينب تفاخر نساء النبي ﷺ وتقول : زوَّجكن آباؤكن وزوَّجني الله تعالى وفي رواية أخرى : كانت تفاخرهن قائلة : إن الله عز وجل أنكحني من السماء [٢٣٦]وتزوجها رسول الله ﷺ ، بعد انقضاء عدتها. وعلل تزويجه إياها بقوله : لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أن يتزوجوا زوجات من كانوا تبنوه إذا فارقوهن، وأن هؤلاء الزوجات ليست داخلات فيما حرم الله تعالى[٢٣٧].

هذه الأزمة تختلف عن أزمات سابقة، لكونها تتعلق بالرسول نفسه، فيمكن قراءتها على أبعاد عديدة :

- ارتباط زيد بالرسول ﷺ كابن له بالتبني، وعندما تم تحريم التبني، عاد زيد إلى اسم أبيه الأصلي.
- تزويج الرسول ﷺ زيدًا من زينب، وهي على صلة قرابة عالية منه.
- رغبة الرسول ﷺ في زينب، وكتمانه هذا الأمر عن زيد.
- تخوف الرسول ﷺ من تعليقات الناس، إذا تزوج من زينب بعد طلاقها وعدتها، أن يقولوا تزوج من زوجة ابنه بالتبني على عادة الجاهلية في رفض هذا، ذلك أن "نظام التبني كانت له آثار واقعية في حياة الجماعة العربية؛ ولم يكن إبطال هذه الآثار الواقعية في حياة المجتمع ليمضي بالسهولة التي يمضي بها إبطال تقليد التبني ذاته فالتقاليد الاجتماعية أعمق أثرًا في النفوس، ولا بد من سوابق عملية مضادة، ولا بد أن تُستقبل هذه السوابق أول أمرها بالاستنكار؛ وأن تكون شديدة الوقع على الكثيرين"[٢٣٨]

فشاءت إرادة الله جل شأنه إلغاء نظام التبني، بسبب تداعياته الخطيرة على المجتمع، لأنه يعطي نسبا لمن لا يستحق، ويبني عليه أحكاما لا تستقيم، فالمتُبَنى يرث في ثروة من تبناه، ويأخذ لنفسه أحكام من له رابطة الدم.

واتخذت الأزمة أسبابًا نفسية، لدى الأطراف الثلاثة : زيد يعاني من عدم قبول زينب له، وزينب تعاني من عدم توافقها مع زيد، والرسول يعاني من حبه لزينب، ومن نظرات المجتمع ولا يزال حديث عهد بالجاهلية.

---

٢٣٦) السابق، ج١٤، ١٧٣.

٢٣٧) تفسير البحر المحيط، ج٧، ص٢٣٤.

٢٣٨) في ظلال القرآن، ج٦، ص٨٧.

إن إبطال نظام التبني في الإسلام جاء لحكم عظيمة [٢٣٩] :

ذلك أن روابط الأسرة الصغيرة في الإسلام من الأبوين والأولاد تعتمد على رابطة الدم الواحد والأصل المشترك، وهي رابطة أو علاقة "الرحم المحرم" لذا حرَّم الإسلام التزاوج بين الأقارب المحارم حفاظًا على سمو العلاقة وقطع الأطماع في علاقة زوجية تقوم أساسًا على الاستمتاع الجسدي وإفراغ الشهوة، وتبادل المصالح المادية أو الإنسانية، وقد تؤدي هذه المصالح إلى تصادم في الرغبات.

فالإسلام يقوم في جميع علاقاته الاجتماعية على أساس من الحق والعدل ورعاية الحقيقة، وهذا يقتضي نسبة الولد إلى أبيه الحقيقي، لا لأبيه المزعوم أو المزوَّر، والحق واجب الاتباع، والنسب حق [٢٤٠]، بل هو من أهم الحقوق للإنسان، فكما أن الأب له الحق في نسبة أبنائه إليه، فإن الابن له الحق في معرفة نسبه الحقيقي.

وكم رأينا في دول العالم المختلفة من قصص وحكايات، عندما تم العصف بمنظومة النسب، لشيوع العلاقات غير الشرعية، وخارج إطار الزواج، ونسب الولد لغير أبيه، وإلحاق الأم ابنها لاسم عائلتها، وهي تعلم والده الذي عاشرها، فنشأت أجيال لا تعرف آباءهم الحقيقيين، وبعضهم تزوج من أخته أو ابنته وهو لا يدري. وهذا سبب لأزمات لا آخر لها في المجتمع، تبدأ بفوضى النسب، وتنتهي بميراث من لا يستحق، وبينهما سقوط قيم وأخلاق عظيمة، وحدوث علاقات محرمة، واحتقار الأبناء لآبائهم المزعومين، وكراهيتهم لآبائهم الحقيقيين المتخلين عنهم.

إن نظام الإرث في الإسلام مقصور على ذوي القربى، لا البعيدة نسبيًا، ومن باب أولى حال عدم وجود القرابة، والولد المتبنَّى ليس له أية قرابة بالأسرة الصغرى، فكيف يحق له أن يرث فيما لو أجيز نظام التبني؟ إن صون حقوق الأقارب الورثة هو الواجب المتعين، فلابد من الحفاظ على حقوقهم من الضياع أو الانتقاص فيما لو تسرب جزء من التركة أو قُرِّر لغيرهم من الأجانب عن الأسرة الصغيرة حق في الميراث[٢٤١].

والمعلوم أن نظام الإرث في الإسلام يحقق الكثير من المنافع، لأنه قائم على تفتيت الثروة، على مستحقي الميراث الشرعي، وهو في حكمته يستند إلى توزيع الإرث على قاعدة صلة الدم للأكثر قربا لصاحب الإرث، فلا مكان للمتبنى في هذا الأمر، ولكن ليحتفظ بنسبه الحقيقي، ويمكن للمورِّث أن يوصي له بما شاء.

أما مسألة التبني بما كانت عليه في الجاهلية، أو في العالم الغربي الآن، والمعتمدة على نسب مزعوم أو شهادة باللسان دون توثيق زواج وعلاقة فراشة شرعية، فلا أساس لها من شرع أو منطق أو

---

٢٣٩) الحكمة في إبطال التبني في الإسلام، د. وهبة الزحيلي، بتصرف وإضافة وشرح من جانبنا، دراسة على موقع : http://www.onislam.net، والرابط :
http://www.onislam.net/arabic/ask-the-scholar/8255/8387/50126-2004-08-01%2017-37-04.html

٢٤٠) المرجع السابق.

٢٤١) الحكمة في إبطال التبني في الإسلام، مرجع سابق.

حكمة ثابتة، وحينئذ لا تكون نسبة الولد إلى غير أبيه الصحيح نسبة صحيحة، وإنما هي مزورة، ولا تكون زوجة الولد المتبنى إذا طلقها مثلاً حرامًا على الوالد المتبني. والواجب دعوة الولد لأبيه الحقيقي صاحب الحق في النسب، لا من طرق التبني[٢٤٢].

ومن هنا تعاد حقوق ضائعة في علاقات المصاهرة، وتصاغ المنظومة الاجتماعية على أسس واضحة أساسها نسب الدم وليس نسب الادعاء والإلحاق، ولا يتطلع الوالد إلى ولد آخر يراه أكثر قوة ووسامة وظرفا من ابنه، فيلحقه به وقد يفضله على ابنه الحقيقي، مما يترتب عليه آثار نفسية عديدة.

وبالنظر إلى الولد المتبنى فهو غريب عن الأسرة الصغيرة المتبنية له، ذكرًا كان أو أنثى، فلا ينسجم معها في خلق ولا دين، فإذا كان الولد أنثى، اطلع الرجل على جسدها، وهذا ممنوع شرعًا، وربما تورط في الاتصال الجنسي بها ؛ لأنه في قرارة نفسه يعتقد أنها غريبة أو أجنبية عنه، وإذا كان الولد ذكرًا ربما اعتدى على زوجة الرجل المتبني، أو على ابنته أو أخته، لأنه لابد من أن يعرف يومًا ما أنه غريب عن هذه الأسرة [٢٤٣].

وهناك حقيقة لن يتم كتمانها كثيراً وهي معرفة المتبنى أنه ليس ابنا حقيقيا للأسرة، وسيعلمها إن عاجلا أو آجلا بها، مما يشعره أنه أقل من باقي الأبناء وأعضاء الأسرة الذين يحملون صلة الدم، أو يشعره بالغربة والنبذ عنهم، وفي المقابل ينظرون إليه نظرة غير مناسبة، بوصفه دخيلا عليهم، وسيأخذ من حقوقهم المشروعة ما لا يستحق.

كذلك، فإن التبني يكون ظلمًا للوالد الحقيقي وإهدارًا لمعنوياته ومساسًا بكرامته وحقوقه، في حالة معرفة كينونته، فهو يرى ابنه مع أب غيره، ويدعى بغير اسمه [٢٤٤]، ويترتب على هذا الكثير من الآثار النفسية المدمرة، لأب افتقد فلذة كبده، تحت داع من فقر أو حرب أو أسر أو خطف... إلخ، وفي هذا مندوحة لأن يطمئن كل أب إلى حفظ اسمه مع أبنائه، ولو انتقلوا - عند وفاته أو اعتقاله - إلى رعاية مؤسسات الدولة للأيتام، أو عند كفالة هؤلاء الأطفال من قبل موسرين، فالنسب موجود، والحقوق محفوظة، وقد يعود الابن لأبيه بحال أفضل، ونسب أبقى.

أمر آخر يضاف وهو التجانس الاجتماعي في العادات والتقاليد بين أفراد الأسرة الواحدة أساس في استقرار الأسرة، وطمأنينتها، وتبادل عاطفة المحبة السامية غير النفعية فيما بين الكبار والصغار فيها

---

٢٤٢) المرجع السابق، ويضيف د. الزحيلي : ظل العمل بالتبني بين العرب في الجاهلية بعد ظهور الإسلام الذي لم تتقرر فيه أحكام التشريع الإلهية دفعة واحدة، وإنما على منهج التدرّج والتربية شيئًا فشيئًا، فكان العربي في تلك الفترة الجاهلية إذا أعجبه من الفتى قوته ووسامته (أو جَلَده وظَرْفه) ضمه إلى نفسه، وجعل له نصيب أحد من أولاده في الميراث، وكان ينسب إليه، فيقال: فلان بن فلان .

٢٤٣) الحكمة في إبطال التبني في الإسلام، مرجع سابق.

٢٤٤) الحكمة في إبطال التبني في الإسلام، وهذا مصداق لقوله تعالى الذي أمر الناس بمنع التبني {ادْعُوهُمْ لآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً} [الأحزاب: آية ٥]

، وهو ما يفتقده الولد المتبنى، ويعده البعض دخيلا على الأسرة. ويرتبط بهذا التجانس ما يسمى التناغم الثقافي والمعرفي الممتد تلقائيًا في أجواء الأسرة الواحدة ذات الصلة المبنية على الدم، مما يساهم مساهمة فعالة في تماسك البنية المعرفية للثقافة الواحدة، والانتماء العقدي، وتطبيق شرعة الدين الواحد للأسرة، ومعطياتها المتنوعة من موروثات عريقة قادرة على مواكبة العصر، واستمرار الحياة الآمنة المطمئنة، في إطار من الحفاظ على خصوصية الهوية وتفرد شعار ورموز الشخصية الذاتية.

فالسؤال ماذا لو كان الابن المتبنى من ديانة أخرى ؟ أو من ثقافة مختلفة ؟ أو شريحة اجتماعية أو جنسية أخرى ؟ هل سيتم استيعابه بسهولة في الأسرة الصغيرة ؟ وهل سيتحقق الاندماج بينه وبين أعضائها.

إن مقومات فلسفة الأسرة في الإسلام تختلف عن غيرها من الأسر التي لا تأبه عادة بالأخلاق والقيم ، ورعاية مقررات الحلال والحرام، والحفاظ على العرض، وخلق الحياء، ونقاء الأصل والفرع، ووحدة الأصل والدم. وهذا يتنافى مع نظام التبني الذي يعكّر صفو كل هذه المعاني، مما يجعل التبني مفسدة اجتماعية، وفي غير مصلحة الإنسان نفسه، سواء المتبني أو المتبنَّى، فنظرة الإسلام شاملة متكاملة، تأخذ في الحسبان جميع أعضاء الأسرة والحقوق والآثار المترتبة على التبني، ولا تنظر من زاوية واحدة فقط خاصة بالطفل المتبنى أو أبيه.

صحيح أن ظروف اللقيط أو مجهول النسب أو المتشرد قد تستدعي من الناحية الإنسانية ضرورة الحفاظ على وجوده، ومعاملته معاملة كريمة تقوم على الود والرحمة، وحفظ أخ في الإنسانية من الضياع. وهذه الملحظ سليم نقرّه ولا نتصادم معه، بل يجب التوصل إلى حلّ عاجل له [٢٤٥]. والحل لن يأتي عبر تبني المنظومة الجاهلية في التبني، والتي تسير عليها مجتمعات ودول عديدة إلى يومنا، وإنما يتم في المجتمع المسلم من طريق آخر، وهو التربية والمعاونة لحاجة من ليس له عائل أو مربّ يربيه، ويصونه ويحفظه من عاديات الزمان، ويحميه من ألم الفقر والحاجة، عبر رعايته له، وهو مقر أنه ليس بابنه، أو وجود مؤسسات ترعى الأيتام واللقطاء، وتسعى إلى إدماجهم في المجتمع.

وبالعودة إلى أزمة زيد وزينب رضي الله عنهما، نجد أن الحل جاء ربانيا، وكان لابد من مواجهة هذه المنظومة الخطأ في مجملها، وإعادة الاعتبار للحمة الدم، فكانت الأزمة التي مرَّ بها الأطراف ثلاثة، أولهم الرسول ﷺ، ورأينا فيه الجانب البشري في حُبه لكل من زيد وزينب، ثم امتثاله للأمر الإلهي، بزواجه من زينب، ليكون قدوة للناس جميعًا ، وماحيا للإرث الجاهلي الذي صار تقليدًا اجتماعيًا، وفي حالة مخالفته سيكون له آثاره النفسية.

فـ "شاء الله أن يحمل نبيه بعد ذلك فيما يحمل من أعباء الرسالة مؤنة إزالة آثار نظام التبني؛ فيتزوج من مطلقة متبناه زيد بن حارثة. ويواجه المجتمع بهذا العمل، الذي لا يستطيع أحد أن يواجه المجتمع به، على الرغم من إبطال عادة التبني في ذاتها!. وألهم الله نبيه ﷺ أن زيدًا سيطلّق زينب؛ وأنه هو سيتزوجها، للحكمة التي قضى الله بها، وكانت العلاقات بين زيد وزينب قد اضطربت، وعادت توحي بأن حياتهما لن تستقيم طويلاً " [٢٤٦].

---

٢٤٥) الحكمة في إبطال التبني في الإسلام، مرجع سابق.

٢٤٦) في ظلال القرآن، ج٦، ص٨٧.

ولنخرج بدروس مستفادة من هذه الأزمة تتمثل في :

- تقديم الأمر الإلهي على الرغبات البشرية، مهمًا تكلف الأمر، وترتبت العواقب.
- على القائد والداعية والمسؤول مواجهة الإرث الاجتماعي، بما فيه من تقاليد بالية، متحملا التكلفة النفسية والاجتماعية المترتبة على هذه المواجهة، ولو تطلب الأمر أن يكون هو في الطليعة والقدوة في الفعل.
- إن هناك من التقاليد المجتمعية ما يحتاج إلى تدرج في المواجهة بسبب تجذره من ناحية، وأهمية إقناع الناس بالحكم الشرعي من ناحية أخرى، وبعض هذه التقاليد والعادات تستلزم المواجهة العاجلة والصريحة.
- في العودة إلى الأحكام الشرعية منجاة للمجتمع، وفي تضييعها ضياع للمجتمع، وهذه رسالة لكل من بيده الأمر والتخطيط، الذي قد يستورد حلولا أجنبية، من ثقافات أخرى، قد يعاندها الناس ويتَحدّونها. أما إذا كان المخطط والمسؤول عن التنفيذ محتميا بالمرجعية الإسلامية الصحيحة، فهو يمارس دعوة للخير، ويحتكم للشريعة، فلن يتحداه إلا ذو مأرب ونفع دنيوي.
- حرص الإسلام على سنّ منظومة اجتماعية جديدة، تقر ما درج عليه المجتمع الجاهلي إذا كان يتفق معها، وتحرّم أشكالا عديدة في علاقات المصاهرة والنسب والأخلاق، على أسس واضحة، تنطلق من رؤية شاملة لحاجات الفرد والأسرة والمجتمع، ولا تنحصر في مشاعر فردية ضيقة، تفيد البعض، وتضر الآخرين.

وفي ختام هذا الباب، يمكن أن نخلص بدروس عدة :

- يظل القرآن الكريم مرجعية لأمة المسلمين، في كل قضية وأزمة وتصرف وتوجه، ولا بد أن ننطلق منه، ونعود إليه، كلما هم لنا مشكل جديد، أو استحدث علم أو جدّت قضية.

- إن الهدي القرآني يحتاج إلى دراسة وتمحص وتأمل واستفادة واستزادة من رياحينه، لكل من رام مواجهة الأزمات المختلفة في حياتنا، ومثلما اهتدى به الرسول ﷺ وصحابته الأبرار رضي الله عنهم، في مختلف الخطوب التي مروا بها، فيجب على الخلف أن يستظلوا بالقرآن، مثل السلف.

- إن التوجيهات الربانية في القرآن الكريم تؤكد المرامي العليا للشريعة الإسلامية والحاجات النفسية والاجتماعية للناس.

- بالنظر إلى الأزمات المشار إليها في القرآن الكريم، (وقد أشير لبعضها في الفصل الأول) فإنها قد جاءت متنوعة في مسبباتها، ومتنوعة في نتائجها، ومتنوعة في إرشاداتها، مثلما تعددت سبل علاجها، وأنها لم تجعل مفهوم الأزمة مقتصرا على الأزمة الجماعية، فهناك أزمات فردية، وأزمات لجماعة من البشر، وأزمات للمجتمع، وهذا يعني أن الأزمة الفردية قد تمتد لتصبح جماعية، وأن الأزمة الجماعية لها آثارها الفردية، وما يجمع تلك الأزمات هو البعد عن النهج الرباني، والاتجاه إلى الدنيا.

- إن الأزمات التي عرضت في الفصل الثاني، وتناولت جوانب من المشكلات التي واجهت الرسول ﷺ، وكان الإرشاد الرباني لرسوله الكريم، كانت متنوعة ما بين الشخصي للرسول ﷺ وأهل بيته مثل : حادثة الإفك، وقصة زينب بنت جحش رضي الله عنها، ومنها ما خص أشخاصا من الصحابة بعينهم

مثل الثلاثة الذين خُلّفوا، وزيد بن حارثة، والمجادِلة، ومنها ما خص المتآمرين على الجماعة المؤمنة ولو كانوا من المنافقين مثل أزمة مسجد الضرار، ومنها أزمة الجماعة المؤمنة جميعها مثل غزوة حنين. فهي متنوعة في الأشخاص والأحداث والوقائع والأزمنة والأمكنة.

- جاء الإرشاد الرباني للحل مؤكدًا عناية الله السامية، بالفردي والجماعي، بما يخص نفسية الفرد، وتماسك الأسرة الصغيرة، ووحدة المجتمع الكبير.

- بالنظر إلى توقيتات الحل الرباني، فبعضها جاء في ساعته كما في الإجابة عن شكوى المجادِلة، وكذلك في غزوة حنين، وقد يتأخر بعض الوقت تأديبا للنفوس وإظهارا لمواقف البعض، مثل أزمة مسجد الضرار، وقد يتأخر بعض الوقت ؛ إلى خمسين يوما مثلا مثل أزمة الثلاثة الذين خلفوا، وأزمة زيد وزينب.

- إن الرسول ﷺ ضرب أروع المثل في الامتثال للأوامر الربانية، فيصدع

بها من ساعته، ويعلن التزامه بما فيها، وإن خالفت رغبته كما في أزمة أسرى بدر.

وفي الباب الثاني، سنقف على المزيد من الهدي النبوي الشريف المستظل بالإرشاد القرآني، عبر الوقوف على ملامح من شخصية الرسول ﷺ ومواقف من حياته قبل البعثة وبعدها، وتوجيهاته السامية ﷺ.

الباب الثاني

إدارة الأزمة في ضوء سُنة النبي ﷺ

يتناول هذا الباب دراسة إدارة الأزمات في السنة النبوية المطهرة، وهو ما يعَدّ هدفًا تاليًا في دراستنا، فالسنة النبوية المطهرة هي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي، بعد المصدر الأول وهو القرآن الكريم، وهي المفسِّرة والموضحة والشارحة والمطبقة لما جاء في أحكام القرآن الكريم، فالقرآن الكريم يضع القواعد والمبادئ الأساسية والخطوط العامة، ويترك للرسول ﷺ تطبيقها وشرحها وتفسيرها، وعلى المسلمين أن يدرسوا ما جاء في القرآن، وكيف طبقته السنة النبوية المشرفة، في ضوء الإرشادات القرآنية ؛ مع الأخذ في الحسبان أن هناك وقائع محددة نزلت فيها آيات قرآنية واضحة ومرتبطة بها، وفي نفس الوقت تسنّ أحكاما ثابتة للوقائع المذكورة، مثل حادثة الإفك، وقضية الظهار.

وهذا ما سارت عليه دراستنا، بالبدء بعرض المبادئ العامة التي تؤسس للرؤية الإسلامية لعلم إدارة الأزمات، ومن ثم قرأنا بعض الأزمات التي اعترت المجتمع المسلم في العهد النبوي، في ضوء هذه الرؤية، وفي ضوء التوجيهات القرآنية المباشرة في حل الأزمة.

وفي هذا الباب، سنتناول السنة النبوية المطهرة، حيث سيتبع الباحث نهجا قائما على التدرج في العرض بدءا من الوقوف عند شخصية الرسول ﷺ وتحليل سماتها وخصائصها، ومن ثم تناول رؤية الرسول ﷺ لإدارة الأزمات، وإرشاداته في ذلك، وأيضًا التعرض لبعض الأزمات التي أشار إليها الرسول ﷺ كقصص عرضها، وأيضًا كأحداث واجهها الرسول ﷺ في حياته أو واجهها صحابته الأبرار.

فإذا كان القرآن الكريم اشتمل على توجيهات سامية جمعت بين العموم والخصوص، وفيه قصص تشكل أمثلة متنوعة على أزمات كثيرة، وسبل حلّها، وأيضًا فيه حلول لأزمات واجهت الرسول والمجتمع المسلم ؛ كذلك جاءت سُنة الرسول ﷺ فيها التوجيهات النظرية العامة الهادفة إلى توعية المسلمين وقت الأزمات، كذلك فيها من المواقف والأزمات التي تعامل معها الرسول ﷺ بروح القرآن، وأيضًا حكى لصحابته الكثير من قصص الأمم السابقة، والتي تحوي الكثير من القيم المستفادة والبنّاءة.

ولاشك أن منهج العرض سينطلق من مفاهيم إدارة الأزمة ،وآلياتها، مستهدفا الاستفادة من النهج النبوي الشريف، لتكون الرؤية الإسلامية موثقة بالقرآن الكريم وما جاء في السنة النبوية المطهرة، فكلاهما جناحا الشريعة، وعلى هديهما يتم التأصيل المراد.

الفصل الأول

شخصية الرسول ﷺ
نموذج في القيادة وإدارة الأزمة

عندما نتناول هدي الرسول ﷺ في الأزمات والمشكلات التي مرّت به، وبصحابته الكرام، فإن هذا يستلزم منا وقفة حول شخصيته العظيمة، التي أدبها الله فأحسن تأديبها، ورعاها حق الرعاية، حتى استوت فبعث صاحبها بالرسالة السامية الخالدة، رسالة الإسلام، ونصها المقدس، ألا وهو القرآن. كان الرسول في شخصه وسمته مختلفًا عن سائر الناس، حكيمًا فوق الحكماء، فصيحًا فوق البلغاء، عاقلاً يفوق ذوي الأفهام، عالمًا ببواطن الأمور، دارسًا لظواهرها، متتبعًا خيوطها وعواقبها.

وقبيل دراسة الهدي النبوي والأحاديث الشريفة ذات الصلة بقضايا الأزمات، يجدر بنا التوقف عند شخصية الرسول ﷺ، من أبعاد عديدة، كلها تصب في تكوينه وسماته ونهجه ورؤيته في الحياة، وكيف تعامل مع الناس، ومع أصحاب الحاجات البسيطة، والمشكلات الكبيرة بهذه الخصال الرفيعة.

الرسول ﷺ نموذج عالي السموِّ لكل البشر :

ففي شخصيته سمات الرسالة والنبوة، القيادة والمسؤولية، الإرشاد والتوجيه، العلم والحكمة، الدرس والرفعة. وسنتناول جوانب من شخصيته العظيمة وسلوكه مع الناس، في تجاوبه ﷺ مع حاجاتهم، وتواصله مع مشكلاتهم وأزماتهم واستفساراتهم في الدين والحياة.

فقد كان ﷺ مضرب الأمثال في الخلق، وهذا كله من أخص مميزات النبوة، فقلّ من الناس العاديين مَن يبلغ المثل الأعلى منهم في خصلتين أو ثلاث، أما بلوغ هذه الدرجة السامية في جميعها فهو مما لم يُشاهد في واحد من جميع أفراد البشر، وقد توافرت في الرسول محمد ﷺ بالتواتر، فلا يمكن التشكك فيها، وهذا دليل قاطع على صلته الوثيقة بالعالم العلوي، فلم تطغ الفطرة البشرية على كمال أخلاقه الأدبية، ورقي نفسيته [٢٤٧].

وهنا نتوقف عند اكتمال الخلق الرفيع في شخصيته، والتي شهد له فيها القاصي والداني، المؤمن والمشرك، فلا يمكن وصف هذه السمات العليا في إنسان بأنها اجتهاد بشري منه، وإنما هي تربية عظمى من المولى عزّ وجل لرسوله الكريم ؛ من أجل غاية عظيمة ألا وهي نشر رسالة الإسلام، وتبليغ القرآن الكريم، فلا مجال لطغيان الفطرة البشرية على شخصيته، وإنما أخلاقه العالية تتحكم وتسيطر على نوازعه البشرية ﷺ.

ومنهم من قال إن "نيل الإنسان للكمال الأدبي غير متيسر في هذا العالم، لشدة غلبة الحاجات الجسدية، ومقتضيات الجبلة البهيمية التي لا تزال متغلبة على أهواء الإنسان... أما طلب الكمال لذاته، فعندهم أنه سيبقى من حظ الأفذاذ الذين يختارهم موجد الكون، ليكونوا مُثلا عليا لسواهم من بقية الناس" [٢٤٨].

وبالنظر إلى جهود المربين والمصلحين للوصول في أقصى ما يمكن في تقويم الشخصية الإنسانية، والرقي بأخلاقها، ونزعاتها، وقوة عقلها، نجد عجزا واضحًا لديهم، ونسبوا خيبتهم إلى الحالات الجسدية والأمزجة الفطرية، والعيوب الجبلية الموروثة، وأجمعوا على أن بلوغ الإنسانية درجة الكمال، لن يكون بثمرة العلم، ولكن ثمرة التطورات المتعاقبة في أجيال البشرية، لعلها تصل بعد قرون إلى هذا الكمال، ما لم تتعرض إلى قهقرى مفاجئة لسبب من الأسباب، فتتوقف عن التطور [٢٤٩].

فإذا كان المصلحون يراهنون على تقديم تربية مثلى للبشرية، فإن هذه الجهود لم تصل في مجملها إلا بالرقي في بعض الجوانب، أما شمولها لجميع الأخلاق فهذا ما لم يحدث، مع فئة فما بالنا مع شخص واحد، ألا وهو الرسول ﷺ، مما يجعلنا نكون مطمئنين إلى أننا نحتذي بشخص معصوم، وإننا

---

٢٤٧) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، محمد فريد وجدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٣٢١.

٢٤٨) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، ص٣٢٢.

٢٤٩) السابق، ص٣٢١.

مهمًا بلغنا في الاقتداء به والتأسي، فإنه يظل قبسا نستظل بضوئه، ولا نصل إلى مكانته.

وعندما ندرس شخصية الرسول ﷺ في ضوء قيادته وإدارته للأزمات التي مرَّ بها المجتمع المسلم، فإننا على يقين أنه قدّم في شخصيته النموذج المثالي في هذا المضمار، فلا معنى لشخص يتصدى لحل أزمات فردية أو جماعية، وهو يعاني أوجها في النقص الخلقي أو فقدان القيادة والقدرات الخاصة التي تؤهله للحلول.

إن النبي ﷺ "جمع في نشأته خير ما في طبقات الناس من ميزات، وكان طرازًا رفيعًا من الفكر الصائب، والنظر السديد، ونال حظًا وافرًا من حُسن الفطنة وأصالة الفكرة، وسداد الوسيلة والهدف ، وكان يستعين بصمته الطويل على طول التأمل وإدمان الفكرة واستكناه الحق، وطالع بعقله الخصب وفطرته الصافية صحائف الحياة، وشؤون الناس وأحوال الجماعات، فعاف ما سواها من خرافة، ونأى عنها ثم عايش الناس على بصيرة من أمره وأمرهم "[٢٥٠].

فبالنظر إلى سماته التي تحلّى بها من قبل البعثة، نجد أنه كان شخصا فريدا في المجتمع الجاهلي، نجا بفطرته النقية من اللهو والعبث الذي كان عليه شباب هذا المجتمع ورجاله، وكانت العناية الإلهية ترعاه، وتسدد خطاه، فها هو يجمع في تجربته في الحياة الكثير من الخبرات والأحوال التي عليها الناس، فيُرزَق الحكمة، ويكون قادرا على تقييم المواقف، وتقويم ما يراه من اعوجاج، والسعي إلى الإصلاح طيلة حياته.

فكما ورد في نعته : "كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، لا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت... فصل لا فضول ولا تقصير، دَمِث ليس بالجافي ولا المهين، يعظّم النعمة وإن دقّت، لا يذم منها شيئًا ولا يمدحه، ولا يقوم لغضبه، إذا تُعرّض للحق شيء حتى ينتصر له... لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها" [٢٥١].

وتلك سمات المفكر المصلح والرسول الداعية، فلا بد أن ينظر إلى ما حوله، يتأمل ويدرس ويتعلم، يمتاز بطول الصمت لصالح الفكر العميق، يدرك قيمة النعمة وهو الذي نشأ وعاش فقيرا، يحبه الناس ويأتمنونه لخلقه الدمث، الذي لا ينتصر لشخصه، وإنما للحق والحق وحده، وتلك من أهم سمات القائد والمصلح الحقيقي للمجتمع، أن يقدّم الآخرين على نفسه، لا ينحدر إلى سفاسف الأمور، يكون موضع ثقة الناس وتقديرهم وإن اختلفوا معه، وعارضوه، ولكن يظل الرسول في مكانته العالية التي تجبر الناس جميعًا على توقيره، وما نعته بـ"الصادق الأمين" قبل البعثة إلا دليل على حب الناس له، وتميّزه بخلقه بينهم، في مجتمع كانت الأخلاق العُليا نادرة.

---

٢٥٠) الرحيق المختوم، ص٥٣.

٢٥١) شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه، للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ١١٣٨٦هـ، ١٩٧٦م، ص٥١. والحديث رواه بطوله الحافظ الترمذي في كتاب شمائل رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، عن سفيان بن وكيع بن الجراح، ورواه الحافظ البيهقي في الدلائل وغيرهما.

وأحد وجوه محاربة كفار مكة للرسول في دعوته ؛ حسدهم لبني هاشم على خروج النبي ﷺ والجاه الذي نالوه من جراء ذلك، فهم فهموا أن المسألة تفاخر بين العشائر في مكة، ولم يعوا أن الهداية هدف عظيم المنال والشرف.يشهد بذلك أبو جهل نفسه، كما يقول المسور بن مخرمة: قلت أبي جهل - وكان خالي - يا خال، هل كنتم تتهمون محمدا بالكذب قبل أن يقول مقالته ؟ فقال : والله يا ابن أختي، لقد كان محمدا وهو شاب يدعى فينا الأمين، فلما وخطه الشيب، لم يكن ليكذب. قلتُ : يا خال فلم لا تتبعونه ؟ فقال : يا ابن أختي، تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف، فأطعموا وأطعمنا، وسقوا وسقينا، وأجاروا وأجرنا، فلما تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا : منا نبي ، فمتى نأتيهم بهذه " (٢٥٢).

شهد أبو جهل للرسول بالأمانة والصدق، ومنعه حسده، وتعصبه العشائري أن يتبع محمدا، أضاع عقله وحياته في سبيل دنيا وشرف زائلين.

سمات الرسول في النظر والحكم والتقدير :

فقد امتاز ﷺ باتباعه نهجًا ثابتًا في النظر في الحياة، والتعامل مع القضايا والأمور والمستجدات، وطبع نفسه على خصال رائعة :

فـ" كان سكوته على أربع : الحِلم والحَذَر والتقدير والتفكّر، فأما تقديره ففي تسويته النظر والاستماع بين الناس، وأما تذكره أو تفكره، ففيما يبقى ويفنى، وجُمع له ﷺ الحلم والصبر، فكان لا يغضبه شيء ولا يستفزه، وجمع له الحذر: أخذه بالحسنى، والقيام لهم فيما جمع لهم الدنيا والآخرة ﷺ " (٢٥٣).

فبالإضافة إلى سمات الرسول ﷺ التي خصَّه الله بها وميزه كرسول ونبي، هناك سمات أخرى تضاف لهذا التميز ويمكن للبشر أن يتعلموه منها، ألا وهي سمات الخبير المفكر، والقائد المسؤول.

والتي تبدو في أربع خصال أولى : الحِلم والحَذَر والتقدير والتفكّر، فأما الحلم فهي خصلة عظيمة، تجعله يتأمل يملك نفسه عند الغضب، ويخلي عقله من التعجل، لتكون الأناة عنوانًا له، وهذا مطلوب للخبير، فلن يعلم القضية أو الأزمة إلا إذا كان حليمًا، لا تأخذه العجلة، ولا يستعجل في الحكم.

وكما ذكر في وصفه الإمام علي رضي الله عنه : " كان رسول الله ﷺ أجود الناس صدرًا، وأصدقهم لهجة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده ﷺ (٢٥٤). فتلك النعوت، تعبر عن شخصية فذة في تكوينها وتأديبها وعلمها، لها

---

٢٥٢) جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام، شيخ الإسلام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ين سعد.. المعروف بابن قيم الجوزية، ت٧٥١، نشر : مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة – الرياض، ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م، ص٩٤.

٢٥٣) شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه، ص٥٤.

٢٥٤) جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام، ص٩٤.

جذابية وحضور من الوهلة الأولى لكل من يتعامل معها. ويضاف لذلك أنه ﷺ كان معلمًا مرشدًا للخير في ضوء شريعة الله المنزلة، ومثل تلك السمات في شخصيته تجعله مقبولاً من أيٍ كان، وإن كان كافرًا أو منافقًا أو معاهدًا، فالجميع سيشهد له بالخير والرحمة.

ونتعلم من تلك السمات في إدارة الأزمات وقضاء الحاجات وقيادة الناس، كيف أنه ﷺ: أجود الناس صدرًا، بتفجر الخير منه، وإنه منطو على كل خلق جميل، " فليس في الدنيا كلها محل كان أكثر خيراً من صدر رسول الله ﷺ قد جمع الخير بحذافيره وأودع في صدره "، وهو أصدق لهجة فلم يجرب أحد عليه كذبة قط، وهو ألين الناس عريكة أي أنه سهل قريب من الناس، قاض لحاجة من استقضاه، جابر لقلب من سأله ؛ لا يحرمه ولا يرده خائبًا، إذا أراد أصحابه منه أمرا وافقهم عليه وتابعهم فيه، وإن عزم على أمر لم يستبد دونهم بل يشاورهم ويؤامرهم وكان يقبل من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم " [٢٥٥]

وهكذا نتعلم من رسولنا دروسًا وخُلقًا في التعامل مع الناس، وفي قضاء حوائجهم، فما أروع أن يكون الشخص بحُسن خُلقه مقصدًا لكل الناس، وملاذًا لذوي الحاجات، ومستشارًا من قبل الحكماء والبسطاء، ومرجعًا في العلم لكل سائل.

والخصيصة المرادفة للحلم هي الصبر، فكان ﷺ غير مستَفَز، ينأى الغضب بعلاماته وطرائقه السلبية عنه، أي لا يعميه الغضب عن رؤية الحق، ولا تقييم الأمر، وإذا غضب كان وجهه يتمعّر ليس لشخصه وإنما للحق أيًّا كان، وبهذا لم تكن لديه وبين أي شخص خصومة ولا عداوة ذاتية، وإنما لله تعالى وللإسلام الحنيف.

إن خصلتي الحلم والصبر سمتان لابد للمسؤول أيًّا كان في الأزمات أن يتصف بهما، فعليه أن يتجنب سرعة الغضب، وإذا غضب فهو للحق ونصرة المظلوم، وعليه أن يكون حليمًا مع الغضوب والمضار من الأزمات، حاسمًا مع المهمل والمتسيب.

وخصلة الحذر، فكي يتحسب لأي قرار يتخذه يكون غير صائب في وقعه ونتائجه، وأيضًا يحذر ممن حوله في الأزمة، فالبعض غاياته خبيثة، وهناك أشرار، وهناك ضعاف العقول والنفوس، وهناك الطيبون، وهناك فئة العقلاء والحكماء. ومن ثم تكون الحُسنى سبيلاً للتعامل مع الناس، ولو كانوا من أهل الدنيا والمصلحة الخاصة، فقد تتغير قلوبهم، وستصبح الحسنى سببًا لجذب الحكماء والطيبين والمخلصين في أجواء الأزمة.

وأما التقدير فيعني قراءة المسألة والأزمة بشكل صحيح، بمعنى : تقدير الموقف، ومعرفة أبعاده، وأطرافه، ومسبباته، كي يكون الحكم صحيحًا والحل ناجحًا، وهو لن يتأتى إلا بالتسوية بين الناس عند سماعه لهم، فلا يهتم بالكبير ويهمل الصغير، ولا بأهل الجاه ويترك الضعفاء، فمن سوّى بين الناس، أحبه الناس، مدركين أنه يعمل بمبدأ إسلامي أصيل وهو المساواة بين البشر، فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، ولا تمايز بين الناس إلا بعمل الخير. وفي التسوية أيضًا بين الناس، وسيلة لمعرفة حجم الأضرار، والآثار السلبية، التي أصابت كل فرد في الجماعة، وسيعرف كل فرد أن له مكانة عالية عند المسؤول لأنه ملتزم بمبادئ الإسلام، فلن يمنّ عليه بخلق المساواة، بل هو واجب عليه الالتزام به.

---

٢٥٥) السابق، ص٩٤، ٩٥.

ومن نهجه في التقدير ما ترويه السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت : "ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس عنه، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله منها"[٢٥٦].

فأمامنا مبدآن لم يحد عنهما الرسول ﷺ، ولا ينبغي لامرئ أن يخالفهما، خاصة إذا كان في أزمات الحياة، ألا وهما : التيسير، والغضب لحرمات الله تعالى إذا انتهكت، فأما التيسير فشرطه ألا يكون إثما يخالف شرع الله سبحانه، لأن النفس البشرية قد تستصعب الالتزام بالأمر الشاق، وأما الغضب لانتهاك حرمات الله ، فلأنها الأخلاق الطيبة التي إن خولفت ، فيها ضياع للمجتمع ، وتسببٌ في أزمات عديدة ومتتالية، ولننظر في الزنا ككبيرة، وما يترتب عليها من فساد أخلاقي وضياع للأنساب، وهتك للأعراض، وتشويه الشرف والسمعة.

وأخيرًا خصلة التفكّر فهو في كل مراحل الحياة ، ومراحل الأزمات والمشكلات ، وأوقات الدعة والنشاط، فالذكي من يتفكر ويتأمل ويتعظ، ليزيد من خبراته، والمعيار في ذلك " ما يبقى ويفنى " أي المقارنة بين المستفاد للمسلم في الأمر، هل يفيده في آخرته أم هو تكالب على الدينا ؟ فإذا كان للدنيا تركه، وإذا كان للآخرة تمسّك به. ومعيار الآخرة يعني مرضاة الله ومجلبة الحسنات، والسبل الطيبة في مساعدة الناس في أزمات حياتهم، بلا شك من مسببات الأجر والثواب.

وكل إنسان كُتِب له النبوغ في عمل، يظهر عليه ميل إليه في طفولته، ولم يظهر على "محمد" غير ميل إلى السكينة والتفكير، وتدل على نزوعه إلى أفق الروح والاتصال بالملأ الأعلى، ولقد كانت هذه الصفة مستوعبة شعوره بشكل كبير، بدليل لجوئه إلى غار موحش أيامًا وليالي وهو غار حراء[٢٥٧].

بلاشك كان ذلك السلوك الأبرز الذي لوحظ على شخص الرسول ﷺ على صعيد البُعد الفكري والروحي، لكنه تمتع بأخلاق عُليا، ميّزته عن أهل مجتمعه وجعلته موضع ثقة الناس واحترامهم، ومحل ودائعهم، في الوقت الذي كان رافضا لعبادة الأوثان، لم ينظر إلى لهو أهل مكة وعبثهم، مستنكرًا لها.

أيضًا ، فإن الرسول ﷺ في دعوته للناس "عرّفهم الطريق الموصل لهم إلى ربهم ورضوانه ودار كرامته ، ولم يدع حسنًا إلا أمرهم به، ولا قبيحًا إلا نهى عنه، كما قال ﷺ: ما تركت من شيء يقربكم إلى الجنة إلا وقد أمرتكم به، ولا من شيء يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه "، وقال أبو ذر : " لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلّب جناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علمًا"[٢٥٨].

---

٢٥٦) شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه، ص٥٩.

٢٥٧) السيرة المحمدية، محمد فريد وجدي، ص٨٧.

٢٥٨) جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام، ص٩٢. والحديث المذكور رواه عبد الرزاق في مصنفه (٢٠١٠٠)، وعزاه الهيثمي إلى الطبراني في المجمع (ج٨، ص٢٦٣، ٢٦٤)، أما حديث أبي ذر فذكره الإمام أحمد في مسنده ج٥، ص١٦٢، ورجاله ثقات.

وهذا من علامات تمام الرسالة الإسلامية، فكل ما هو معروف أمر به، وأرشد إليه، وبيّن السبل الموصلة له، ووضع المعايير التي نحكم بها على أي مستجد في حياتنا إن كان حسنًا أو سوءًا، وهدفه في ذلك هدف الشريعة كلها، ألا وهو الفوز بسعادة الدارين، الدنيا والآخرة... ومقولة أبي ذر دالة على عظم العلم الذي تركه الرسول، في حياة الصحابة وفي أفهامهم، وما احتوته آلاف الكتب التي انبثقت عن هذا العلم عرضًا وتوثيقًا وتحقيقًا، وعشرات العلوم التي نهلت - ولا زالت تنهل - من علم المصطفى.

ولو حكم علماء الأديان بين الأديان الثلاثة، لوجدوا الإسلام كمالاً لها، جامعًا لكل خير فيها، ولنهلوا من الإسلام في جمعه لكل خيرات الديانات السابقة عليه، فمثلاً "أمة المسيح أمة لهم من الرياضات والأخلاق والعبادات ما ليس لأمة موسى، ولهذا كان غالب كتابهم مواعظ وزهد وأخلاق... ولهذا قيل إن الشرائع الثلاثة : شريعة عدل وهي شريعة التوراة فيها الحكم والقصاص، وشريعة فضل وهي شريعة الإنجيل مشتملة العفو ومكارم الأخلاق والصفح والإحسان... وشريعة جمعت هذا وهذا وهي شريعة القرآن فإنه يذكر العدل، ويوجبه الفضل، ويندب إليه" [٢٥٩]

الشاهد هنا : أننا - المسلمين - نقر ونعترف بما في الشرائع الأخرى من خير، فهي ديانات سماوية، وإن شابها تبديل وتحريف وخلط، أما هم (اليهود والنصارى) فلا يعترفون بديننا، ولا يعدونه سماويًا، وإنما هو "محمدي"، وهذا من نكبات الإنسانية في تاريخها، أن يتحارب أصحاب الأديان، وينفون بعضهم البعض، فتحرم البشرية من ديانة الإسلام، العظيمة في بنائها ورسولها وأتباعها وقيمها وعلومها وحضارتها في المجمل، اللهم إلا من شهادات صادرة من هنا وهناك في الغرب والشرق تنحّي روح الاستعداء، وتشهد للإسلام بالخير والفرادة.

وبنظرة مجملة إلى السمات والخصال المتقدمة عن شخص الرسول وأخلاقه وقدراته، قد لا تكون في الطباع، ولكنها يمكن أن تكتسب، إما بعضها أو في كلها، في أجزاء منها أو في مجملها، مما يستلزم أن يتم اختيار المسؤولين وصناع القرار وأولياء الأمور في ضوئها، وبعدها يتم تدريبهم عليها.

---

٢٥٩) السابق، ص١٠٥.

هدي الرسول في التعامل مع أصحاب الحاجات :

كان للرسول ﷺ هدي واضح في تعامله المباشر مع الناس، في مجالسه، ومقابلاته، وحواراته.

فمن سيرته في علاقته بالناس نتعرف كيف كان يتعامل مع مشكلاتهم وأزماتهم في الحياة وأن تلك صفات لازمته قبل البعثة وبعدها... فكان يحرص على :" إيثار أهل الفضل بأدبه، وقسمه على قدر فضلهم في الدّين ، فمنهم ذو الحاجة ، ومنهم ذو الحاجتين ، ومنهم ذو الحوائج ، فيتشاغل بهم ويشغلهم فيما أصلحهم والأمةَ (أي فيما يصلح الأمة معهم) من مَسْألته عنهم وإخبارهم بالذي ينبغي، ويقول : "ليبلغ الشاهدُ الغائبَ، وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي حاجته، فإنه من بلّغ سلطانا حاجة من لا يستطيع إبلاغها إياه، ثبّت الله قدميه يوم القيامة " [٢٦٠].

فتقديره يتجه إلى أصحاب الفضل في الدين، ثم يعتني - بالغ العناية - بأصحاب الحاجات، أيًّا كانوا، إذا كانت له حاجة واحدة أو حوائج، لا يضجر منهم، بل يحرص على قضائها، وجل مشكلاتهم ، بل ويسأل عن الغائب منهم، إن لم يستطع الوصول إليه. وهذه أسس إدارة القائد والمسؤول عن الأزمات، لا ينتظر وقوعها، ولا يتعامل مع كبيرها ويهمل صغيرها، ولا يهتم بأعالي القوم ويترك بسطاءهم، إنه يولي عنايته بالصغير والبسيط والمحتاج من الأفراد والفئات والجماعات. فأي أزمة تبدأ من مشكلات فردية أو بسيطة وقد تكبر إن أهملت، من حاجات بسيطة وقد تتعاظم إن تغافلنا عنها، وهذا أول ما نتعلمه من شخصية الرسول ﷺ في طريقة قيادته وتعامله مع الحاجات والأزمات.

وأنّ : " من جالسه أو قاومه في حاجة صابَرَه حتى يكون هو المنصرف، ومن سأله حاجة لم يردّه إلا بها أو بميسور من القول، وقد وسع الناس منه بَسْطه وخُلقه فصار لهم أبًا، وصاروا عنده في الحق سواء ، مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة... متعادلين يتفاضلون فيه بالتقوى ، متواضعين يوقّرون فيه الكبير، ويرحمون الصغير ويؤثرون ذا الحاجة، ويحفظون الغريب " [٢٦١]

إنها سمات الرسول الداعية، القائد المصلح، فهو :

- يصبر على صاحب كل حاجة مهمًا طالت وقفته معه.
- يعتني به حق العناية سواء كان صغيرا أو كبيراً ، رجلاً أو امرأة.
- لا يرد من سأله في حاجة ؛ إما أن يقضيها له أو يعطيه ميسور القول أو يحل مشكلته ، فلا تراكم للمشكلات عنده.
- إن هذا السمت في التعامل مع ذوي الحاجات والمشكلات ؛ كان سلوكه ﷺ وسلوك صحابته الأبرار في مجالسهم معه.

أما في تعامله مع الغرباء الوافدين إليه، فكان ﷺ: "يصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته، حتى إن كان أصحابه يستجلبونه في المنطق (يأتون به ليستفيدوا من أسئلته)، ويقول : إذا رأيتم طالب حاجة، فارفِدوه (أعينوه بالعطاء والصلة)" أي أنه كان :

٢٦٠) شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه، ص٥٢.

٢٦١) السابق، ص٥٣.

- يحتفي بالغريب فلا ينأى عنه ولا يزهد في القول معه.
- يصبر على جفوة الغريب وسوء منطقه ولفظه ويهتم بمسألته.
- لا يبخل ولا يقصّر مع أصحابه في أي رد أو إجابة أو إرشاد.
- يحض أصحابه على رعاية طالب الحاجة، بالعطاء وحسن الصلة.
- هدفه الدعوة والهداية، وفق مبدأ المساواة بين جميع الناس، لا فرق بين غريب وقريب.

ولا ينبغي أن نحصر علم الرسول ﷺ وتوجيهاته في نطاق المسلمين فقط، وإنما هو مضاف إلى البشرية جمعاء، وإن لم تؤمن شعوب كثيرة بالإسلام إلى يومنا، مصداقًا لقوله تعالى : {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [٢٦٢]، ويذكر ابن القيم في تفسيرها دلالتها على العموم وجهين بالنظر إلى عامة الناس في زمن الرسول :

أحدهما : إن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته، أما أتباعه فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة، وأما أعداؤه المحاربون له ؛ فالذين عجّل قتلهم خير لهم من حياتهم لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب، وأما المعاهدون له فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته، وهم أقل شرا بذلك العهد من المحاربين له. وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان حقن دمائهم وأموالهم وأهلهم واحترامها وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيرها. الوجه الثاني : إنه رحمة لكل أحد، لكن المؤمنون قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وآخرة، والكفار ردوها فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم لكنهم لم يقبلوها [٢٦٣].

ويضاف إلى ذلك، أن الرسول في هديه كان مصدرا أساسيا للخير للبشرية جمعاء، عبر الحضارة الإسلامية الزاهرة، والتي استمرت أكثر من ألف سنة، قدمت فيها للعالم الكثير والعديد من المعارف والعلوم المستقاة من الشريعة الإسلامية، وراكمت من التجارب والخبرات التاريخية ما هو معين لا ينضب للبشرية، إن أحسنت الاستفادة منها. ولا تزال الشريعة إلى يومنا منهلا لكل ناشد للحقيقة، باحث عن الإيمان، وسعادة الدارين، ينطبق ذلك على المسلم وغير المسلم، وعلى المعاهد والذمي وكل من استظل بشجرة الإسلام.

وربما كان موقف بعض من أهل الكتاب في زمن الرسول ﷺ دليلاً على تقديرهم واقتناعهم بما جاء، وإسلام بعضهم أملاً في خير الهداية وسعيا وراء آخرة، وتحكيمهم للعقل موقف كل من : عبد الله بن سلام رضي الله عنه الذي كان رئيس اليهود فلم تعمه الرياسة حتى يترك الدين القويم، وكعب الأحبار كذلك [٢٦٤]، فهؤلاء علموا من التوراة صفات النبي ﷺ، ومن علاماته الإخبار بما سيأتي، وأن صفاته التي ذكرت في التوراة تحققت في شخصه كما رأى اليهود، وقارنوا بين ما في كتبهم وما نزل به القرآن من آيات [٢٦٥]، وقد تعامل ملوك النصارى مثل النجاشي ملك الحبشة، والمقوقس ملك مصر، وقيصر

---

٢٦٢) سورة الأنبياء، الآية (١٠٧).

٢٦٣) جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام، ص٩٣.

٢٦٤) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، ص٣١.

٢٦٥) السابق، ص٣٠.

ملك الروم مع كتب الرسول ﷺ المرسلة إليهم بإكرام وتقدير، فمنهم من آمن كالنجاشي، ومنهم ردَّ ردًا لطيفًا وكاد يسلم لولا غلبة الملك كقيصر، ومنهم من هادى كالمقوقس [٢٦٦]، أما من أهان كتاب رسول الله ﷺ وهو كسرى فقد مزق الله ملكه، وشتت شمل أسرته.

فتظل دعوة الإسلام - لمن لديه من الحكمة والإيمان والرغبة في الهداية وتمحيص الحق - جاذبة، على مرِّ التاريخ وفي مختلف البقاع.

الرسول وإدارة الأزمة قبل البعثة :

هناك موقفان ذُكِرا في كتب السيرة حول موقفين دالين على أزمتين شهدهما الرسول ﷺ قبل بعثته، وفي هذين الموقفين الكثير من الدلالات التي يمكن استشفافها حول شخصية المصطفى، ومكانته لدى أهل مكة، وكلا الموقفين يتصلان بإدارة الأزمات، وكان الرسول ﷺ طرفًا مباشرًا فيهما، في الموقف الأول كان شاهدًا ومستذكرًا للموقف بعد الإسلام، وفي الموقف الثاني كان ﷺ أساسًا الحل، ولا شك أن الموقفين فيهما من الدلالات والدروس المستفادة الكثير.

الموقف الأول : حلف الفضول :

كان ذلك في سنوات الجاهلية، حيث كانت مكة المكرمة مقصدا للحج والتجارة والشعر والمال من قبائل الجزيرة العربية، ومن الطبيعي أن تحدث مظالم للمقيمين في مكة وللوافدين عليها ؛ غبن في تجارة، تعدٍ على حقوق، نهب مال، سرقات... إلخ، فصار لزاما على أهل النخوة من عشائر مكة المكرمة أن يفكروا في حل يحفظ حقوق المظلومين، ومكانة أهل مكة.

فتداعت قبائل من قريش إلى حلف، واجتمعوا له في دار عبد الله بن جدعان، وشارك في هذا الاجتماع، متوافقين على ما جاء في الحلف : بنو هاشم، وبنو عبد المطلب، وأسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على مَن ظلمه، حتى ترد عليه مظلمته، فسمت قريش ذلك الحلف "حلف الفضول". وقال رسول الله ﷺ: " لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم ولو أدعى به في الإسلام لأجبت " [٢٦٧].

وفي روايات أخرى، عن جبير بن مطعم قال : قال الرسول ﷺ:

" شهدتُ مع عمومتي حلف المطيَّبين، فما أحب أن أنكثه - أو كلمة نحوها - وأن لي حمر النعم " ، وعن أبي هريرة (ضي الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ: ما شهدت حلفا لقريش إلا حلف المطيّبين، وما أحب أن لي حمر النعم وأني كنت نقضته" قال : والمطيَّبون : هاشم، وأمية، وزهرة، ومخزوم [٢٦٨]. وزعم أهل السير أن الرسول ﷺ يقصد من حلف المطيبين حلف الفضول، وقال

---

٢٦٦) السابق، ص٣٣.

٢٦٧) السيرة النبوية، ابن هشام، ج١، ص١٠٥.

٢٦٨) صحيح السيرة النبوية (ما صح من سيرة رسول الله " صلى الله عليه وسلم وذكرُ أيامه وغزواته وسراياه والوفود إليه "، للحافظ ابن كثير، تحقيق : الشيخ محمد ناصر الدين الألباني (رحمه الله)، المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن، ط١، ١٤٢١هـ، ص٣٥.

آخرون إنه حلف المطيبين فقط ، وأن الرسول لم يدرك حلف الفضول. ولكن الراجح أن مقصد الرسول ﷺ من حلف المطيبين هو حلف الفضول، وأن سبب تسميته بحلف المطيبين يعود إلى تنازع قريش مع عبد الدار بن قصي، حيث جعل الأخير لابنه السقاية والرفادة واللواء والندوة والحجابة، فنازعهم بنو عبد مناف وقامت مع كل طائفة قبائل من قريش وتحالفوا على نصرة حزبهم، فأحضر أصحاب بني عبد مناف جفنة فيها طيب، فوضعوا أيديهم فيها وتحالفوا فلما قاموا مسحوا أيديهم بأركان البيت، فسُموا المطيبين وكان هذا قديمًا. ولكن المراد بالحلف المذكور حلف الفضول، في دار عبد الله بن جدعان [٢٦٩]، فمقصد الرسول ﷺ من الحلف الذي شهده هو حلف الفضول، لأن حلف المطيبين كان سابقا في زمنه، وكان " حلف الفضول أكرم حلف سُمِع به، وأشرفه في العرب"[٢٧٠].

في هذا الحلف جملة من الأمور المهمة :

فقد تكوّن الحلف لمنع الأزمات التي يمكن أن تحدث لأهل مكة أو بعض المغتربين الوافدين إلى مكة المكرمة، حيث يكون الغريب في المجتمع القبلي بلا قبيلة تناصره، ولا عشيرة تؤازره، فمن السهل أن تؤكل حقوقه، دون جهة يشتكي إليها، أما أبناء مكة ذاتها، فيمكن أن تأتي المظالم لمن تكون عشيرته أضعف، وظُلِمَ من رجل قوي، لا يستطيع أحد أن يواجهه، فيكتم الظلم على مرارة.

فتأسس الحلف لمنع الظلم عن أفراد، فهو مرتبط بأزمات فردية، تصيب البعض، ولكنه في الحقيقة ، يمنع أزمات أكثر، بالنظر إلى التركيبة القبلية في المجتمع الجاهلي، حيث يمكن أن تأتي المظلمة على أحد أفراد القبائل، فيستنصر قبيلته، فتهب لنجدته، مما يتسبب في حرب لا فائدة منها.

كما أن المتداعين للحلف كانوا من الشخصيات المؤثرة، والعشائر ذات المكانة، في المجتمع المكي، فاكتسب الحلف قوة وصار نافذا، فلم يكن مجرد شعار دون وجود في الواقع.

والمعلوم أن ديدن العقلاء من أهل مكة النصرةُ، ففي واقعة المطيبين رأينا المناصرة كما فعل بنو عبد مناف، وإن كان الأمر هنا مختصا برفادة البيت والشرف الذي سيعود عليهم بذلك. أما حلف الفضول فكان نصرة المظلوم، والفرق شاسع بين الأول وفيه نصرة العصبية، والثاني فيه نصرة المظلوم.

أيضًا، لم ينشأ الحلف في دار الندوة التي أنشأها في قصي بن كلاب من قبل، وإنما تمت في بيت عبد الله بن جدعان، فهي مبادرة خاصة من الشخصيات والعشائر الحاضرة، فلم تشارك فيه كل العشائر والشخصيات، فيمكن القول إن الأخيار والحكماء شاركوا في هذا الحلف، وباركوه. لذا، جاءت شهادة رسول الله ﷺ له وإشادته بالحلف، مما يعني أن الحلف أساسه طيب ومبدؤه مطبق، واستفاد منه الكثيرون.

ومن تعليق الرسول ﷺ عن هذا الحلف، بقوله "شهدت في دار عبد الله بن جدعان" يعني أنه كان مدعوًا بوصفه من شباب مكة المتميزين خُلقًا وأدبًا وعقلاً، وأنه حضر وكان شاهدًا على بنود الحلف.

---

٢٦٩) السابق، ص٣٦.

٢٧٠) السابق، ص٣٦.

وبالنظر إلى مقولة الرسول ﷺ: "ما أحب أن لي به حُمر النعم ولو أدعى به في الإسلام لأجبت " فإنه يجعل المشاركة في مثل هذه المعاهدات والأحلاف المستهدفة نصرة المظلوم أمرا له مثوبة عظيمة، وأن ما جاء فيه من مبادئ في العصر الجاهلي، يقرها الإسلام في عصر النبوة، فالرسول يؤكد أن المبادئ مثل معادن الناس، خيارها في الجاهلية ؛ خيارها في الإسلام.

وفي منظور علم الأزمات فإن تكوين الأحلاف الطيبة، يمنع الأذى والظلم قبل وقوعهما، لأن الظالم سيحذر من هبّة الصادقين والمتحالفين لنصرة مظلومه، كما أن يعالج الأزمة الناتجة عن الظلم، فهو أشبه بمعاهدات منع الحروب، ومواجهة المعتدين.

والجدير بالذكر أن سيرة الحلف الطيبة استمرت لقرون، ودخلت كتب التاريخ موثقة، لشهادة الرسول ﷺ لصالحه، وشهادة العرب المعاصرين له ومن بعدهم له ولأهله، وقد اكتسب دلالة على مناصرة المظلوم حتى يأخذ حقه، وقيام الناس معه بسيوفهم لذلك. ويذكر – تدليلا على ذلك - أن منازعة جرت بين الحسين بن علي بن أبي طالب، وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وكان الوليد وقتها أميرا على المدينة المنورة، بأمر من عمّه معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم جميعًا ، وموضوع المنازعة مال في بقرية "ذي مروة" في وادي القرى، فكأن الوليد تحامل على الحسين في حقه مستخدمًا سلطانه، فقال له الحسين : احلف بالله لتنصفني من حقي أو لآخذنّ سيفي ثم لأقومن في مسجد رسول الله ﷺ ثم لأدعونّ بحلف الفضول. فقال عبد الله بن الزبير وكان جالسًا عند الوليد : وأنا أحلف بالله لئن دعا به لآخذن سيفي، ثم لأقومنّ معه حتى ينصف من حقه أو نموت جميعا. وبلغت المقولة كل من : المِسور بن مخرمة بن نوفل، وعبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي، فقالا مثل ما قال. فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة، أنصف الحسين من حقه حتى رضي [٢٧١].

حدث هذا الموقف في خلافة معاوية بن أبي سفيان بعد عقود طويلة من عصر النبوة، ومن قبله العصر الجاهلي، حيث كان حلف الفضول مُفعلاً قبل البعثة النبوية الشريفة، ونلاحظ أن الخلاف كان بين حفيد النبي ﷺ الحسين بن علي بن أبي طالب، والمنازعة بين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، فالأول من بني هاشم والثاني من بني أمية بن حرب، فالأول من شهود حلف الفضول والثاني من شهود حلف المطيبين، الأول الحسين يستحضر ذكرى جده الرسول ﷺ، في مواجهة الوليد، والذي كان جده مشاركا من قبل في حلف المطيبين، والشاهد هنا أن ذكرى حلف الفضول دخلت الذاكرة الجماعية للعرب، بوصفها علامة على مناصرة المظلوم، والذود عنه، ورأينا كبار الصحابة يفزعون لمناصرة الحسين بالسيوف.

إن عقلية الرسول ﷺ، وسعة فهمه، وحسن تقديره للمواقف والشخصيات والمبادئ قبل بعثته الشريفة ؛ دالة على وفور قدراته العقلية ، وعلوّ همته النفسية والعملية ، وتباريه في نصرة المظلومين.

هناك قضية أخرى ترتبط بهذا الأمر، وهو شرعية تكوين الجماعات الإصلاحية في المجتمع، "{ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ } أي: منتصبة للقيام بأمر الله، في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " فالمقصود من هذه الآية أن تكون فِرْقَة من الأمَّة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجبًا

---

٢٧١) صحيح السيرة النبوية، لابن كثير، ص٣٦، ٣٧.

على كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَده، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ". وفي رواية: "وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ" (٢٧٢)

فالموقف الإسلامي من أي جماعة غير إسلامية تتخصص في أعمال الخير أو نصرة المظلومين أو إغاثة المنكوبين... وإذا كان شأن رسول الله ﷺ مع جماعات تكونت في الجاهلية وتخصصت في نصر المظلوم وزَبر الظالم، منتهجة المؤازرة والمشاركة، فما بالنا بشأن المسلم من جماعات الإصلاح المسلمة، والهيئات الإسلامية المتنوعة، والمتخصصة في شتى مناحي العمل الإنساني الخيري، كالتكافل، ورعاية الضعاف، وإغاثة الملهوفين، وكفالة الأيتام، والدفاع عن حقوق الإنسان، والدفاع عن حقوق الأسرى والسجناء، ومنافحة الظلم والفساد والدفاع عن الحريات؟ ولا شك أن نصرة هذه الجماعات أوجب، ودعمها أولى، والمشاركة فيها أولى وأبقى وأجدى (٢٧٣).

ويستفاد أيضًا أن التعاون المثمر مع مختلف الأنشطة الخيرية الإنسانية، والروابط والجمعيات والاتحادات في دول العالم بشكل عام؛ التي تعود بالنفع على الناس في الجوانب العلمية والاجتماعية والقانونية والاقتصادية... إلخ، ما دامت أهدافها ووسائلها المعلنة تخدم الخير والسلام والمحبة بين الناس، وما دام نهجها العملي لا يتناقض مع قواعد الإسلام وأخلاقه وتشريعاته، فكم من الجهود الإنسانية التي يمكن للمسلمين أن يتعاونوا فيها مع غير المسلمين، وستعود بالنفع على الإسلام وأهله وتخدم الرسالة الخيرية الإسلامية؛ بتقديم صورة مشرقة عن انفتاح الإسلام على الشعوب جميعًا، وأن المسلمين يتضافرون مع أية أنشطة تخدم الإنسان، دون النظر إلى الجنس والملة والعرق والبلد.

---

٢٧٢) تفسير ابن كثير للآية، ج٢، ص٩١.

٢٧٣) حلف المطيبين وحلف الفضول.. ودروس في العمل الجماعي، محمد مسعد ياقوت، دراسة في موقع صيد الفوائد http://www.saaid.net/Minute/266.htm

الموقف الثاني : وضع الحجر :

إنه الموقف الذي جاءت مشاركة الرسول فيه فاعلة، بل هي التي نزعت فتيل الأزمة، وأعطت حلاً عمليًا، أرضى جميع الأطراف، وأغمد السيوف، وأراح القلوب.

تبدأ القصة والرسول ﷺ في سن خمس وثلاثين سنة من مولده حين قامت قريش ببناء الكعبة المشرفة ؛ فالكعبة كانت رَضْمًا فوق القامة، ارتفاعها تسعة أذرع من عهد إسماعيل عليه السلام، ولم يكن لها سقف، فسرق نفر من اللصوص كنزها الذي كان في جوفها، في الوقت الذي تعرضت فيه - بوصفها أثرًا قديمًا - للعوادي التي هدمتم بنيانها، وصدعت جدرانها. وحدث قبل بعثته ﷺ بخمس سنين، أن سيلاً عرمًا جرف مكة وانحدر إلى البيت الحرام، فأوشكت الكعبة منه على الانهيار، فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها حرصًا على مكانتها، واتفقوا على ألا يُدْخِلوا في بنائها إلا طيبًا، فلا يدخلون فيها مهر بغي ولا بيع ربًا ولا مظلمة أحد من الناس، وكانوا يهابون هدمها، فابتدأ بها الوليد بن المغيرة المخزومي، فأخذ المعول وقال : اللّهم لا نريد إلا الخير، ثم هدم ناحية الركنين، ولما لم يصبه شيء تبعه الناس في الهدم في اليوم الثاني، ولم يزالوا في الهدم حتى وصلوا إلى قواعد إبراهيم ، ثم أرادوا الأخذ في البناء فجزأوا الكعبة، وخصصوا لكل قبيلة جزءًا منها. فجمعت كل قبيلة حجارة على حدة، وأخذوا يبنونها، وتولى البناء بنّاء رومي اسمه : باقوم ، ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه في مكانه، واستمر النزاع أربع ليال أو خمسًا، واشتد حتى كاد يتحول إلى حرب ضروس في أرض الحرم، إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومى عرض عليهم أن يحكّموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد فارتضوه، وشاء الله أن يكون ذلك رسول الله ﷺ، فلما رأوه هتفوا : هذا الأمين، رضيناه، هذا محمد، فلما انتهى إليهم، وأخبروه الخبر طلب رداء فوضع الحجر وسطه وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعًا بأطراف الرداء، وأمرهم أن يرفعوه، حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذه بيده فوضعه في مكانه، وهذا حل حصيف رضى به القوم.[٢٧٤].

هذه القصة تدل على عظم مكانة الكعبة لدى العرب في الجاهلية، وأنهم تعاملوا معها كأثر مقدس له مكانته الدينية في نفوس العرب جميعًا ، بتأثير من بقايا الديانة الحنفية السمحاء. وأيضًا ، فإن الكعبة المشرفة ، جعلت لمكة منزلة عظيمة بين العرب فقد كانت "حرزهم ومنعتهم من الناس، وشرفا لهم "[٢٧٥]، وساهمت في علو شأن قبيلة قريش بين العرب لتوفّرها على خدمة البيت العتيق وخدمة زائريه وحجاجه.

بدأت الأزمة بتأثر الكعبة المشرفة بسيل شديد، أضر بناءها، وكما يذكر ابن كثير أن "السيول كانت تأتي من فوقها، من فوق الردم الذي صفّوه، فخر به، فخافوا أن يدخلها الماء" [٢٧٦] وأيضًا بحكم مرور الزمن عليها دون أن تمتد إليها يد التجديد والإصلاح، فسارع أهل مكة إلى تجديدها، وهم مهابون امتداد أيديهم لهذا البناء المقدس.

---

٢٧٤) الرحيق المختوم، ص٥٢، ٥٣، وسيرة ابن هشام، ج١، ص١٤٤، ١٤٥، وصحيح البخاري، باب فضل مكة وبنيانها، ج١، ص١١٥.

٢٧٥) البداية والنهاية، الإمام عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، الشهير بـ الحافظ ابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت، ط٢، ١٤١١ هـ، ١٩٩٠م، ج١، ص٣٠٠.

٢٧٦) السابق، ج١، ص٣٠٠ .

فالأزمة الأولى : أن الكعبة على وشك الانهيار، وقريش مترددة في إعادة بنائها، فكان الحل في النظر إلى النية، وهي نية خير في الأساس، فجمعوا اللازم من مصادر طيبة، فلا يكون من مهر بغي، ولا ربا ، ولا مال مغتصب، ونفس هذه النية هي ما قاله الوليد بن المغيرة وهو يهدم أولى أحجار الكعبة مؤكدًا على سلامة موقفه ونيته قائلاً: "أنا أبدؤكم في هدمها، فأخذ المعول ثم قام عليها، وهو يقول اللهم لم نزغ، اللهم إنا لا نريد إلا الخير. وتربص الناس تلك الليلة... فأصبح الوليد من ليلته غاديا على عمله، فهدم وهدم الناس معه " [٢٧٧] دون أن يصيبه أو يصيبهم أذى، ومن ثم تشجع الناس، وشرعت كل قبيلة في بناء ركن من أركانها.

إن موقف أهل مكة دال على تأثرهم ببقايا ديانة إبراهيم (عليه السلام)، ومعرفتهم قيما عالية، وإن لم يلتزموا بها، مثل المرأة البغي والربا والمظالم، وهي بلاشك قيم إنسانية لدى أهل الفطرة، ومن تأثروا بالأديان السماوية.

وقد تسابق وجهاء مكة لبناء الكعبة، حيث تكفلوا بجمع الأحجار، أما الأخشاب فقد استجلبوها من خشب سفينة، حيث "كَانَ الْبَحْرُ قَدْ أَلْقَى سَفِينَةً لِرَجُلٍ مِنْ تُجَّارِ الرُّومِ إِلَى جُدَّةَ فَأَخَذُوا خَشَبَهَا، وَبَنَوْهَا بها" [٢٧٨]. وكان أشرافهم وكبراؤهم يحملون الحجارة على أكتافهم، تبركا بالعمل ؛ لإقامتها، وكان منهم العباس بن عبد المطلب، وابن أخيه محمد بن عبد الله [٢٧٩].

أما الأزمة الثانية فهي أشد من الأولى، وكانت أثناء البناء، حين وصلوا لموضع الحجر الأسود، فتنازعوا فيمن ينال شرف وضع الحجر، إلى أن جاء الرسول ﷺ وتصرف على النحو المذكور في القصة.

وهنا نلاحظ أن الأزمة كانت شديدة، فالحجر الأسود كان وسط الأحجار " مثل رأس الرجل، يكاد يتراءى منه وجه الرجل. فقال بطن من قريش : نحن نضعه. وقال آخرون : نحن نضعه. فقالوا اجعلوا بينكم حكَما. فقالوا : أول رجل يطلع من الفج، فجاء رسول الله ﷺ، فقالوا : أتاكم الأمين... " [٢٨٠].

فقد استدعوا العصبية الجاهلية المتمثلة في الفخر والاعتداد، وتغييب الحكمة والعقل ثم الاحتكام إلى السيف حين يفشل الحوار في الوصول إلى اتفاق، فهي أزمة قابلة للتصعيد، بأن تتقاتل العشائر والقبائل المشاركة في البناء، ويمكن أن يمتد القتال أيامًا أو شهورًا أو أكثر، على عادة أهل الجاهلية في حروبهم. فجاء حل الرسول رائعا، حين بسط رداءه ووضع فيه الحجر، وطلب من الزعماء المشاركين

---

٢٧٧) السيرة النبوية لابن هشام، ج١، ص١٤٥.

٢٧٨) الأحكام السلطانية، علي بن محمد بن حبيب الماوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ،١٩٨٩ م، ج١، ص٣٣١. وقد ظل البناء حتى العصر الأموي، حين بناها عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، وجعل لها بابين، ووصل إلى أس إبراهيم عليه السلام، وأدخل فيها الحجر (ج١، ص٣٣٢)، وقد جعلها عبد الله بن الزبير في غاية الحسن والسناء، كاملة على قواعد الخليل، فلما قتل أعاد عبد الملك بن مروان الخليفة وقتئذ البناء، مقرا ما زاد في طولها، ورادًا ما زاد فيه من الحجر، وسد الباب الذي فتحه. صحيح السيرة النبوية لابن كثير، ص٤٦.

٢٧٩) السيرة المحمدية، محمد فريد وجدي، ص٨٥.

٢٨٠) صحيح السيرة النبوية، ابن كثير، ص٤٥.

أن يحملوا ووضعه بنفسه في موضعه، لينزع فتيل الأزمة، ولينال هو شرف وضع الحجر، معززا ثقة أهل مكة به، فقد رضوا بحله، وأبان لهم عن جزء من شخصيته، سيظهر بعد البعثة، وهو عظيم حكمته، وقدرته على ابتداع الحلول التي ترضي جميع الأطراف، ولتعرف مكة أن نعته بالأمين، جاء في محله، ويضاف له الحكيم أيضًا.

إن المستفاد من هذه الأزمة أمور عديدة :

- يمكن أن تتفق الجماعة / الأمة على مشروع كبير، وتتوحد عليه، ولكن قد تواجهه مشكلة صغيرة، فتنسى أهمية المشروع، وتستثار فيها قيم سلبية مثل العصبيات المختلفة (لعرق أو نسب...)، مما يتسبب في أزمة تقضي على المشروع، وتتطور إلى حرب مهلكة وإفساد للنفوس.

- إن دور العلماء والعقلاء والحكماء في أوقات الأزمة محوري، بل هو ضروري وواجب، فمن العبث أن يتجنبوا الفتن والناس تطلبهم، مؤثرين السلامة بصمتهم أو ابتعادهم، بينما هم في الواقع يتسببون بتقاعسهم في إشعال حرب لا يعلم مداها إلا الله.

- الذكاء والبراعة في طرح الحلول، يكمنان في تقديم حل يرضي جميع الأطراف، ويجعل لكل طرف دور فاعل ولو كان يسيرا، مثلما رأينا في تصرف الرسول ﷺ، حيث اقتصر دور الزعماء على حمل طرف من الثوب، وهو جهد بسيط، ولكن في أثره ودلالته عظيم.

- عدم افتخار الحكيم بنفسه ولا بأهله وعدم المنّة على الناس بما قدّم من حلول، بل يكون خطابه قائما على وحدة النفوس وألفتها، مثلما رأينا في هذه الأزمة، فلم يدّعِ الرسول ﷺ ولا عشيرته ؛ أنهم نالوا شرف وضع الحجر على يد الرسول ﷺ، كي لا يشعلوا فتنة أخرى، ولم يشر الرسول ﷺ بعد البعثة بهذا ولم يتباهى به قومه من بني هاشم، وإنما مجمل كتب السيرة تشير إلى حل الأزمة، والتدليل على رجاحة عقل الرسول وحكمته.

وفي الفصل التالي، سنتناول جوانب من أحاديث الرسول ﷺ حول الأزمات، وكيفية مواجهتها، وتعاون الناس في ذلك.

الفصل الثاني

الهدي النبوي في إدارة الأزمات
القيم والإرشادات

يمكن دراسة هدي المصطفى ﷺ في إدارة الأزمات من خلال محاور عديدة، لا تقف عند جانب واحد، وهو المسببات المادية، والمشكلات المنبثقة عنها، وإنما في إطار من المعالجة الشاملة، التي تبدأ بما قبل الأزمة، ثم بمراحل الأزمة ذاتها، ثم ما بعد الأزمة. هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإن هدي الرسول ﷺ يبدأ بالفرد، ثم النفر والرهط من الناس، ثم القوم / العشيرة والقبيلة، ثم الجماعة المؤمنة في بلد ما، ثم الدولة المسلمة كلها.

فهو يشمل الفرد والجماعة، النفس والمادة، الحياة والممات، الفرج والأزمة، منطلقًا من شمولية الإسلام، التي لا تراعيها العلوم الغربية الحديثة، لأنها تنطلق من فلسفات مادية، تجعل النفس تابعة للمادة، وليس العكس، وحتى لو انطلقت بعض العلوم من النفس، فإنها توصّف ولا ترشد، بمعنى أنها تعتني بما يحدث في النفس أو ما يمكن أن يصدر عنها، أو تكوينها البيئي والاجتماعي والثقافي، ولا تحفل بالهداية الربانية، التي تربي النفس، وتمدها بالصلة الروحية مع الخالق جل وعلا.

السعادة غاية المرء في الحياة وبعد الأزمات :

إن الهدف المبتغى لأي فرد أو حاكم صالح أو دين أو نظام هو تحقيق السعادة للإنسان، بأن يحيا سعيدا آمنا غير مهدد في رزقه أو حياته أولده أو عرضه أو ماله، والأهم أن يحقق كفاياته الروحية والنفسية والجسدية والمادية، لأن التعرض للأزمة يعني تهديد كل ما سبق أو بعضه، وحرمان الناس من بعض مطالبهم، ويأتي الحل بإعادة الأمور إلى ما كانت عليه وتحسين أحوال الناس، أي تحقيق السعادة للفرد، فالأمر لا يقتصر على الأزمة وحلولها، وإنما الغاية توفير أسباب الخير والأمن والرخاء للإنسان، وبالتالي نخرج من الدائرة الضيقة التي يحصرنا العلم الحديث فيها بالنظر فقط في الأزمة وسبل إدارتها، إلى أن يعي الحاكم والمسؤول والمخطط والمنفّذ أن الهدف النهائي هو تحقيق السعادة للإنسان.

ومفهوم السعادة كما يتبدى في الفكر الغربي منذ القدم، يكاد ينحصر في أمرين، الأول طيب العيش Well-being، والثاني السعادة العقلية المعبر عنها بالكلمة اليونانية Eudaimonia [٢٨١]، وكلاهما يعبران عن طبيعة الفكر الغربي الذي يتأرجح ما بين المثالية العقلية واستيفاء مطالب الجسد، الأولى تهمل الجسد لصالح تغذية العقل فكريًا بقضايا؛ كثير منها منفصل عن الواقع، والثانية يعمد إلى إشباع متطلبات الجسد وشهواته، ويجعل هدف الإنسان في حياته : العيش في سعادة مادية وجسدية. وفي كلتا الحالتين، غابت الروح، بما يعني تغذيتها بالدين والهدى الإلهي،

٢٨١) السعادة.. موجز تاريخي، نيكولاس وايت، ترجمة : سعيد توفيق، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أكتوبر ٢٠١٣م،ص١٠.

وهو أمر مفهوم، في ضوء التصور العلماني الغربي المقصي للدين خلف جدران الكنائس، والجاعل الحياةَ الدنيا رهينة بتصرف البشر وفق ما يريدون، وحسب رغباتهم، دون إيمان أو قيم سماوية حاكمة.

فقد غلب على مفهوم السعادة - من الوجهة الغربية - ما يسمى المتعة أو مذهب اللذة Hedonism، ويتصل بالحقائق المتعلقة بالأشياء التي تستمتع وتستلذ بها الموجودات البشرية، ويتفرع منها مبدأ اللذة الكمي الذي يرى أن السعادة تهدف إلى اللذة في أكبر قدر منها، أو التفكير في الكيفية التي تنظر في سبل اللذة في الحياة [٢٨٢].

أما السعادة في الإسلام فهي تشمل العقل والجسد، ومن قبلهما الروح التي تأخذ مَعينها من الشريعة الربانية المنزلة في القرآن الكريم وسُنَّة الرسول ﷺ، وكما رأينا في مقاصد الشريعة، فإنها تهدف - فيما تهدف إليه - إلى حفظ: العقل والنفس والدين، وكلها متطلبات للإنسان، فهو في حاجة إلى الاستقرار الروحي الذي لن يتأتى إلا بالدين والإيمان بالعلي القدير، وتغذية العقل بما هو نافع من علم وحكمة، وإشباع الجسد غذاء وكساء وشهوة. فإن اكتملت هذه المنظومة للفرد نال سعادة الدنيا، والأهم جنات الآخرة.

ولا تقتصر السعادة على ما يهم الفرد فقط، بل تنصرف إلى ما يشغل المجتمع وينظّم أموره، التي إن انتظمت ستسعد الفرد... " فصلاح الدنيا معتبر من وجهين، أولهما: ما ينتظم به أمور جملتها، والثاني: ما يصلح به حال كل واحد من أهلها، فهما شيئان لا صلاح لأحدهما إلا بصاحبه، لأن من صلحت حاله مع فساد الدنيا واختلال أمورها، لن يعدم أن يتعدى إليه فسادها، ويقدح فيه اختلالها، لأنه منها يستمد، ولها يستعد "[٢٨٣]. تلك الغاية تقرها مختلف الشرائع في أصولها، التي " وإن تباينت، متفقة مركوز حسنها في العقول، ولو وقعت على غير ما هي عليه لخرجت عن الحكمة والمصلحة والرحمة، بل من المحال أن تأتي بخلاف ما أتت به { وَوَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ }[٢٨٤]. كيف يجوّز ذو العقل أن ترد شريعة أحكم الحاكمين بضد ما وردت به ؟! " [٢٨٥].

فالعقل الحكيم إذا نظر إلى رؤية الإسلام للسعادة، يدرك أنها متحققة في شريعته وأحكامه، ولو تطلع إلى جوانب من البناء الشرعي المحكم الذي أسسه الإسلام، والذي أجاب عن كافة أسئلة العقل البشري، وأشبع القلوب بعقيدة صافية نقية، ولبّى حاجة الأجساد في مسارات شرعية واضحة، وجعل الرحمة مغلِّفة لأحكام الشريعة، والمصلحة الحقيقية للعباد هي الهدف الأساسي لها.

فالله تعالى يأمر "بالمعروف الذي تعرفه العقول، وتقرّ بحسنه الفطر؛ فأمرهم بمعروف في نفسه

---

٢٨٢) السابق، ص٥٧، ٥٨.

٢٨٣) أدب الدنيا والدين، الماوردي، ص١٨٠.

٢٨٤) سورة المؤمنون، الآية (٧١).

٢٨٥) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، ج٢، ص٦.

عند كل عقل سليم ونهاهم عما هو منكر في الطباع والعقول بحيث إذا عرض على العقول السليمة، أنكرته أشد الإنكار، كما أن ما أمر به إذا عُرِض على العقل السليم قَبِله أعظم قبول وشهد بحسنه "[٢٨٦].

ولكن أين العقول التي تدرس شريعتنا لتخرج بما يفيد جموع البشر المتخبطين في متاهات الدنيا وأهوائها ؟!

لقد كان الأعرابي حكيمًا عندما سُئل : بم عرفتَ أنه رسول الله ؟ فقال: ما أمر بشيء فقال العقل ليته ينهى عنه ؛ ولا نهى عن شيء، فقال ليته لم أمر به. يقول ابن القيم معقبا على الأعرابي : "فهذا الأعرابي أعرف بالله ودينه ورسوله من هؤلاء، وقد أقرّ عقله وفطرته بحسن ما أمر به وقبح ما نهى عنه، حتى كان في حقه من أعلام نبوته وشواهد رسالته"[٢٨٧] . وهذا الحكم يتطلب أولا التخلي عن الهوى، والسعي إلى التجرد والموضوعية، عند النظر في هدي الإسلام وسنة رسوله، كي يعلم العاقل جواهرها.

ويقول ابن القيم في موضع آخر متحدثًا عن سعادة العبد في دنياه وأخراه، وأن كمال الروح معها لن يتحقق إلا " بمعرفة الله بأسمائه وصفاته ، وما ينبغي لجلاله وما يتعالى به ويتقدس عنه ، ومعرفة أمر دينه والتمييز بين مواقع رضاه وسخطه واستفراغ الوسع في التقريب إليه وامتلاء القلب بمحبته "[٢٨٨]. مما يعني العقيدة الصحيحة في القلب، والسلوك الحسن في الجوارح، والسعي إلى نيل رضا الله أينما ومتى تحرك العبد، في السراء والضراء، في العسر واليسر، في الشدة والرخاء، مصداقًا لقوله تعالى :{ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[٢٨٩].

ومن هنا تكون السعادة هي المبتغى الحقيقي للإنسان، فلا فائدة من النجاة من الأزمات والعيش في رغد، دون الظفر بالسعادة الحقيقية : روحا وقلبا وجوارح ومعيشة.

فما نراه لدى كثير من الحكومات والشعوب، أن هدفهم تحقيق الرفاه والرغد لأبناء الشعب، ومنع مسببات الأزمات المادية، والمسارعة في معالجة آثارها الاجتماعية والاقتصادية والجسدية، فيكون السؤال : هل هكذا تعيش الشعوب في سعادة ؟ الإجابة : إنها سعادة مرتبطة بتوفّر الأسباب المادية وإشباع الرغبات والشهوات العضوية، فإذا شعر المرء بقصور أو فقدان لأي من هذه المسببات فهو يعيش في ضنك وأزمة. والحقيقية أن هذه مظاهر والجوهر الحقيقي للسعادة يتمثل في تصالح الإنسان مع روحه وجسده وعقله ومجتمعه، لينبذ الأنانية، والإغراق في الذاتية، ويشعر بهموم من حوله، ليس في شعبه وإنما لدى باقي الشعوب، ويربط أي ضرّ يصيبه بقضاء الله، وأنه اختبار من الله له.

---

٢٨٦) السابق، ص١١.

٢٨٧) السابق، ص١١.

٢٨٨) مفتاح دار السعادة، ج٢، ص١٦٨، ١٦٩.

٢٨٩) سورة الروم، الآية (٣٠).

فكم من شعوب متقدمة، تعيش في رفاهية بالغة، ولكن نسب الانتحار عالية بين شعوبها، لأنه أشبعت الجسد وتركت الروح، جنّبت الناس الأزمات المادية، وتركت أزمات الروح والنفس تتضخم في أعماقهم.

أبعاد الأزمة في الهدي النبوي :

يمكن أن نقرِّر أن الهدي النبوي الشريف يتعامل مع الأزمات ببُعدين : بُعد رأسي : يتمثل في أفراد المجتمع بدءًا من الفرد وانتهاء بالجماعة والدولة، وبعدٍ أفقي من خلال أجواء الأزمة المسبقة والبعدية وما بينهما.

ومن هنا جاءت الشمولية في مفهومها الجامع لمختلف عناصر الأزمة ومكوناتها، بالاهتمام بالجوانب النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وأيضًا المعالجة الحكيمة للأزمة التي تبدأ بمنع أسبابها مسبقًا، أما وإن وقعت، لأخطاء بشرية، فهناك سبل للعلاج، أما بعد الحل، فإن الأمر لا يقف عند هذا الحد، بل يتخطاه إلى الاستفادة من الأزمة، ومنع تكرارها، أو وقوع أسبابها.

وستأتي دراستنا وفق هذه الرؤية، حيث سنعالج البُعد الرأسي أولاً، ثم البعد الأفقي.

أولاً : البعد الرأسي

ونعني به العناية بتكوين الفرد المسلم، تكوينًا إسلاميًا صحيحًا، فهو أساس المجتمع المسلم، وإذا صلح الفرد، صلحت أسرته الصغيرة، وكان عنصرًا بنَّاءً في مجتمعه الصغير، ومفيدًا في مجتمعه الكبير وذلك بأن يكون سليم العقيدة وصحيح العبادة، وحسن الخلق والسلوك، إيجابي نحو نفسه وأهله ومجتمعه. ثم الاتجاه إلى الأهل والجماعة المسلمة، كي يقوموا بواجبهم في حماية الفرد، وتوجيهه جماعيًا، ومن ثم حل مشكلاته، والتباري في حل الأزمات الكبيرة والصغيرة في آن، التي هي من طبيعة الحياة المعيشية للناس.

- المسلم قلبًا وسلوكًا :

فالمسلم الحقيقي يكون صادق الإيمان، مخلص العمل، يتقي الله ويراقبه في السر والعلن، غير منعزل عن الناس، بل يتسابق في فعل الخيرات، ومساعدة المحتاج. وقد جاء الهدي النبوي مؤكدًا على هذا المنحى، فعن أبي ذر جُندب بن جُنادة، وأبي عبد الرحمن معاذ بن جبل رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ قال: "اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة، وخالق الناس بخلق حسن"[٢٩٠]

٢٩٠) رواه الترمذي، وقال حديث حسن، وفي بعض النسخ حديث حسن صحيح، رقم (١٩٨٧) سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت. وخُرِّج في المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري رقم (١٦٥)، (٧٦٨٠)، وشعب الإيمان البيهقي (٧٥٣٤)، وذكره الطبراني في معجمه الصغير (٥٣١)، والأوسط (٣٩٠٥) والكبير (١٦٥١٧)

يمثل هذا الحديث جماع الخير للمسلم، وأساسها تقوى الله تعالى، التي تشمل فعل الواجبات، وترك المحرمات والشبهات، وربما دخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات، وترك المكروهات، وهو أعلى درجات التقوى [٢٩١] وهي وصية الله لجميع خلقه، ووصية رسول الله ﷺ لأمته، وكان إذا بعث أميراً على سرية أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً[٢٩٢]، أما في اتباع السيئة الحسنة، فإن الحسنات تمحو السيئات، ومن ثم مخالطة الناس بالخلق الحسن الطيب.

ويمكن تحصيل التقوى عبر وسائل عديدة تبدأ بالإيمان بالله تعالى والإخلاص له في كافة العبادات والمعاملات، والعكوف على القرآن ودوام التلاوة، وحسن التوكل واليقين بالله، ومجاهدة النفس وترويضها بالامتثال لأوامر الله ونواهيه وأداء الفرائض والنوافل مع حسن الخلق في كل شيء، وهي ثوابت إيمانية ترسّخ التقوى في النفس، وتجعل سلوك الفرد منضبطًا، وتلك أساس التربية الصالحة للمؤمن، التي ما تفتأ أن تعصمه من الزلات، وتكون معيارًا داخليًا في أعماقه لتربية نفسه، والنهوض بها دومًا. [٢٩٣]

إن هذا الحديث يمثّل الهدف الأساس المراد لبناء الفرد المسلم، والخطاب هنا كما نلاحظ ينصرف إلى التوجيه الفردي، بكلمات جامعة شاملة، تبدأ بالقلبي وهو تقوى الله التي تكون سببا لأمور عديدة في الدنيا والآخرة، منها: جلب الرزق، وتيسير أحوال الدنيا، ودفع الفرد للخيرات، وإلى التعاون مع الناس، ونشر السعادة بينهم، أملا في تنزل رحمات الله، والفوز بمرضاته، وأيضًا التربية الشاملة للمسلم طيلة حياته، لأنه يظل على ديمومة الصلة مع ربه، يستزيد بالعلم والطاعات ما يرشد سلوكه ويفيده، فكأن التقوى مدرسة جامعة مستمرة طيلة عمر المؤمن [٢٩٤]، ثم ينتقل إلى الجوارح والحواس بالعمل الدائم على ملاحقة الأفعال السيئة بفعل الحسنات، وقد يراد بالحسنة هنا التوبة من فعل السيئة [٢٩٥] مصداقًا لقوله تعالى: { وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ }[٢٩٦]، وأيضًا بفعل الحسنات والأعمال الصالحة، ثم ينتقل إلى السلوك الاجتماعي وهو مخالقة الناس بالخلق الطيب فحسن الخلق يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم، وهو أثقل ما يوضع في

---

٢٩١) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين من جوامع الكلم، للإمام زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين بن أحمد، ابن رجب الحنبلي، اعتنى به: حسن أحمد إسبر، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٩م، ص١٩٧.

٢٩٢) السابق، ص١٩٩.

٢٩٣) انظر تفصيلا: الدلالات التربوية لمفهوم التقوى في القرآن الكريم، عبد الله يوسف عبد النبي عوض، رسالة ماجستير، كلية التربية، قسم أصول التربية، الجامعة الإسلامية، غزة، ١٤٣٠ هـ، ٢٠٠٩ م، ص١٩-٢٢.

٢٩٤) انظر: السابق، تفصيلا ص١٥ -١٧.

٢٩٥) جامع العلوم والحكم، ص٢٠٦.

٢٩٦) آل عمران، الآية (١٣٥).

الميزان، وأن صاحبه أحب إلى الله وأقربهم من النبيين مجلسا [٢٩٧]، والمقصود بحسن الخلق التعاملُ الطيب مع الناس بالقول والفعل، والسعي في قضاء حوائجهم، والذود عن مظلومهم، والنهوض بأحوالهم والهرع إلى المحتاج والمسكين وطالب المساعدة وصاحب النكبة والأزمة.

فالحديث يحقق المنظور المراد، الذي يربط سلوك الفرد بمن وما حوله، وتقوى المسلم تتحقق بفعل الحسنات مع نفسه والناس، كي تمحى سيئاته، فالتقوى عمل قلبي وجوارحي، وعمل الجوارح يجلب الخير والحسنات للفرد، ويعزز التقوى في القلب.

وهنا مربط الفرس، فإن المنظور النبوي الشريف، نابع من المنظور الإسلامي العام لبناء المجتمع، وإدارة الأزمة فرع من إدارة المجتمع المسلم كله، فإذا كان أفراد المجتمع - كلهم أو غالبيتهم خاصة الصفوة منهم - من العلماء والحكماء ذوي تقوى وهدى وصلاح، فهم ينهضون لحل أزمات المجتمع ، واضعين مقاصد الشريعة العليا نصب أعينهم، كل حسب فهمه وعلمه وقدراته وإمكاناته. والأمر الأهم، أن الفرد المسلم يقوم بدور مهم للغاية، وهو مراعاة الجزئي وإقامته وإصلاحه من أجل إقامة الكلي، فعلى قدر جهود الأفراد في إصلاح القضايا والمشكلات الجزئية في الحياة اليومية، تنصلح حال الأمة في قواعدها الكلية الثابتة، " فالجزئيات مقصودة معتبرة في إقامة الكلي ؛ أن لا يتخلف الكلي ، فتتخلف مصلحته المقصودة بالتشريع"[٢٩٨] ، فإذا كان الفرد المسلم الملتزم بشرع الله ، الحريص على إقامة مقاصد شريعة الله ؛ ساعيا إلى الإصلاح في الأمور الجزئية والبسيطة، فإنه يُصلح بدوره المقاصد الكلية، فهناك من يفارق الجماعة لغير أمر مطلوب أو يهرب منها أو يتقاعس عنها، إلا في مواضع الأعذار، فالجزئيات لو لم تكن معتبرة ومقصودة في إقامة الكلي، لم يصح الأمر بالكلي من أصله، والمقصود بالكلي هنا أن تجري أمور الخلق على ترتيب ونظام واحد لا تفاوت فيه ولا اختلاف وإهمال القصد في الجزئيات، يرجع إلى إهمال القصد في الكلي [٢٩٩].

وفي حديث عن عبد الله بن عمرو قال : قيل لرسول الله ﷺ: أي الناس أفضل؟ قال: كل مخموم القلب، صدوق اللسان. قالوا : صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: هو التقي النقي لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد" [٣٠٠].

يؤكد هذا الحديث على أمر يتصل بخلق المرء، وهو خلق يتصل بدوره مع الناس، في تعاملاته، فأفضل الناس كما يؤكد الرسول ﷺ ما يجمع صفتين أساسيتين وهما الصدق ومخموم القلب ، وكلتاهما صفة قلبية جوارحية، فالصدق صدق القلب المنعكس في صدق اللسان في القول، ومخموم القلب يبدو أنه مفهوم قلبي في الظاهر ولكن في الواقع أنه مفهوم قلبي جوارحي، فالتقي النقي في قلبه، يحفظ المجتمع من إثمه، وليس في قلبه غل نحو أحد، ولا حسد، ولا بغي وظلم نحو بشر.

وهذا بعد آخر في بناء الفرد والجماعة، فالفرد النقي الصادق، سيحمي المجتمع من شروره،

---

٢٩٧) جامع العلوم والحكم، ص٢٢٦.

٢٩٨) ٢٩٨) الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي، ج٢، ص٥٠.

٢٩٩) السابق، ج٢، ص٥١.

٣٠٠) سنن ابن ماجة، محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، تحقيق وتعليق : محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، لبنان، مزيل بأحكام للألباني، ج٢، ص١٤٠٩، رقم ٤٢١٦، والحديث صححه الألباني.

والشرور سبب أساسي لأزمات اجتماعية وأخلاقية لا آخر لها، فإذا توافر الفرد المسلم ذو القلب والسلوك الطيبين، فإن المجتمع سينجو من شرور كثيرة. صحيح أن الناس ليسوا على خلق واحد، ولا قلوب واحدة، وأن فيهم الفاسد والمنحرف، جنبا إلى جنب مع التقي النقي، ولكن المجتمع الإسلامي يعتمد على الفرد الصالح الذي يُصلح نفسه ويدعو الآخرين، ويرشدهم، ويجادلهم بالتي هي أحسن، ويبادر لفعل الخير، ويذكّر المسيء وينصحه ويمنعه.

أيضًا، فإن المجتمع المسلم يعتمد على منظومة الشريعة الإسلامية بمقاصدها وقوانينها وتشريعاتها، التي تعين الفرد الصالح على صلاحه، وتأخذ على أيدي المنحرف وتردعه، في نفس الوقت التي تحتاج إلى العبد المؤمن الصالح كي يقوم على تطبيقها.

- الدين النصيحة وتعزيز الرقابة:

وهو المحور التالي في حياة المسلم، والذي يؤكد على إيجابية المسلم نحو كل ما ومَن حوله، وأنه مأمور بهذا، ومثاب عليه، فالنصيحة تعني الإرشاد الدائم: قولاً وحركة، وهداية وقدوة؛ لكل الناس، وتأتي رقابة المسلم على ذاته أولاً، ثم على مجتمعه ثانية، فلا يقبل انتهاك حرمات الله، ولا الإضرار بمصالح الناس، ولا السكوت عن الإهمال أو الظلم.

وإلى ذلك يعلمنا المصطفى ﷺ، فعن أبي رقية تميم بن أوس الداريّ ﵁، أن النبي ﷺ قال: الدين النصيحة. قلنا: لمن ؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم[301].

والمقصود من هذا الحديث أن النصيحة محور أساس للمسلم في حياته، فهو ليس مؤمنًا ملتزمًا بحدود دينه ويغلق الباب على نفسه، ولا يكون فاعلاً مع من حوله، وإنما المؤمن إيجابي دائمًا، لا يعرف كللاً ولا مللاً في نصح الناس، وإرشادهم. يقول شُرَّاح الحديث:

يحتمل أن يحمل (النصح) على المبالغة أي معظم الدين النصيحة، ويحتمل أن يحمل على ظاهره لأن كل عمل لم يرد به عامله الإخلاص فليس من الدين (وقيل) النصيحة مشتقة من نصحت العسل إذا صفيته يقال: نصح الشيء إذا خلص، ونصح له القول إذا أخلصه له أو مشتقة من النصح وهي الخياطة المنصحة وهي الإبرة، والمعنى أنه يلم شعث أخيه بالنصح كما تلم المنصحة ومنه التوبة النصوح كأن الذنب يمز [302].

و"الدين النصيحة" على ظاهر النص أو على المبالغة، تجعل من الإسلام دينا لا يقتصر فيه المؤمن على تنمية نفسه وتهذيبها وترقيتها دينيا فقط، بل يجب أن يمد بصره لمن حوله من الأقربين والأبعدين، فيصبح فردا ناصحا موجها مرشدا للخير، بإعمال الحسنى والمجادلة بالتي هي أحسن ومراعاة ظروف المنصوح وسنه وأحواله وعقله. فشروطها: أن يوقن الناصح أن الله هو الذى بيده

---

٣٠١) رواه الشيخان، واللفظ لمسلم، صحيح مسلم، رقم (٥٥)، ص٤٦، وصحيح البخاري في كتاب الإيمان، رقم (٤٢)، ص٣٦.

٣٠٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار الريان للتراث

١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م، ج١، ص١٦٧.

القلوب يقلبها كيف يشاء وهو الهادي إلى الحق والرشاد، وإخلاص النية لله رب العالمين وتجريدها من الهوى، والرفق بالمنصوح والشفقة به وعدم الإثقال عليه، وأن يكون عالمًا بما يأمر به وينهى عنه ، مع الإسرار بالنصيحة [٣٠٣].

فالنصيحة خلاصة ما أدرك الناصح وتعلمه في الأمر المراد، وهي من علامات الإخلاص - إذا صدقت النية - للمسلم، لأنه يتجاوز همّ نفسه إلى الانشغال بهموم الآخرين حوله، ويجمع شتات فكره كي يقدم النصيحة بشكل راق ومهذب.

اشتمل الحديث هنا على جوانب النصح مجتمعة، بعدما أسس لقاعدة عظيمة، وهي أن الدين أساسه النصح والإرشاد، ثم أوضح المصطفى ﷺ مواضع النصح وموضوعاته بأيسر عبارة وأوجز لفظ ، فالنصيحة بجانب شروطها الأخلاقية، تشمل النصيحة لله تعالى بأن نأمر بتنفيذ أوامر واجتناب نواهيه، مخلصين العمل لوجهه الكريم.

وأما النصيحة لكتاب الله فتعني : تعلمه وتعليمه وإقامة حروفه في التلاوة وتحريرها في الكتابة وتفهم معانيه وحفظ حدوده والعمل بما فيه وذب تحريف المبطلين عنه. والنصيحة لرسوله بـ : تعظيمه ونصره حيًا وميتًا وإحياء سنته بتعلمها وتعليمها والاقتداء به في أقواله وأفعاله ومحبته ومحبة أتباعه ، والنصيحة لأئمة المسلمين تعني : إعانتهم على ما حملوا القيام به وتنبيههم عند الغفلة وسد خلتهم عند الهفوة وجمع الكلمة عليهم ورد القلوب النافرة إليهم ومن أعظم نصيحتهم دفعهم عن الظلم بالتي هي أحسن. أيضًا ، ومن جملة أئمة المسلمين أئمة الاجتهاد وتقع النصيحة لهم ببث علومهم ونشر مناقبهم وتحسين الظن بهم. والنصيحة لعامة المسلمين الشفقة عليهم والسعي فيما يعود نفعه عليهم وتعليمهم ما ينفعهم وكف وجوه الأذى عنهم وأن يحب لهم ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه وفي الحديث فوائد أخرى منها أن الدين يطلق على العمل لكونه سمي النصيحة دينا ق الدين والتوبة تخيطه[٣٠٤].

جاء الشمول في النصح باستحضار المولى تعالى في كل قول وفعل وكافة ممارسات الحياة ، عملا بقوله تعالى : { قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }[٣٠٥] ، ثم تكون النصيحة للقرآن كتاب الله المجيد، ثم لرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم. أي شمل كل ما في الدين، ومن في المجتمع، فصار النصح على مستويين : الأول : الأمر بطاعة الله واجتناب نواهيه، ثم طاعة رسوله، والعمل بما في كتاب الله وسنة نبيه. المستوى الثاني: الناس، بالتوّجه إلى القادة والأمراء ومختلف طوائف الشعب، نخبة وبسطاء.

لاشك أن المسلم إذا وعى النصيحة والتزم بآدابها، وكان عالما بما ينصح به ولو كان شيئًا يسيرا، لامتنعت أزمات كثيرة في المجتمع، فكم من مشكلات ناتجة عن الجهل، أو سوء الخلق، أو عدم مراعاة مصالح الناس، وإفشاء العدل. وكم من مسؤول لم يجد من ينصحه فأضر الناس وأحدث مشكلات في حياتهم.

---

٣٠٣) شروط النصيحة في الإسلام، د. الخشوعي الخشوعي محمد، مجلة التبيان، الجمعية الشرعية الرئيسية، القاهرة، العدد ٤١، ٢٠٠٧.

٣٠٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج١، ص١٦٧.

٣٠٥) سورة الأنعام، الآية (١٦٢).

وفيما يرويه جرير بن عبد الله يقول يوم مات المغيرة بن شعبة ﷺ قام فحمد الله وأثنى عليه، وقال : عليكم باتقاء الله وحده لا شريك له، والوقار والسكينة، حتى يأتيكم أمير، فإنما يأتيكم الآن، ثم قال استعفوا لأميركم، فإنه كان يحب العفو، ثم قال : فإني أتيت النبي ﷺ، قلتُ : أبايعك على الإسلام، فشرط عليّ " والنصح لكل مسلم "، فبايعته على هذا، ورب هذا المسجد إني لناصح لكم، ثم استغفر ونزل [٣٠٦].

وفي حديث آخر، عن جرير بن عبد الله، يقول : بايعت النبي ﷺ على النُصح لكل مسلم [٣٠٧].

فالرسول ﷺ ربط البيعة على الإسلام مع المغيرة بن شعبة بالنصح للناس، وهو مبدأ عظيم ليت الناس يعملون به، فلن يكتفي المسلم بطاعة أميره، وعدم إحداث فتنة له، وإنما سيعين الأمير بالنصح لكل مسلم، وفي حديث جرير كانت البيعة على النصح، لنعلم عظم هذا الأمر ودوره البنّاء في حياة الجماعة المؤمنة.

أمر آخر يعززه هذا الحديث وهو مفهوم الرقابة الذاتية للفرد، وهي من أبرز ما تعنيه التربية الإسلامية من تنمية الرقابة الذاتية داخل الفرد وشعوره بالمسؤولية المطلقة أمام الله بالتقوى ليكون حارسا أمينا لنظام الحياة الذي ارتضاه الله لعباده، وتتحول نفس المؤمن اللوامة في النهاية إلى النفس الراضية المرضية المطمئنة، بدلاً من النفس الإمارة بالسوء، ويجعل من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة واجبة على كل مسلم، فإصلاح المجتمع المسلم حق لكل مسلم، متى رأى اعوجاجًا [٣٠٨]، وبالطبع هذا يتم في ضوء الضوابط الشرعية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مصداقًا لقوله تعالى : { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [٣٠٩].

والرقابة الذاتية تحقق : عمران الحياة لأنها بمثابة الضمير الإنساني، والنبع الأساسي والمرتكز الفعال في مواجهة انحراف المجتمع عن جادة الصواب، وفي انتظامه في فلك الحضارة الوثاب، ويجعل النفس قوية المشاعر، جميلة الخصال، لا تميل للشر بطبيعتها، وتصبح قوة فاعلة مريدة تكفّ جوارحها عن فعل الانحراف. كذلك تحقق الرقابة الذاتية القدوةَ الصالحة عبر تقديم نماذج في دوائر الأسرة والحياة والمؤسسات والإعلام ومنابر التوجيه، متخذة من الضوابط الربانية في الإسلام سلطانا نفسيا لها، معتمدة على بناء النفس المطمئنة [٣١٠].

ويندرج مصطلح الرقابة الذاتية تحت مفهوم وعي الفرد ذاتِه بحقوقه وواجباته، حيث يصبح المسلم مراقبا لمن حوله، برصد الأخطاء، والنصح لتداركها، والإبلاغ عن الجسيم منها، وبالتالي تمتنع

---

٣٠٦) صحيح البخاري، ج١، رقم ٥٨، ص٣٦.

٣٠٧) صحيح مسلم، رقم (٩٨)، ص٤٦.

٣٠٨) جولة في ذات المسلم (البناء النفسي للمسلم المعاصر)، خليفة عبد الله التونسي، مكتبة البيان، الكويت، ط١، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م، ص٣٠.

٣٠٩) سورة آل عمران، الآية (٧١)

٣١٠) جولة في ذات المسلم، الصفحات : ٣٤، ٣٥، ٣٧، ٣٩.

الأزمات، ما دام كل مسؤول واقعا تحت مراقبة الناس، فلا مجال لتكاسله أو نكوصه، صحيح أن علم الإدارة يجعل آليات ونظما ومؤسسات تكون بهذه المهمة، إلا أن الإسلام يسبقه، ويجعل المراقبة تبدأ من الفرد على مجتمعه ومسؤوليه وقادته، وجميع الناس. فحسب تعريف الرقابة في المجال الإداري، "يعتمد نجاح الدولة والمجتمع في خططه وبرامجه على توافر أدوات الرقابة المناسبة لمتابعة وتقييم هذا الإيجاز، وعلى توافر المقومات الأساسية اللازمة لزيادة فاعلية الرقابة على مختلف الأنشطة والبرامج التي تتولاها الأجهزة والوحدات الحكومية، وكما الأهمية رقابة ومتابعة هذه الأنشطة والبرامج لأغراض تقييم أدائها بصفة مستمرة للحكم على مدى تحقيق الأهداف المرجوة منها[٣١١]، فإذا اجتمع هذا المفهوم الإداري مع مسلم يعمل في هذه المؤسسات، ولديه سلطة رقابية، مع وعي ديني فيه الإثابة والعقوبة، تكون المحصلة إيجابية للدولة والوطن.

وبالتالي، فإن ديننا لا ينطلق من القواعد المؤسسية واللوائح، وإنما من ذات المسلم، التي هي قائمة على تطبيق هذه القواعد ما دامت لا تخالف الشرع، فتجعل مراقبته ونصحه وإرشاده واستخدام سلطاته واجبة عليه، وله الأجر والمثوبة أيضًا.

وفي الوقت نفسه، فإن الرقابة لا تعني تتبع العورات، فهناك تحذير نبوي من هذا السلوك، فعَنِ الْبَرَاءِ، قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَسْمَعَ الْعَوَاتِقَ فِي خُدُورِهِنَّ، فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: " يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِه وَلَمْ يَخْلُصِ الإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ، لا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلا تَتَّبِعُوا عَوَرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَةَ أَخِيهِ اتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنِ اتَّبَعَ عَوْرَتَهُ فَضَحَهُ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ"[٣١٢].

فتتبع العورات يعني السعي إلى معرفة عيوب الناس وما يسترون، ومن ثم التحدث بهذه العيوب وفضح صاحبها، وقد نهى الرسول عن الغيبة وتتبع العورات، فكلاهما متلازم، فالغيبة ذكر أخينا بما يكره في غيبته عنا، ولاشك أن من اعتاد الغيبة، فهو ساع إلى تتبع العورات، لأنه يتلذذ بذكر مساوئ الآخرين.

وشتان ما بين الرقابة الفردية للمؤمن والتطلع لمعرفة أسرار الناس وما يخفون، فالأولى تتوقف عند النصح والإرشاد والدعوة إلى الخير في حدود القيم الاجتماعية للإسلام، واحترام خصوصيات الناس، وفي جهر ومصارحة مع أولي الشأن، أما تتبع العورات والغيبة فهما خصلتان سرّيتان مذمومتان، صادرتان من إنسان خبيث النفس يريد الشر والفضيحة.

- منع الأذى عن الناس وكظم الغيظ:

فامتناع المسلم عن إيذاء الآخرين خلق أساسي من أخلاق الإسلام، فمن آذى الناس وأضرهم نال سخط الله في الدنيا وعقابه في الآخرة والالتزام بهذا الخلق يئد الأزمات في مهدها، فكم من المصائب التي تنتج عن سوء الخلق وإيذاء الناس بالقول والفعل وهضم الحقوق، وكم من كوارث اجتماعية نشأت بسبب سلوك أرعن من فرد أو أفراد.

---

٣١١) الرقابة والمراجعة الداخلية، د. عبد الفتاح محمد الصحن ـــ د. محمد السيد سرايا، الدار الجامعية للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٧، ص٦٧.

٣١٢) شعب الإيمان للبيهقي، رقم (٩٢٠٩) رواه أبو داود في السنن، رقم (٤٨٨٢)، ومسند أحمد رقم (١٩٧٧٦)

وأول ما يتصل بعلاقة المسلم بمجتمعه - خارج أسرته - هو علاقته بجيرانه، فصحيح أن الخلافات مع الجيران محدودة بمكانها وأشخاصها وزمنها، ولكنها قد تتسبب في مشكلات عديدة، لو تناصر الجيران وأحيوا العصبيات العائلية والعرقية والفئوية. فعن أبي شريح أن النبي ﷺ قال: والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل : ومن يا رسول الله ؟ قال : الذي لا يأمن جاره بوائقه" [٣١٣]. فما أقسى أن تكون العلاقة بين الجيران مضطربة، يسودها الخوف والقلق، فالجار قد يكون أقرب ممن هم ذوي أرحام للإنسان، وقد يسارع الجار بنجدة جاره قبل أقربائه، بحكم القرب والعلاقة اليومية، لذا، فقد ركَّز الرسول ﷺ على تمتين هذه العلاقة، التي لن تتحقق إلا بحسن الصلة. ولنا أن نتخيل الأزمات الاجتماعية الصغيرة التي تنشأ في الأحياء والحواري والشوارع والتجمعات القروية والبدوية بين الناس، ويمكن أن يكون للجار دور المشعل للأزمة، بالتسبب فيها أو بالسكوت عنها أو بعدم الذب عن المظلوم، وقد يكون أول من يطفئها إن وعى دوره.

وعن النساء، وما أكثر شجارهن مع جاراتهن، ما يرويه أبو هريرة ﵁ : يا نساء المسلمات، لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة" [٣١٤]. التحذير النبوي الكريم يتناول أزمات قد تتسبب النساء فيها، بحكم طبيعة المرأة ونفسيتها والغيرة والتطلع لما في أيدي الأخريات، وتكون الطامة أن تسود العلاقة بين الجارات البغضاء والحسد والغل والكراهية، مما ينعكس على أطفالهن وأزواجهن، ويمنع التوافق بينهن.

وعن أبي هريرة ﵁ قال : قال رسول الله ﷺ: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت" [٣١٥].

ارتبطت الأوامر في هذا الحديث بالإيمان بالله تعالى ويوم القيامة، وهي في مجملها تركز على ما يمنع الأذى (مثل إيذاء الجار)، ويحسّن العلاقات بين الناس (مثل إكرام الضيف)، والأهم أيضًا حفظ اللسان من الإيذاء، إما بنطق الخير وتقديم الكلمة الطيبة، أو بالسكوت ففيه امتناع عن شر أو إفساح للآخرين أن يقولوا ما هو خير، أو تهدئة للنفوس عندما تصمت الألسنة. وهذا له آثار كبيرة في منع الفتن والأزمات الصغيرة والكبيرة معا، فكم من عداوات وثارات نشأت عقب شجارات بدأت بكلمة ألقاها الشيطان في النفس وظهرت في النطق، ثم تطورت إلى فتنة كبرى ؛ قد تشعل العصبيات القبلية، أو الاقتتال بين الأقليات والطوائف.

خلق آخر مهم، وهو كظم الغيظ الناتج عن غضب النفس، وقد جاء التحذير النبوي من الغضب، كنتيجة طبيعية لموقف يحدث لكلمة أو سوء تصرف أو تعليق أو نظرة أو سلوك... فعن أبي هريرة ﵁ أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني. قال : لا تغضب، فردَّد مرارًا، قال : لا تغضب[٣١٦]، وفي حديث آخر، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال : ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه

---

٣١٣) صحيح البخاري، ج٤، رقم ٦٠١٦، ص٩٤

٣١٤) صحيح البخاري، ج٤، رقم ٦٠١٧، ص ٩٤

٣١٥) صحيح البخاري، ج٤، رقم ٦٠١٨، ص٩٤

٣١٦) صحيح البخاري، ج٤، رقم ٦١١٦، ص١١٢.

عند الغضب" [٣١٧]. فشدة الرجل ليست في قوة جسده، ولا قدرته على مصارعة غريمه، وإنما في امتلاك نفسه عند غضبها، فالغضب سورة، ما أشدها وما أضرها ! وكم من نفوس قُتِلَت، وأرواحٍ زُهِقَت لغضب استبدَّ بها أو بمن حولها، لسبب تافه أو ثقيل. وقد استبَّ رجلان عند النبي ﷺ فقال النبي : إنّي لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد. لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. فقالوا للرجل : ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ ؟ قال : إني لست بمجنون" [٣١٨]

الأزمة كانت في حضرة النبي ﷺ صمت النبي طيلة الموقف، لم يتساءل عن سبب المشاجرة، التي أفضت إلى سباب متبادل بين الرجلين، وإنما توقف عند المفيد للرجل الغاضب المكفهّر، المتطاول بالسباب، فهذا ليس سمة المسلم أن يكون فاحشا في قوله، سبابا شتاما، ولم تكن تلك القضية، وإنما نظر إليها الرسول من باب آخر، وهو كيفية سيطرة هذا الرجل على غضبه، فذكر لمن حوله الاستعاذة، وهي عبارة كافية بإطفاء نار الغضب، ولكن كانت النار محتدة في أعماق الرجل، ففهم النصح خطأ، ونفى عن نفسه الجنون، مؤثرًا العناد.

لقد تعامل المصطفى ﷺ مع الموقف بمعاملة مختلفة، فالمسألة ليس البحث عن سبب الشجار، وإنما منع نواتجه المهلكة وأشدها الغضب، وتحصين النفس من آثاره وتبعاته، فالشجار متكرر، ولكن طبع النفس الغضوب، يحتاج إلى تهذيب وأدب، كي تتحكم في أعماقها، وتحفظ لسانها، وتمنع تصاعد الأزمة.

ذلك هو الحل الحقيقي للأزمة ؛ علاج النفوس، وليس الاكتفاء بالأسباب المؤقتة المباشرة، لأن النفوس تفتعل من البسيط مشكلة، ومن التافه عراكًا، والأهم : أن الغضب من الشيطان، وأن الرسول ﷺ يذكّر الثائر الغاضب بالاستعاذة، مصداقًا لقوله تعالى : {وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }[٣١٩].

وفي ذلك يقول الحسن بن عليّ رضي الله عنهما: أربع من كنّ فيه عصَمَه الله من الشيطان، وحرّمه على النار : مِن ملك نفسه عند الرغبة والرهبة والشهوة والغضب. والرهبة هي الخوف من الشيء، وإذا خاف الإنسان من شيء تسبب في دفعه عنه بكل طريق يظنه دافعا له، وقد يكون كثير منها محرما. والشهوة هي ميل النفس إلى ما يلائمها وتلتذ به، وقد تميل كثيراً إلى ما هو محرّم كالزنا والسرقة وشرب الخمر، بل وإلى الكفر والسحر والنفاق والبدع. والغضب هو غليان دم القلب طلبًا لدفع المؤذي عند خشية وقوعه، أو طلبًا للانتقام ممن حصل منه الأذى بعد وقوعه، وينشأ عن ذلك كثير من الأفعال المحرمة كالقتل والضرب وأنواع الظلم والعدوان، وكثير من الأقوال المحرمة كالقذف والسب والفحش، وربما ارتقى لدرجة الكفر [٣٢٠].

الأربعة المذكورة : الرغبة والرهبة والشهوة والغضب، من أهم أسباب الأزمات، وعلى نحو ما تقدم من شرح حولها، ولكن المتأمل أن الغضب ناتج عن منع رغبة أو شهوة، وأن الرهبة مفضية إلى

---

٣١٧) صحيح البخاري، ج٤، رقم ٦١١٤، ص١١٢.

٣١٨) صحيح البخاري، ج٤، رقم ٦١١٥، ص١١٢.

٣١٩) سورة الأعراف، الآية (٢٠٠).

٣٢٠) جامع العلوم والحكم، ص١٨٢.

غضب سلبي، قد يرتكب المرء محرمًا لدفعه عنه، فيكون الحل بإثم، لتشتد الأزمة، بعدما ظن صاحبها أن تصرفه المذنب قد أنجاه منها، فقد أغضب ربه، وأفسد قلبه، ولن يمنع هذا من تكرار الأزمة، وتكرار الذنب أيضًا.

- منع العصبية وسوء الظن :

وهي من أهم الفتن المجتمعية، التي تنتج أزمات وقتال، واشتعال للنفوس، وتغييب للحكمة والعقول، فالتعصب طبع في الإنسان، إذا لم يُوّجه توجيهًا صحيحًا، بأن يكون تنافسًا في الخيرات، وفخرًا بالعلم والقرآن، فإنه يفسد النفوس كما يفسد الخل العسل، ونفس الأمر عندما تسيء النفوس الظن، وتفهم المواقف بشكل خطأ، ولا تعطي لنفسها المجال للتقييم الصحيح. فعن أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : "أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لا يَتْرُكُوهُنَّ : الْفَخْرُ فِي الأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ" [٣٢١].

وهذه الأربعة من مسببات الغضب واشتعال النفوس، ولو تأملنا فيها، سنجد أنها تعتمد على ما ليس للإنسان يد فيه، فالنسب والحسب، أمران لا يملكهما الفرد بعد مولده، فلا يملك إنسان اختيار أبويه، وإنما يملك دينه وحسن خلقه وعلمه، أما الاستسقاء بالنجوم فهو إحياء لأمر غيبي على حساب ما هو يقيني ألا وهو الاستعانة والتوكل والاعتماد على الله رب الأرباب، والنياحة بدعة مقيتة، تزيد الحزن، وتميت القلوب لوعة، علما أن الموت حق، ولا جدال في أمر الله.

لذا، كان الرسول ﷺ بالمرصاد لكل من يحيي دعاوى الجاهلية، فعن جابر رضي الله عنه يَقُولُ غَزَوْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ ثَابَ مَعَهُ نَاسٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ حَتَّى كَثُرُوا وَكَانَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلٌ لَعَّابٌ فَكَسَعَ أَنْصَارِيًّا فَغَضِبَ الْأَنْصَارِيُّ غَضَبًا شديدًا حَتَّى تَدَاعَوْا وَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ : مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ ثُمَّ قَالَ مَا شَأْنُهُمْ فَأُخْبِرَ بِكَسْعَةِ الْمُهَاجِرِيِّ الْأَنْصَارِيَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ، وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ أَقَدْ تَدَاعَوْا عَلَيْنَا لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ. فَقَالَ عُمَرُ : أَلَا نَقْتُلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْخَبِيثَ لِعَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّهُ كَانَ يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ " [٣٢٢].

الموقف يشكّل أزمة حقيقية، ولابد من الوقوف عندها، بالرغم من تفاهة السبب، وكيف أن تصرفًا أحمق تمثل في كسعة رجل من المهاجرين لأحد الأنصار، فتنادوا صارخين، كل فريق يستنصر بحمية الجاهلية، ولكنها حمية من لون مختلف، فالمهاجرون من مكة إلى المدينة يتنادون، والأنصار من الأوس والخزرج يتنادون، إنها أشد من التعصب القبلي في الجاهلية، إنها توجد عصبية جديدة أساسها التعصب للمسلمين المهاجرين من مكة، وللأنصار المضيّفين في المدينة المنورة، لتكون بذرة فرقة بين المسلمين أنفسهم، لذا، استنكرها الرسول ﷺ، ناعتًا إياها بالخبيثة.

---

٣٢١) صحيح مسلم، رقم (١٥٥٦)، ص٢٥١.

٣٢٢) صحيح البخاري، ج٣، كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوة الجاهلية، رقم (٣٣٣٠)، ج٤، ص٧٦.

فدعوى الجاهلية تعني : الاستغاثة عند إرادة الحرب. فقد كانوا يقولون : يا آل فلان، فيجتمعون فينصرون القائل ولو كان ظالمًا، فجاء الإسلام بالنهي عن ذلك، وفي رواية أخرى "اقتتل غلام من المهاجرين وغلام من الأنصار... إلى آخر الحديث ، فقال رسول الله ﷺ : أدعوى الجاهلية قالوا لا. قال : لا بأس، ولينصر الرجل أخاه ظالمًا أو مظلومًا، فإن كان ظالمًا فلينهه فإنه له نصر وعرف من هذا أن الاستغاثة ليست حرامًا وإنما الحرام ما يترتب عليها من دعوى الجاهلية [٣٢٣].

فكون المسلم ينصر من استنصره فهذا واجب عليه، ما دام الأمر يتعلق برفع ظلم ومناصرة ضعيف ومحتاج، أما أن تكون النصرة على عادة العصبية الجاهلية بالفزع إلى المستنصِر ما دام ينتمي إلى القبيلة، بغض النظر عن كونه ظالما أو مظلوما فهو أمر بعيد عن الإسلام، فيجب التمييز بين المظلوم والظالم، الأول نناصره ونذود عنه، والثاني ننصحه فإن لم يرتدع نأخذ على يده.

وبالتالي تُغلَق أبواب فتنة كبيرة، أولها : إسكات دعوى العصبية الجاهلية، سواء بالتعصب إلى القبيلة أو إلى فئة أو جماعة. ثانيها : التبيّن قبل المسارعة، بدراسة المشكلة والوقوف على أبعادها. ثالثًا : كبح جماح الفتنة سريعًا ، قبل أن تلوكها الألسنة. رابعًا: الأخذ على أيدي الأرعن والأحمق والخبيث ؛ الذين يشعلون نار حرب ، غير عابئين بتوابعها المزلزلة ، ولا بعواقبها الاجتماعية ومفاسدها، والآثار المتبقية لها في النفوس.

وفي موقف آخر دال، فقد : قَالَتْ الْأَنْصَارُ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ وَأَعْطَى قُرَيْشًا وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْعَجَبُ إِنَّ سُيُوفَنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَاءِ قُرَيْشٍ وَغَنَائِمُنَا تُرَدُّ عَلَيْهِمْ فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَعَا الْأَنْصَارَ قَالَ فَقَالَ: مَا الَّذِي بَلَغَنِي عَنْكُمْ وَكَانُوا لَا يَكْذِبُونَ، فَقَالُوا هُوَ الَّذِي بَلَغَكَ. قَالَ: أَوَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَرْجِعَ النَّاسُ بِالْغَنَائِمِ إِلَى بُيُوتِهِمْ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى بُيُوتِكُمْ ؟ لَوْ سَلَكَتْ الْأَنْصَارُ وَادِيًا أَوْ شِعْبًا لَسَلَكْتُ وَادِيَ الْأَنْصَارِ أَوْ شِعْبَهُمْ [٣٢٤].

الموقف يشكل أزمة حقيقية، فقد تحرّكت الدنيا في قلوب الأنصار وهم يرون الرسول ﷺ يوزِّع الغنائم في غزوة حنين، والمقصود هو فَتْحِ مَكَّةَ ، لِأَنَّ الْغَنَائِمَ الْمُشَارَ إِلَيْهَا كَانَتْ غَنَائِمَ حُنَيْنٍ ، وَكَانَ ذَلِكَ بَعْدَ الْفَتْحِ بِشَهْرَيْنِ[٣٢٥]، ولا يعطيهم إلا القليل، فتعجبوا من القسمة، وسرعان ما فهم الرسول ما يدور بخلدهم، فدعاهم، وتحدث معهم بصراحة فاعترفوا بأنهم قالوا مقالتهم، فتحدث معهم الرسول موضحا أن الدنيا مدبرة، وأن لديهم ما هو أعظم من الغنائم، ألا وهو الرسول نفسه الذي سيعود بهم ومعهم إلى المدينة المنورة، أما الذين نالوا الغنائم وهم من حديثي العهد بالإسلام، وأراد الرسول تأليف قلوبهم، فكانت كلماته الرقيقة، مؤكدًا أن الدنيا فانية وأن الآخرة هي الباقية، وأنه مع الأنصار بقلبه، فلو سلكوا شِعبًا، سيسلك شعبهم ويتبعهم، مؤكدًا على شدة حبه لهم، ورغبته في مصاحبتهم.

---

٣٢٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، شرح الحديث المذكور، في الحديث رقم (٣٣٣٠)، ص: ٦٣٢، ٦٣٣

٣٢٤) صحيح البخاري، ج٣، رقم ٣٧٧٨، ص٣٧.

٣٢٥) فتح الباري، باب مناقب الأنصار، شرح الحديث المذكور، في كتاب مناقب الأنصار، ص٦٤٧.

وفي رواية أخرى، يرويها أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ، أَنَّ أُنَاسًا مِنْ الْأَنْصَارِ قَالُوا يَوْمَ حُنَيْنٍ حِينَ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَمْوَالِ هَوَازِنَ مَا أَفَاءَ، فَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْطِي رِجَالاً مِنْ قُرَيْشٍ الْمِائَةَ مِنَ الْإِبِلِ، فَقَالُوا: يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا، وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: فَحُدِّثَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَوْلِهِمْ، فَأَرْسَلَ إِلَى الْأَنْصَارِ فَجَمَعَهُمْ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا جَاءَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : "مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكُمْ ؟" فَقَالَ لَهُ فُقَهَاءُ الْأَنْصَارِ: أَمَّا ذَوُو رَأْيِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَلَمْ يَقُولُوا شيئًا ، وَأَمَّا أُنَاسٌ مِنَّا حَدِيثَةٌ أَسْنَانُهُمْ قَالُوا : يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِهِ يُعْطِي قُرَيْشًا، وَيَتْرُكُنَا وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "فَإِنِّي أُعْطِي رِجَالاً حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ أَتَأَلَّفُهُمْ، أَفَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالْأَمْوَالِ، وَتَرْجِعُونَ إِلَى رِحَالِكُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ، فَوَاللَّهِ لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ"، فَقَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ رَضِينَا، قَالَ: "فَإِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ أَثَرَةً شَدِيدَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنِّي عَلَى الْحَوْضِ، قَالُوا: سَنَصْبِرُ " [٣٢٦]

فالملاحظ في هذه الرواية، أن شيوخ الأنصار وعقلاءهم صمتوا، وتحدث الشباب الصغير حديثو السن، وهم يرون الرسول يعطي عطاء واسعا للمؤلفة قلوبهم، فكان رد الرسول واضحًا ، محددا الهدف المبتغى، وأن ما يعودون به من شخص الرسول ورضاه عنهم أفضل عند الله ومن الدنيا بأسرها.

ثم يحذِّرهم الرسول ﷺ بأنهم سيجدون "أثرة شديدة"، أي نزع لديهم ورغبة في الاستئثار بأموال الدنيا وجاهها، فعليهم ساعتها الصبر وعدم النظر إلى ما في أيدي الناس، فإن شربة واحدة من الحوض يوم القيامة تعني الجنة وصحبة النبي الكريم في الآخرة، وتلك غاية العبد المسلم.

في الموقف الكثير من الأمور المستفادة، منها :

أ- أن شَباب الأنصار لا يَعْرفون حِكْمة الرسول ﷺ وأهدافه على حقيقتها فالنبيُّ ﷺ كان في كُل الغنائم والهِبَات، يُراعي أنَّ المال ليس هدفًا لذاته، وإنَّما هو وسيلةٌ يَسْتميل بها النُّفوس ويتألَّف بها القُلوب التي لم تَعْمُر بالإيمان بعد[٣٢٧]

لذا، فقد كان المصطفى يرى أن تأليف القلوب أهم وأرسخ من المال والغنائم، فهو يثبّت المسلمين الجدد على الإسلام، ويعلمهم أن محمدًا يعطي عطاءً سخيًا، مَن لا يخشى الفقر، وأنهم بدخولهم الإسلام اكتسبوا هدايةً وعزًا وكرمًا.

ب - كان الأنصار يَفْزَعون لمُجرَّد تَصوُّرهم أن النبي ﷺ سيترك الإقامة في المَدِينة، ويَنْتقِل إلى مَوْطِنه الأصلي في مَكَّة حينما يَفْتحها، وكان النبي ﷺ حينَئذٍ قد فتح مكَّة، واتَّجه إلى الطائف حيثُ دارت مَعْرَكة حُنَيْن، والمفروض أنه سَيعود إلى مكَّة، فكانَ الأنصار يَخْشَون كل الخَشْية أن يُقِيم فيها ولا يعود إلى المدينة، فحينما وَجَدوا نصيبهم من الغنائم قليلاً قَوِي هذا الخوف في نُفوسهم[٣٢٨]. وهذا

---

٣٢٦) صحيح مسلم، كتاب الزَّكَاة، بَاب إِعْطَاءِ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ، رقم (١٧٦٠)، ص٣٢٢

٣٢٧) البلاغة النبوية وأثرها في النفوس، د. حسن جاد، بحث منشور في مجلة البحوث الإسلامية، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، الرياض، العدد الخامس، ١٤٠٠هـ، ص١٥٢.

٣٢٨) السابق، ص١٥٢.

دليل على حب الأنصار لرسولهم، وتعلقهم بشخصه العظيم، ونسوا أن ارتباط الرسول بموطنه الأصلي بمكة المكرمة وحبه لها، لا يعني أنه سيترك المدينة المنورة، مركز الدعوة والهداية وعاصمة الدولة المسلمة الناشئة.

ج- كان بين المُسلمين مُنافِقون يَنْدسُّون في خَفاء، ومن مَصْلَحتهم دائمًا إثارة الفِتَن بين المُسلمين، والأوقات العصبيَّة كالحروب هي أنسب الأوقات لنَشْرِ الفِتَن، وبثّ الإشاعات، حيثُ تكونُ النُّفوس قَلِقة غير مُستقِرَّة، يَسْهُل أن تتقَبَّل أيّ شيء فانتهز المنافقون هذه الفُرْصة، وأخذوا يُشيعون بينَ الأنصار هذه الوَساوس من تَفْضِيل النبيِّ لقبائل كثيرة مُحْدَثة في الإسلام على الأنصار، ومن أنه سيترك المدينة ويُقِيم بين أهله في مَكَّة، ونحو ذلك مِمَّا ملأ نفوس كثير من الأنصار بالمَخاوف والوساوس [٣٢٩].

إنه ينبهنا إلى أمر عظيم، وهو أن في كل صف مسلم هناك ضعيفي النفوس، من المنافقين والمرجفين والجبناء والمتآمرين والحاقدين، وهؤلاء أشد خطرًا من الأعداء، فهم يتحينون الفرصة للنيل من الإسلام، وإشاعة الوقيعة والفتنة بين المسلمين، مستغلين وجودهم في صفوف الجماعة المؤمنة، وأنهم من نفس جلدتهم، ويتظاهرون بالإسلام والطاعات، فيبثون الشائعات بألسنتهم. والحل مع هؤلاء لن يكون بقتلهم فهذا محرم ماداموا لم يرتكبوا جرما واضحًا في عقوبته المنصوص عليها في التشريعات والقوانين، وإنما يكون الحل بتحصين الصف المسلم، والتنبيه على أفراده أن يعوا أبعاد المؤامرات المحاكة، وأن المتآمرين جاهزون لصب الزيت على النار بمجرد أن يروا حادثة ما، فالتحصين النفسي هو العلاج والمستفاد من هذه الأزمة.

ويلاحظ على حوار الرسول ﷺ مع الأنصار أنه لجأ إلى بلاغة رائعة، أساسها: تخصيص الخِطَاب: فليس الكلام مُوجَّها إلى كل سامع، وإنما هو مُوجَّه إلى الأنصار بالذات، بحيثُ يَشْعرون أن هذا الكلام خاصٌّ بهم، وهذا أساس هامٌّ من الأُسُس التي يمتاز بها أُسلوب الخَطَابة عن غيره من أساليب الأدب، فالحوار كي يكون مُؤثِّرا ينبغي أن يَشْعُر السامع أنه مَعنِيّ بهذا الكلام بصِفة خاصَّة، وأن ما يقال مُوجَّه إليه دون غيره، أو قبل غيره على الأقل فهذا الشعور يملأ نَفْس السامع اهتمامًا وإصغاء. وأيضًا: التَّفْرِيغ النَّفْسي: بتفريغ نُفُوس المُخاطَبِينَ مما يُثْقِلها فيما يَتعلَّق بالمَوْقِف والموضوع، وذلك بموافقة المخاطَبِين في أهم ما يُثير نُفوسهم، ثم الإقناع والرد على أسئلتهم: فأجابت عنها إجابة شاملة مُقْنعة، ملأت نُفوس الأنصار رَاحَة واطمئنانا ورضًا، حتى بَلَغوا من تأثُّرهم أن تَبلَّلت لِحاهم بالدُّموع، ولو بَقِي شيء من هذه التَّساؤُلات دون أن تُناقِشه الخُطْبة أو تُجيب عنه لبقيت نُفوسهم مُهوِّمة بعض التهويم في آفاق التردُّد والتساؤل [٣٣٠].

وهو درس مهم للمسؤول في الأزمة؛ أن يكون صريحا واضحًا، يجيب عما يدور في خلدهم وعلى ألسنتهم من أسئلة وهواجس، لتعود إليهم الأريحية والرضا والاطمئنان والثقة بقائدهم.

---

٣٢٩) البلاغة النبوية وأثرها في النفوس، ص١٥٣.

٣٣٠) انظر: السابق، ص١٥٧-١٥٩.

ثانيًا : البُعد الأفقي :

وهو البعد الثاني المكمل للبعد الرأسي، والمعني بالتعامل المباشر مع الأزمات، سواء قبل وقوعها أو أثنائها أو بعدها. فإذا كان الرسول ﷺ في البُعد الرأسي المتقدم ألزم المسلم بمبادئ وأخلاق وقيم سامية، تجعله إيجابيًا نافعًا لغيره، مانعًا للشرور والأضرار، فإنه ﷺ، تعامل مع الأزمات بهدي عظيم ، عبر توجيهات سامية رائعة، بدأت بمنع أسبابها، وسبل التعامل معها إن وقعت، وكيفية حلها، عبر مجموعة من الوصايا والتوجيهات التي تصلح في جميع مراحل الأزمة ومختلف مستوياتها.

التكافل في المجتمع :

إن التكافل الاجتماعي عنوان الحياة الاجتماعية في الإسلام، فكل فرد يعلم جيدا أنه عضو في الأسرة المسلمة الكبرى، التي تجمعها رابطة الإسلام ودولته وشريعته، مما يعطيه الأمان على نفسه وماله وعرضه ودينه وعقله وأيضًا غَده فلا يقتصر التكافل على المال فحسب، وإنما يمتد إلى كل جوانب الحياة، وخاصة وقت الأزمة.

لقد كفل الرسول على مستوى الجماعة التراحمَ والتكافل والإيثار والتحاب، وكما يروي النعمان بن بشير رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى" [٣٣١]

المؤمنون مثل الجسد الواحد ، في تأكيد على الترابط الحميمي والدافئ بين الجماعة المؤمنة ، واهتمام كل فرد بما يهمّ الآخرين، فلا يقتصر الأمر على التعاطف النفسي وإنما يوجب على المسلم المساندة المادية والتضافر الاجتماعي ولعل هذا أهم شيء في الأزمة، خاصة في بدايتها، عندما يكون الخطب شديدًا، فإن المرء ينتظر من يقف بجواره، ويسانده، ليعلم أنه ليس بمفرده وأن هناك من يحمل همه، ويحزن لحزنه.

لقد كان أول درس علّمه الرسول لأصحابه من المهاجرين والأنصار في المدينة المنورة أن يكونوا يدا واحدة، متآخين متحابين، ولنا في موقف اثنين من كبار الصحابة أمثولة على هذا التآخي. فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ : قَدِمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ الْمَدِينَةَ فَآخَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الْأَنْصَارِيِّ فَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يُنَاصِفَهُ أَهْلَهُ وَمَالَهُ فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ دُلَّنِي عَلَى السُّوقِ فَرَبِحَ شيئًا مِنْ أَقِطٍ وَسَمْنٍ فَرَآهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ أَيَّامٍ وَعَلَيْهِ وَضَرٌ مِنْ صُفْرَةٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَهْيَمْ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنْ الْأَنْصَارِ ، قَالَ فَمَا سُقْتَ فِيهَا فَقَالَ وَزْنَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ " [٣٣٢]. الموقف شهير، يعبر عن حل اجتماعي لأزمة المهاجرين من مكة إلى المدينة المنورة، حيث خلَّفوا في مكة أموالهم وأولادهم ونساءهم، وفروا بدينهم، فكانت المؤاخاة حلاً سريعًا وناجعًا ، وكما رأينا، لم يكن التآخي مجرد عاطفة وقتية فيها مساعدة قصيرة الأمد، وإنما تآخ يفوق رابطة الدم، فسعد بن الربيع مستعد أن يقدم إلى أخيه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما شطر ماله

---

٣٣١) صحيح البخاري، ج٤، رقم ٦٠١١، ص٩٣.

٣٣٢) صحيح البخاري،رقم (٣٧٨١)، ج٣، ص٣٨.

ويطلق إحدى زوجتيه، ولكن ابن عوف آثر أن يكد بنفسه في السوق، وهو التاجر الصدوق الماهر، ومن ثم يتزوج - من عمل يده - إحدى نساء الأنصار، وتكون المحصلة في نهاية الأمر أن المهاجرين باتوا أعضاء حقيقيين في المجتمع المدني، فلم يشعروا بغربة، ولم يقاسوا في حياتهم ولا معاشهم.

ولنتعلم درسًا مهمًا وهو أنه : في المنظومة الإسلامية في الاقتصاد والمجتمع، يكاد ينعدم معه وجود فرد يعيش في المجتمع المسلم الصحيح وهو جائع أو عار أو محروم من المأوى، لأنه يفرض وجوب بذل الفضل من الرزق والزائد عن الحاجة للجائع والمضطر إليه، ويجعل هذا مسؤولية الجماعة، وأميرها، فلا غني يشح بماله، ولا فقير يموت جوعا، فالمسؤولية التضامنية واجبة، لا تنتظر تحرّك المسؤول، وإنما توجب هذا الأمر على كل إنسان قادر، عبر الصدقات وأعمال البر والخيرات والزكوات [٣٣٣].

ولقد أتى على الأمة المسلمة زمان، كان الفرد فيه يُكلَّف من قبل الرسول ﷺ بإنفاق الفائض من حاجته إلى المحتاجين، ومساعدة الناس في أزماتهم، وأمر الرسول ﷺ الناس بذلك فيما يرويه سلمة بن الأكوع، بقوله :

"من ضحى منكم فلا يصبحن في بيته بعد ثالثة شيئًا ، فلما كان في العام المقبل قالوا يا رسول الله نفعل كما فعلنا عام أول، فقال لا إن ذاك عام كان الناس فيه بجهد، فأردت أن يفشو فيهم"[٣٣٤]، فالرسول يعلّم الناس كيف يتضامنون في الشدة، فلم يدخر الناس لحومهم، وإنما قاموا بتوزيعها على الفقراء والمحتاجين، استجابة لأمر رسول الله، فلما جاء العام التالي، أرادوا فعل ذلك، ولكن الرسول رفض، وأخبرهم أن العام الفائت كان عام أزمة وجهد، فأراد أن ينتشر هذا السلوك بينهم.

إنه مفتاح آخر لحل الأزمات، ولا يصبح بيد فرد أو مسؤول، وإنما بيد الجماعة كلهم، فمجرد سماع هذا الحديث، والتوجيه النبوي الكريم فيه، يكون لزاما على الناس ألا يدخروا في بيوتهم وهم يرون الآخرين جائعين وفي ضنك وشدة.

ونحن أيضًا مطالبون شرعًا بما طولب به الصحابة (عليهم الرضوان) في أضحيتهم، إذا وقعت ظروف متشابهة لذلك، أي أوقات شدة [٣٣٥]، وبالطبع لا يقتصر الأمر على الأضاحي، وإنما يتعداه إلى سائر أشكال الدعم، الذي يمكن أن يتبادر الناس إلى فعله في أوقات الأزمة. وهذا لعمري لا يجعل أزمة تمر بجماعة، دون حل وفرج.

وقد أُتخِذَ الحديث السابق مثالاً لتغير الفتوى مراعاة للظروف والأحوال، فقد جاء النهي عن ادخار

---

٣٣٣) المنظور الشرعي للتكافل المعيشي بين الجماعة في أوقات الأزمات والمجاعات، د. عمر فيحان المرزوقي، بحث بمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، العدد ٧٨، رمضان ١٤٣٠هـ، سبتمبر ٢٠٠٩م، ص١٨٠، ١٨١.

٣٣٤) صحيح مسلم، رقم ١٩٧٤، ص٨١٧.

٣٣٥) فتح المنعم شرح صحيح مسلم موسى شاهين لاشين، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م ج٨، ص٢١٥.

اللحوم للشدة والجهد، فلما انتهى الظرف العارض، عاد الناس إلى ما كانوا عليه وزال الحكم الذي أفتى به الرسول تبعًا له، فإن المعلول يدور مع علته وجودا وعدما [٣٣٦]. وتغيّر الفتوى من أبواب السعة في الشريعة الإسلامية، والتي تتلاءم مع تغيرات الأوضاع والظروف في المجتمع، فلا يجمد الفقيه على موقف ثابت، بل ينبغي مراعاة مقاصد الشريعة الكلية وأهدافها العامة، عند الحكم في الأمور الجزئية الخاصة والمتغيرة، خاصة في أوقات الشدة والحاجة، فالشريعة جاءت لتحقيق مصالح العباد وإقامة القسط وإزالة المظالم والمفاسد [٣٣٧]، وخاصة في مسببات الحياة من طعام وشراب وسكن وملبس. وكما يذكر الإمام النووي : أنه في أوقات المجاعات والسنين الحوائج، لا يجوز إمساك الفضل من المال والطعام، بل يجب على صاحب الطعام أو المال إذا كان غير مضطر إليه أن يبذله للمضطر والمحتاج، لأن الامتناع عن بذله إعانة على قتله [٣٣٨].

ففي أيام المحنة والأزمة والمجاعة، لا يترك الخيار لمن لديه فضل من مال أو ثروة أو أي نوع من الإمكانات أو الموارد التي يمكن أن تنقذ غيره من الجوع والهلاك، حيث تلزم تعاليم الإسلام الإيثارَ بالفضل الزائد عن الحاجة، في أوقات ضرورة المحتاج والجائع، وجمع وبذل الفائض من الأموال والثروات المكدسة عند الآخرين، طوعًا أو كُرهًا، وتوزيعها على الجائعين والمتضررين من الأزمة، فالأصل - كما يؤكد ابن تيمية - أن إعانة الناس بعضهم على المطعم والملبس والمسكن أمر واجب [٣٣٩].

وهنا تثار قضية أخرى، ترتبط بعقوبة من يمنع الفضل عن الناس وقت الشدائد والأزمات، حيث تقع المسؤولية الجماعية على إزهاق النفس، إذا امتنع قوم في بلد على إطعام أو إسقاء فرد، فمات جوعا أو عطشا، فعلى هؤلاء القوم الديّة، على نحو ما يقرر ابن تيمية، مستندًا إلى موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين ألزم قومًا دية شخص مات عطشًا بين ظهرانيهم، ولم يقدّموا له ما ينجيه من الهلاك[٣٤٠].

فحكم التكافل والإيثار والإخاء يكون مندوبًا ومستحبًا في الأحوال العادية والظروف الاجتماعية المعتادة، حين لا تكون أزمات، ويصبح واجب النفاذ في الأزمات والظروف الطارئة مثل المجاعات والحروب والزلازل [٣٤١].

---

٣٣٦) عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية، د. يوسف القرضاوي، نشر : اللجنة العليا للعمل على استكمال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، الديوان الأميري، الكويت، ١٩٩٥م، ص٨٢.

٣٣٧) السابق، ص٧٤.

٣٣٨) المجموع، الإمام النووي، يحيى بن شرف بن مُرِّي بن حسن بن حسين بن محمد جمعة بن حِزام، تحقيق : محمد نجيب، دار عالم الكتب، الرياض، ج٩، ص٢٨.

٣٣٩) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، جمع: عبد الرحمن بن قاسم، مكتبة المعارف، الرباط، ج٢٩، ص١٩٤.

٣٤٠) السابق، ج٢٩، ص١٩١.

٣٤١) إدارة الأزمات في الإسلام، د. سوسن الشيخ، ص٧٨.

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال : بينما نحن في سفر مع رسول الله ﷺ إذا جاءه رجل على راحلة فجعل يضرب يمينًا وشمالاً، فقال رسول الله ﷺ: "من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له" قال : "فذكر من أصناف المال حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل" [٣٤٢]

الموقف هنا في سفر، وبادية العرب شديدة الجدب والفقر، إلا من مواضع الآبار وبعض الأشجار، وقد رأى الرسول ﷺ رجلاً يتخبط جوعًا، فلم يترك الموقف إلا وأرسى فيه مبدأً مهمًا ، وخُلقًا رفيعًا، إنه خلق التكافل الجماعي، فأمر بأن يفسح الناس في ظهور دوابهم كي يركب الراجل، وأن يجمعوا ما زاد من طعامهم ويقوموا بتوزيعه على المحتاج. إن التكافل الاجتماعي هنا، وبهذه الطريقة، يرفع الحرج عن الناس، لأنه لن يصبح منّة من أحد على الفقير والمحتاج، وإنما حق له على كل صاحب فضل وزيادة فيما لديه، فلن يشعر الفقير بغصة وهو يتشارك مع أخيه في السفر، في زاده وركوبته، بل سيكون التكافل بين جميع من في القافلة أو الجيش، لأنه يعتمد على حالة عامة تسود بين رفقة السفر، كما أنه يرفع الأنانية والأثرة من النفوس، ويجعل الفرد مهتما بغيره، واهتمامه ليس مقتصرا على نفسه، وإنما يشعر بآلام المسكين السائر على قدميه، وبلا طعام.

وفي الحديث أيضًا ، حث على الصدقة والمواساة والإحسان إلى الرفقة والأصحاب ، والاعتناء بمصالحهم والسعي في قضاء حاجة المحتاج بتعرضه للعطاء، وتعريضه من غير سؤال، وإن كان له راحلة وعليه ثياب، أو كان موسرا في وطنه، فيعطى من الزكاة في هذا الحال[٣٤٣].

فلا سبيل إلى الامتناع عن الزكاة في وقت الأزمة ، ولا التأخر في إخراجها ، بل يجب النقيض ؛ المسارعة في العطاء، والزيادة فيها، وخاصة في أوقات السفر، حين تشتد الأزمة في بعض الأوقات، فيتلاشى المال، ويصبح المسافر في حاجة للمساعدة، حتى لو كان على غنى ويسر في بلده، فالعبرة بوقت الأزمة، وحاجة صاحبها فيها.

وهذا بعد مهم في الأزمات، لأنه لا يقصر الأزمة على ما يصاب به المواطنون في وطنهم، بل في أوقات السفر والإقامة، والحرب والسلام، وأنه يشمل كل ذي حاجة حتى لو كان غنيا في وقت آخر، ويوجب إخراج الزكاة له، لو تقطعت به الأسباب.

- التصرف وقت الشدة والحاجة :

فما بين استماع الصحابة لتوجيهات الرسول ﷺ واستلهام تعاليمه في التصرف أوقات الشدائد، وما بين إرشادات الرسول المباشرة لصحابته الكرام ، تأتي حلول أزمات الفقر والعوز ، وعند تقلب الظروف والأحوال.

فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ قَالَ : " بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْثًا قِبَلَ السَّاحِلِ، فَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ وَهُمْ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَأَنَا فِيهِمْ، فَخَرَجْنَا حَتَّى إِذَا كُنَّا

---

٣٤٢) صحيح مسلم، رقم ١٧٢٨، ص٧١٥.

٣٤٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان محمد القاري، دار الفكر، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م كتاب الجهاد، باب آداب السفر، شرح الحديث المذكور، المسألة (٣٨٩٨).

بِبَعْضِ الطَّرِيقِ فَنِيَ الزَّادُ، فَأَمَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِأَزْوَادِ ذَلِكَ الْجَيْشِ، فَجُمِعَ ذَلِكَ كُلُّهُ، فَكَانَ مِزْوَدَيْ تَمْرٍ، فَكَانَ يُقَوِّتُنَا كُلَّ يَوْمٍ قَلِيلاً قَلِيلاً حَتَّى فَنِيَ فَلَمْ يَكُنْ يُصِيبُنَا إِلَّا تَمْرَةٌ تَمْرَةٌ، فَقُلْتُ : وَمَا تُغْنِي تَمْرَةٌ ؟

فَقَالَ : لَقَدْ وَجَدْنَا فَقْدَهَا حِينَ فَنِيَتْ، قَالَ : ثُمَّ انْتَهَيْنَا إِلَى الْبَحْرِ، فَإِذَا حُوتٌ مِثْلُ الظَّرِبِ، فَأَكَلَ مِنْهُ ذَلِكَ الْجَيْشُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، ثُمَّ أَمَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِضِلَعَيْنِ مِنْ أَضْلَاعِهِ فَنُصِبَا، ثُمَّ أَمَرَ بِرَاحِلَةٍ فَرُحِلَتْ، ثُمَّ مرَّت تَحْتَهُمَا فَلَمْ تُصِبْهُمَا " (٣٤٤).

يمثِّل الحديث تطبيقًا مباشرًا لتوجيهات الرسول ﷺ حيث يصف سلوكًا عظيمًا للمسلمين، فالبعث المكلف من الرسول ﷺ حوالي ثلاثمئة، ونفد الزاد، واشتدت الأزمة بالمسلمين، فلم يجدوا إلا أن يطبقوا ما تعلموه من نبيهم، حيث جمعوا الزاد في الجيش كله، ومن ثم تولى أبو عبيدة توزيعه بالعدل، ونفد الزاد تدريجيا، حتى كان نصيب كل رجل تمرة أو تمرتين، وجاء حل الأزمة بوصول البعث إلى ساحل البحر، حيث وجدوا حوتًا كبيراً، فراحوا يأكلون منه ثماني عشرة ليلة، واستفاد من أضلاعه أبو عبيدة رضي الله عنه، وليقدِّم القائد نموذجًا في التعامل الجماعي في أوقات الشدة، خاصة إذا كان الأمر متعلقًا بالطعام، الذي هو أحد أسباب الحياة.

ففي جمع أبي عبيدة الأزواد وقسمتها بالسوية إما إن يكون حكما حكم به لما شاهد من الضرورة وخوفه من تلف من لم يبق معه زاد، فظهر له أنه وجب على من معه أن يواسي من ليس له زاد، أو يكون عن رضا منهم، وقد فعل مثل ذلك غير مرة رسول الله ﷺ ولذلك قال بعض العلماء هو سنة. واستدل بعض العلماء بهذا الحديث بأنه لا يقطع سارق في مجاعة، لأن المواساة واجبة للمحتاجين (٣٤٥).

كما يستفاد من الحديث أيضًا، حسن القيادة، واغتنام كل طعام، وادخاره، كما فعلوا مع الحوت، وترسيخ مبدأ المسؤولية الجماعية عن حياة المرافقين.

وعَنْ الْمُنْذِرِ بْنِ جَرِيرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صَدْرِ النَّهَارِ قَالَ فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ أَوْ الْعَبَاءِ مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنْ الْفَاقَةِ فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ بِلَالاً فَأَذَّنَ وَأَقَامَ فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا وَالْآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ، تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ حَتَّى قَالَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، قَالَ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا بَلْ قَدْ عَجَزَتْ قَالَ : ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ"(٣٤٦)

---

٣٤٤) صحيح البخاري، ج٢، رقم ٢٤٨٣، ص٢٠٣.

٣٤٥) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، محمود بن أحمد العيني بدر الدين أبو محمد العيني، إحياء التراث العربي – بيروت، ج ١٣،ص ٤٢

٣٤٦) صحيح مسلم، رقم ١٠١٧، ص٨٠، ٨١.

فما استثار الرسول هيئة الرجال القادمين إليه من الأعراب البسطاء، حيث رآهم في فاقة شديدة، فهم حفاة، شبه عراة، وهم من قبيلة مضر، فلم يترك الرسول الموقف يمر دون أن يحسن إليهم، فمظهرهم دال على حاجتهم، دون أن ينطقوا أو يطلبوا المساعدة، فصلى بالناس، ثم وقف خطيبًا فيهم، ذاكرًا تقوى الله التي هي مفتاح كل خير، والتي كما تقدم في البعد الرأسي، هي أساس تكوين الشخصية المؤمنة الإيجابية التي تسارع إلى النجدة والمساعدة، ولم يترك ﷺ الأمر على عموميته، بل راح يحث على الصدقة بأقل القليل : بدينار، بدرهم، بصاع تمر، بثوب، بتمرة... حتى تكونت كومتان لثياب وطعام أمام الرسول ﷺ، والبشر يملأ وجهه لمسارعة أصحابه إلى الاستجابة.

لم يكن الأمر أزمة، كما نتوقع، وإنما القوم القادمون يعيشون في أزمة متصلة، أزمة فاقة جعلتهم حفاة عراة، لا يملكون إلا سيوفًا، يمكن استخدامها في السلب والنهب، وهذا وارد في ضوء الحاجة الشديدة، لذا سرعان ما استنهض الرسول صحابته، فلما تسارعوا بالصدقات، أصدر حكًما عامًا، يشمل الحث على فعل الخير، عن طريق طرح الأفكار الطيبة، وحث الناس على أن يقدموا طرائق لمساعدة الناس، وظاهر القول أن من سنّ أمرا حميدا، فعليه أن يكون قدوة للناس بأن يبادر هو بالتطبيق أمامهم، ليتأسوا به في العمل، ومن ثم يكررون ما فعل، فيحصل له المزيد من الثواب، بقدر تكرار الناس فعلته الطيبة. لذا فإن العلماء يرون في هذا الحديث الحث على الابتداء بالخيرات وسن السنن الحسنات، والتحذير من اختراع الأباطيل والمستقبحات، وفي الحديث أيضًا ، تخصيص قوله ﷺ: كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وأن المراد به المحدثات الباطلة والبدع المذمومة [٣٤٧]

ونتعلم درسًا مهمًا من هذا الحديث، ألا وهو عدم الاكتفاء بالتفاعل في الأزمات الطارئة والمفاجأة ، وإنما لابد من قراءة واقع الناس، والتفتيش في أحوالهم، فهناك من يعيش في فاقة وفقر، وتمضي عليه الأيام بطيئة كئيبة، بعضهم يتكفف الناس، ويعضهم يتحمل الفقر، وكلهم في ضنك وشدة. وهذا شأن كثير من الشعوب والبلدان في عالمنا، فيجب على المسلمين، أفرادا وجماعات، متابعة أحوال الفقراء، وعدم تركهم للحاجة التي قد تدفعهم للهلاك أو تفتنهم في دينهم أو بارتكاب المعاصي والآثام من قتل وزنا وسرقة.

فالإسلام الحق، هو الذي عنيت عدالته بالتضامن المادي والتكافل المعيشي بين المسلمين، عند الحاجة والضرورة، كما عنيت عدالته بالتضامن الروحي بينهم، فإذا كان هناك من يحتاج إلى نصح وهداية، فإن هناك من يحتاج إلى أكل وشرب، وهذه العدالة تقضي أن تُوَجَّه العنايةُ إلى الجانب الاقتصادي في حياة الإنسان، مثلما نوجهها إلى الجانب الروحي. وكم من شعوب سقطت في فتنة عظيمة، وتخلت عن دينها، تحت ضغط الفاقة، التي تلغي العقول والقلوب، بألم العري والجوع والعطش [٣٤٨].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ أَصَابَنِي الْجَهْدُ. فَأَرْسَلَ إِلَى نِسَائِهِ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُنَّ شيئًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَلَا

---

٣٤٧) شرح النووي على مسلم، الإمام يحيي بن شرف أبو زكريا النووي، دار الخير، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م، شرح الحديث المذكور، باب الحث على الصدقة، ص٣٨.

٣٤٨) المجتمع الإسلامي في ظل العدالة، د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٦، ص٦٩.

رَجُلٌ يُضَيِّفُهُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ يَرْحَمُهُ اللَّهُ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَالَ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: ضَيْفُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَدَّخِرِيهِ شَيْئًا. قَالَتْ وَاللَّهِ مَا عِنْدِي إِلَّا قُوتُ الصِّبْيَةِ. قَالَ : فَإِذَا أَرَادَ الصِّبْيَةُ الْعَشَاءَ فَنَوِّمِيهِمْ وَتَعَالَيْ فَأَطْفِئِي السِّرَاجَ وَنَطْوِي بُطُونَنَا اللَّيْلَةَ. فَفَعَلَتْ، ثمَّ غَدَا الرَّجُلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَقَدْ عَجِبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَوْ ضَحِكَ مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانَةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ { وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ } " (٣٤٩).

في القصة الكثير من العبر والدلالات، ولكن من منظور إدارة الأزمة، قد يرى البعض أنها مجرد موقف فردي، أو أزمة فردية، ولكن الأمر ليس على هذا النحو، إنها أكثر من أزمة ؛ أزمة رجل تقطعت به السبل، وبلغ التعب والحاجة به مبلغا عظيما من الله، ويبدو أنه غريب عن المدينة المنورة، أو ليس من أهلها، وإلا لجأ إليهم. جاءت شكواه أمام الرسول ﷺ وصحابته الكرام (عليهم الرضوان)، فابتدأ الرسول ﷺ بنفسه، بأن أرسل لأهله، فلم يجد عندهم شيئًا يضيّفه به، دلالة على بساطة عيش الرسول ﷺ وأهل بيته، وزهدهم، فعرض الأمر على صحابته، وتم الأمر على نحو ما جرى مع الصحابي الذي عانى من أزمة أو مشكلة، فالطعام الموجود يكفي الصبية فقط، دون والديهم، ولابد من إكرام الضيف، كيلا يشعر أنه متطفل وأكل ما لديهم من طعام، وأنام الزوجين وأولادهما جياعا.

الحيلة التي لجأ إليها الزوجان بإطفاء السراج، علامة على طيب نفسيهما، وعظم قيمة الكرم، وهي من قيم الجاهلية الطيبة، ولكنها اكتست في الإسلام بالمثوبة الربانية، واتخاذها قربى إلى الله تعالى.

وفي تفسير الآية : { وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ }يقرر ابن كثير أن الصحابة يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم، ويبدأون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك. وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : "أفضل الصدقة جهد المقل". وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله : (ويطعمون الطعام على حبه). وقوله : (وآتى المال على حبه) فإن هؤلاء يتصدقون وهم يحبون ما تصدقوا به، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه. ومن هذا المقام تصدَّق الصديق رضي الله عنه، بجميع ماله، فقال له رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ فقال: أبقيت لهم الله ورسوله . وهذا الماء الذي عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه، وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلى الماء، فرده الآخر إلى الثالث، فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشربه أحد منهم، رضي الله عنهم وأرضاهم (٣٥٠).

وهكذا، كان مجتمع الصحابة - عليهم الرضوان - النموذج الحي للقيم والإرشادات التي رباهم الرسول ﷺ عليها، وذلك هو المحك الحقيقي، فلا معنى للقيم إذا ظلت في العقول ولم تحرّك السلوك

٣٤٩) صحيح البخاري، رقم ٤٨٨٩، ج٣، ص٣٠٦.

٣٥٠) تفسير ابن كثير، ج٨، ص٦٩، ٧٠.

، ولا معنى للمشاعر إن تجمدت في القلوب ولم تدفع الجوارح للعمل ، فكان الرسول قدوة والصحابة مقتدين في التآلف والتراحم والإيثار.

وفي حديث آخر ، عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو أو قل طعام عيالهم بالمدينة ، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية فهم مني وأنا منهم [٣٥١].

إنه نموذج في التواصل الإنساني، حيث يتبنى الرسول ﷺ سلوكًا راقيًا تفعله إحدى قبائل اليمن، إذا اشتدت أحوالهم، وقل طعامهم، بأن يجمعوا ما لدى كل فرد وأسرة من طعام، ويعيدون تقسيمه فيما بينهم، ليكون كل فرد واحدًا متساويًا في الحقوق والواجبات، فيشعر كل واحد بالأمان وسط الجماعة الحانية والحامية للجميع.

وفي الحديث فضيلة الأشعريين وتميزهم بهذه الفعلة بين القبائل ، وفضيلة الإيثار والمواساة ، وفضيلة خلط الأزواد في السفر ، وفضيلة جمعها في شيء عند قلّتها في الحضر ، ثم يُقسَّم ، وليس المراد بهذا القسمة المعروفة في كتب الفقه بشروطها، ومنعها في الربويات، واشتراط المواساة وغيرها، وإنما المراد هنا إباحة بعضهم بعضا ومواساتهم بالموجود [٣٥٢]

أيضًا ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ: طعام الاثنين كافي الثلاثة وطعام الثلاثة كافي الأربعة [٣٥٣].

هذا الحديث يتبع في دلالته الحديث السابق، فطعام الواحد يكفي الاثنين وطعام الاثنين يكفي الثلاثة وهكذا دواليك، فالعبرة ليست في قلة أو زيادة الطعام، وإنما في النفوس السامحة أو المانعة لبذل الطعام، ودعوة الآخرين له في وقت السلم ؛ كرمًا وجودًا، وفي وقت الشدة عطاءً وبذلاً.

والجامع بين الحديثين أن مطلق طعام القليل يكفي الكثير لكن أقصاه الضعف، وكونه يكفي مثله لا ينفي أن يكفي دونه. نعم كون طعام الواحد يكفي الاثنين يؤخذ منه أن طعام الاثنين يكفي الثلاثة بطريق الأولى بخلاف عكسه. ومعنى الحديث أن الطعام الذي يشبع الواحد يكفي قوت الاثنين، ويشبع الاثنين قوت الأربعة. وقال المهلب المراد بهذه الأحاديث الحض على المكارم والتقنع بالكفاية، يعني وليس المراد الحصر في مقدار الكفاية، وإنما المراد المواساة وأنه ينبغي للاثنين إدخال ثالث لطعامهما وإدخال رابع أيضًا بحسب من يحضر فيؤخذ منه أن الكفاية تنشأ عن بركة الاجتماع ، وأن الجمع كلما كثر ازدادت البركة ، وفيه أنه لا ينبغي للمرء أن يستحقر ما عنده فيمتنع من تقديمه، فإن القليل قد يحصل به الاكتفاء، بمعنى حصول سد الرمق وقيام البنية، لا حقيقة الشبع [٣٥٤]. ولم يكتف الإسلام برعاية الإنسان، بل شملت عنايته البهائم أيضًا بوصفها مسخّرة للإنسان، وفيها كثير من مآربه. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، قال : بينما رجل يمشي بطريق اشتد

---

٣٥١) صحيح مسلم، رقم ٢٥٠٠

٣٥٢) شرح النووي على مسلم، شرح الحديث كتاب فضائل الصحابة، باب : فضل الأشعريين، ص٥١.

٣٥٣) صحيح البخاري، ج٤، رقم ٥٠٧٧.

٣٥٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب طعام الواحد يكفي الاثنين، شرح الحديث المذكور، ص٤٤٦، ٤٤٧.

عليه العطش، فوجد بئرًا فنزل منها فيها فشرب، ثم خرج فوجد كلبًا يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان قد بلغ بي، فنزل فملأ خفه ثم أمسكه بفيه، فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له. قالوا : يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجرًا ؟ فقال : في كل ذات كبد رطبة أجر"[٣٥٥].

إننا نجد هنا أزمة ، نعم هي أزمة ، تخص مخلوقًا من مخلوقات الله ، كلبا يكاد يموت عطشا ، فيسارع الرجل لسقيه بخفه ، ونلاحظ أن كلاً من الرجل والكلب عانى من نفس الأمر ، فالعطش الشديد مهلكة للبشر والزرع والدواب... إلخ. وإذا كانت عناية الإسلام بالحيوان بالغة كما رأينا في هذا الحديث وغيره من الأدلة، فهذا يرجع إلى مبادئ الرحمة والرفق والإحسان التي تغلِّف الشريعة الإسلامية ، في كل أحكامها ، وهي ترتبط بحقوق على الأفراد واجبة وليست زائدة ، يثاب المؤمن عليها بفعله إياها، ويعاقب بتركها. فالإحسان واجب في معاملة الخلق ومعاشرتهم، وذلك بالقيام بما أوجب الله من حقوق نحوهم ، والإحسان الواجب في ولاية الخلق وسياستهم يتمثل في القيام بواجبات الولاية كلها، والقدر الزائد على الواجب في ذلك كله ليس بواجب [٣٥٦]. أما الرفق بالحيوان والدواب فيكون بعدم ظلمه أو تعذيبه أو تحميله فوق طاقته أو تجويعه هو عين الإحسان الذي أوجبه الخالق سبحانه وتعالى [٣٥٧]. كما أنه يحرم تكليف الدواب فوق طاقتها من شدة السير، وثقل الحمول، وضربها بالسياط الموجعة، والأخشاب الغليظة، والتقصير في علفها وسقيها، واستخدامها إذا كَبِرت أو مرضت فيما لا تطيق ، كما يفعل كثير من أصحابها الذين لا يخافون الله ، ولا يرحمون ضعيفًا ، ومن لا تفيده الموعظة ، ولا تنفعه النصيحة فواجب أن يخاطب باللغة التي يفهمها لغة الوعيد والتهديد ، والعقوبة العاجلة الصارمة فيخسر أو يسجن ، أو تخلص دابته من تعذيبه وسوء معاملته، وحرام على أحد أن يسيب البهائم التي ينتفع بها، ومن عجز عن حقها فليبعها أو يذبحها أو يهبها لإنسان آخر [٣٥٨].

ويمكن أن نوجز خلاصة هذا الفصل في كلمات : فالإسلام يبني المسلم التقي النقي مخموم القلب ، من أجل أن يحيا سعيدًا في دنياه بإيمانه وحسن خلقه ، ومن أجل أن يكون فردًا صالحًا في جماعته المؤمنة ، يساعد ذوي الحاجة ، ويجير من يستنصره ، ويذود عن الضعيف ، ويراقب أداء المسؤول ، ويحل الأزمات بحسن إدراكه وفراسته ، مستهديًا ومستفيدًا من أوامر الله تعالى ونواهيه في القرآن الكريم ، وإرشادات الرسول ﷺ في السُنَّة النبوية الشريفة. إنه مجتمع الفرد الساعي في سبيل الجماعة، والجماعة حامية الفرد.

وفي الفصل التالي ، سنتناول بعض قصص الأزمات التي قصَّها الرسول ﷺ ، متوقفين عند النهج النبوي الشريف المتبع فيها.

---

٣٥٥) صحيح البخاري، ج٤، رقم ٦٠٠٩، ص٩٣.

٣٥٦) جامع العلوم والحكم، ص١٨٨.

٣٥٧) وجوب الرفق بالحيوان وتحريم ظلمه وتعذيبه، الشيخ عبد الله بن حمد العبودي، بحث منشور بمجلة البحوث الإسلامية، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، الرياض، المملكة العربية السعودية، العدد (٣٤)، ١٤١٢هـ، ص١٦١.

٣٥٨) السابق، ص١٦٥.

الفصل الثالث

من قصص الأزمات في الأحاديث الشريفة

للرسول ﷺ منهج واضح في تربية وتعليم صحابته رضي الله عنهم، فله وسائل عديدة منها : أنه يقدم القدوة من خلال شخصه وسلوكه، فكأنه مصباح يشع بضوئه على من حوله، كلٌ يأخذ من نوره، ويرى القيم السامية التي ينادي بها الإسلام تتجسد في شخصية نبيّه. كما يقدم "الموعظة" المباشرة من خلال أحاديثه وكلماته التي يبثها للناس، متى وأينما التقاهم، وكان يتخوّلهم في ذلك دون أن يرهقهم بطول الكلام ولا بكثرة المواعظ، في الوقت الذي يمكن أن يناقش الناس فيما يسألونه عبر منهجه الحواري الراقي، فيسمع منهم ويجيب، أو يسألهم ويختبر ذكاءهم ثم يقر ما قالوا أو يصحح مفاهيمهم. وربما ضرب أمثلة من الواقع العملي، أو يعيد صياغة أمثلة معروفة لديهم، ويكسبها الروح الإسلامية الحميدة، ولم يكن يترك حادثة تمرّ إلا واستغلها في ترسيخ قيمة أو تدعيم فكرة أو إعلاء مبدأ. ولعل سرد القصص كان منهجا واضحًا لدى الرسول ﷺ، حيث كان يقص على صحابته قصصا عديدة، بعضها من الأمم السابقة، والبعض الآخر كان ضمن الأمثال التي يضربها للناس لتقريب الفكرة وتوضيحها[٣٥٩].

لقد كان من رحمة الله تعالى على نبيه محمد ﷺ أن قصَّ عليه من أخبار الأنبياء مع أقوامهم من قبله ما كان عزاءً له بعد عزاء، وتسلية لنفسه وتثبيتًا لفؤاده، وأمره أن يقصّ على الناس ما أوحاه الله إليه من قصص الأنبياء والأمم السابقة ليتفكروا في أحوال الغابرين ويتأسوا بالصالحين، قال تعالى: {لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا}[٣٦٠] ، وقال جل شأنه: {فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}[٣٦١]

وسنقوم في هذا الفصل بعرض بعض القصص التي سردَها الرسول على صحابته، وتتصل بمنهجه النبوي الشريف في إدارة الأزمة، كجزء من أسلوبه في تربية وتعليم صحابته.

١) إخلاصُ العمل مفتاحُ الحل (قصة أصحاب الغار) :

تمثل تلك القصة أزمة من نوع خاص، إنها أزمة ثلاثة، واجهوا الموت، عندما سقطت صخرة من أعلى الجبل فسدت باب الغار الذي لجأوا إليه لقضاء ليلتهم، لقد كانوا أمام هذا المحنة في حالة من الإيمان والتسليم التام بقضاء الله، فالصخرة ضخمة، ولن يصلح معها أي جهد بشري، فما على المرء إلا اللجوء إلى الله سبحانه.

---

٣٥٩) انظر تفصيلا : منهج الرسول في التربية من خلال السيرة النبوية، منال موسى علي دبابش، رسالة ماجستير، (نشر إلكتروني)، الجامعة الإسلامية، غزة، كلية التربية، قسم أصول التربية، العام ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م، الفصل الرابع، الصفحات ٤٩ -٦٩.

٣٦٠) سورة طه، الآية (١١٣).

٣٦١) سورة الأعراف، الآية (١٧٦).

عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال: "بَيْنَمَا ثَلاَثَةُ نَفَرٍ يَمْشُونَ، أَخَذَهُمُ المَطَرُ، فَأَوَوْا إلى غَارٍ فِي جَبَلٍ، فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الجَبَلِ، فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالاً عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لِلَّهِ، فَادْعُوا اللَّهَ بِهَا لَعَلَّهُ يُفَرِّجُهَا عَنْكُمْ. قَالَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ، كُنْتُ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا رُحْتُ عَلَيْهِمْ حَلَبْتُ، فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ أَسْقِيهِمَا قَبْلَ بَنِيَّ، وَإِنِّي اسْتَأْخَرْتُ ذَاتَ يَوْمٍ، فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ، فَوَجَدْتُهُمَا نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ حَتَّى طَلَعَ الفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُهُ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا فَرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ. فَفَرَجَ اللَّهُ، فَرَأَوُا السَّمَاءَ. وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنَّهَا كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ أَحْبَبْتُهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ، فَطَلَبْتُ مِنْهَا، فَأَبَتْ عَلَيَّ حَتَّى أَتَيْتُهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَبَغَيْتُ حَتَّى جَمَعْتُهَا، فَلَمَّا وَقَعْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا، قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللَّهِ اتَّقِ اللَّهَ، وَلاَ تَفْتَحِ الخَاتَمَ إِلاَّ بِحَقِّهِ. فَقُمْتُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُهُ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا فَرْجَةً. فَفَرَجَ. وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ، فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ، قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي. فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ، فَرَغِبَ عَنْهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرَاعِيَهَا، فَجَاءَنِي فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ. فَقُلْتُ: اذْهَبْ إلى ذَلِكَ البَقَرِ وَرُعَاتِهَا، فَخُذْ. فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تَسْتَهْزِئْ بِي. فَقُلْتُ: إِنِّي لاَ أَسْتَهْزِئُ بِكَ، فَخُذْ. فَأَخَذَهُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ مَا بَقِيَ. فَفَرَجَ اللَّهُ". وفي رواية: "فخرجوا يمشون". [٣٦٢]

تمثلت الأزمة في حبس الرجال الثلاثة داخل الغار، وكان لزاما على كل واحد أن يستحضر خبيئة بينه وبين ربه، لعل الله يفرّج عنهم كربتهم، فإن الأسباب الدنيوية امّحت في هذا الموقف، ولا سبيل أمام المؤمن في تلك الحالة إلا اللجوء إلى المولى سبحانه، فراح كل واحد من الثلاثة يبتهل إلى الله بخبيئة نفسه . قال رسول الله ﷺ: "من استطاع منكم أن يكون له خبء من عمل صالح فليفعل" [٣٦٣]، والخبيئة هي : العمل الصالح المختبئ الذي يكون في السر ويتحرى صاحبه أن يكون سرا بينه وبين ربه ، فهناك أمر نغفل عنه وهو المعادلة بين الأفعال رجاء المغفرة؛ فلكل إنسان عمل سيئ يفعله في السر، فأولى له أن يكون له عمل صالح يفعله في السر أيضًا لعله أن يغفر له الآخر، وكما يقول الزبير بن العوام : اجعلوا لكم خبيئة من العمل الصالح كما أن لكم خبيئة من العمل السيئ [٣٦٤]. فمقولة الزبير تشير إلى أن الإنسان يستتر من أعماله السيئة، ويكره أن يُطلِع الناس عليها، خجلا ورغبة أن تكون سمعته وسمته حَسِنين أمامهم، فلتكن الرغبة في الاستتار هذه بفعل الأعمال الصالحة، وعدم الإعلان عنها، ولا المجاهرة بها، لتظل سرا بين صاحبها وبين الخالق جل وعلا ، وشتان ما بين الخبيئة بمفهومها العظيم، وبين المعصية في الخفاء.

---

٣٦٢) صحيح البخاري، رقم ٣٤٦٥، ج٢، ص٤٩٥، ٤٩٦م، ورواه مسلم في صحيحه برقم ٢٧٤٣.

٣٦٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، محمد ناصر الدين الألباني، نشر : المكتب الإسلامي، دمشق، ١٣٩٢هـ، ١٩٧٢م، ج٥، ص٣٩٨.

٣٦٤) المصنف لابن أبي شيبة، للإمام أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، ت ٢٥٩ هـ، تحقيق : محمد عوامه، نشر : دار القبلة (جدة)، مؤسسة علوم القرآن (دمشق)، ط١، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م، ج ٧،ص١٣٢.

وقد استحضر النفر الثلاثة خبيئاتهم مع الله سبحانه، موقفا كان كل فرد يريد وجه الله فيه، لا رياء ولا سمعة، على حد قولهم : انْظُرُوا أَعْمَالاً عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لِلَّهِ، فَادْعُوا اللَّهَ بِهَا لَعَلَّهُ يُفَرِّجُهَا عَنْكُمْ "، فالنية الصافية الصادقة لله سبحانه، هي الكامنة في الخبيئة، فراح كل فرد من الثلاثة يستحضر خبيئته، داعيًا الله أن يفرّج عنهم.

وقد أشار العلماء في هذا الصدد ؛ إلى جواز التوسل بالأعمال الصالحة، وهو التوسل إلى الله تعالى بالإيمان به وطاعته، ويدخل في ذلك كل عمل قام به العبد بقلبه أو لسانه أو جوارحه خوفا من الله أو رجاء له وحده - لا لدافع آخر. وتكون كيفيته بأن يتذكر الداعي عملاً صالحًا قام به لله وحده لا لدافع آخر بعد أن يتذكر العمل يتوجه إلى ربه متوسلاً بهذا العمل في أن يعطيه أو يدفع عنه، مثاله : كأن يقول المسلم : اللهم بإيماني بك واتباعي لرسولك اغفر لي، أو يقول : اللهم إنك تعلم بأني عملت كذا - ويسمي عملاً قام به لله وحده - اللهم إن كنت عملته رجاء لثوابك وخوفا من عقابك فأعطني كذا أو ادفع عني كذا، ونحو ذلك [٣٦٥]، وهذا ما رأيناه في الحديث الشريف المتقدم.

وفي القصة فوائد عديدة، لابد من التوقف عندها :

فالفائدة الأولى : إن أقل الجمع في اللغة هو الثلاثة، لذلك فإن هؤلاء الثلاثة يمثلون المجتمع الإسلامي بأقل تجمعاته. ولو سألنا أنفسنا لو أن واحدًا من هؤلاء الثلاثة لم يكن عنده عمل صالح يرقى إلى قبول الله عز وجل فما الذي يستفيده الآخران، فتكامل العمل الصالح بين أفراد الأمة هو السبيل الوحيد الذي سيزيل الصخرة الجاثمة على صدر الأمة [٣٦٦].

ففي أوقات الأزمة، وعندما يشتد ظلامها، ويعرف العباد أن لا سبيل أمامهم إلا الله سبحانه ليكشف الغمة، فعليهم أن يلوذوا به، وينحّوا الدنيا وما فيها من قلوبهم، ويُصدِقوا الدعاء والرجاء. وفي قصة أصحاب الغار ثلاثة نفر، يمثّل كل فرد نموذجا لحالات ومواقف اجتماعية ؛ فالأول : يمثل صلة الرحم، وكيف أنه قائم على والديه وهما نائمان، غير عابئ بأبنائه الصغار وهم يصرخون بين قدميه، يريد ألا يسبق أحد والديه الشيخين في الشراب، إنها صلة الرحم وطاعة الوالدين في أروع صورها ؛ بأن يقدّم العبد والديه على نفسه وأولاده، مقدرًا عطاءهما، موقرًا سنهما الكبير، ويبدو أن هذا ديدنه في حياته ؛ القيام على خدمة والديه بحب وإشفاق وطاعة، وما ذلك الموقف إلا دليل واضح على بره لوالديه.

والثاني : يمثّل تأديب النفس في الشهوة، فلم يستغل حاجة ابنة عمه للمال، ولا حبه الشديد لها، كي ينال من شرفها دون رباط شرعي، وإنما قام عنها خائفا من ربه، راجيا ثوابه، وقد ذكرته ابنة عمه بتقوى الله، فخاف وارعوى.

والثالث : يمثّل الأمانة على المال وأجر العمال وإن قل، فقد احتفظ بأجر العامل الذي عمل عنده ليوم واحد، وهو إن زاد لن يكون إلا دريهمات، فقام على تثميره، حتى غدا كبيراً بمرور الزمن، فلما

---

٣٦٥) التوسل المشروع والممنوع، د. عواد بن عبد الله المعتق، بحث بمجلة البحوث الإسلامية، الرئاسة العامة للإفتاء والبحوث العلمية، العدد ٧٤، ١٤٢٥هـ، ١٤٢٦هـ، ص١١٧.

٣٦٦) رؤى في أحاديث القصص، قصة أصحاب الغار، عبد اللطيف البريجاوي، دراسة على موقع صيد الفوائد http://www.saaid.net/Doat/brigawi/14.htm

جاء صاحبه ساق المال إليه بقرا وخيراً، ولو شاء لاكتفى بالأجر فقط، ولكنه أراد المزيد من المثوبة والأجر، وأصدق نيته في ذلك.

الفائدة الثانية : في قصة الرجل الأول الذي وقف على رأس والديه حتى استيقظا إشكالية تستدعي التساؤل التالي : إن هذا الفعل الذي فعله، ليس فرضًا ولا واجبًا ، ومع ذلك فهو ارتقى لأن يقبله الله عز وجل، ويفرج عنهم بسببه، ولو أن هذا الرجل اكتفى بأن احتفظ لوالديه بنصيبهما من الغبوق لكفاه ذلك، ولما دخل في دائرة الحرج، إن هذا ما يسمى بالشعور بالتأنق وهو أن يلزم الإنسان نفسه بفضيلة لها أصل في الشريعة، ومهما كانت الأسباب ومهما كانت الظروف فإنه يحافظ عليه وهذه المحافظة هي التي جعلت عمل ذلك الإنسان يرقى للقبول من الله عز وجل [٣٦٧]، وكل مسلم يستطيع أن يجعل ذلك في حياته، فيتصدق بصدقه ويحافظ عليها ويصلي صلاته ويحافظ عليها، المهم أن يكون هذا لزاما عليه، ومخلصا النية فيه، ويجعله مستترا بينه وبين ربه.

الفائدة الثالثة : في موقف ابنة العم، التي عانت الفقر، وأجبرها الفقر أن تمنح جسدها كارهة لابن عمها المحب لها، والذي قام عنها في لحظة اشتداد الشهوة، عندما قالت له : يَا عَبْدَ اللَّهِ اتَّقِ اللَّهَ، وَلاَ تَفْتَحِ الخَاتَمَ إِلاَّ بِحَقِّهِ. وكم من نساء فقدن شرفهن، وسقطن في الإثم تحت ضغوط الفقر والحاجة، وهذا ليس إلا ببطر الأغنياء، وشح الموسرين، وطمع أصحاب الأموال والشهوات. ولننظر إلى كم الكبير من المسلمين والمسلمات الذين ألجأتهم الحاجة إلى براثن الفساد، أملا في إطعام أبنائهم، وحفظ حياتهم.

الفائدة الرابعة : في مجمل العلاقات الاجتماعية، والتي رأيناها في القصة على ثلاثة امتدادات: في صلة الرحم الأقرب والملاصقة للإنسان (الوالدين)، وفي صلة الرحم القريبة وتتمثل في أبناء العمومة، وفي العلاقة بين أفراد المجتمع من نستفيد من جهودهم في مقابل أجر مادي يكون واجبا علينا أداءه ، ونحفظه في ذمتنا إن غابوا.

الفائدة الخامسة : في القصة درس عدم المنّ، فلم يمنّ أي من الثلاثة بمعروفه، فقد عدّ المعروف خبيئة لله تعالى، فلم يعدد الأول ما فعله بوالديه ولا منّ عليهما، ولم يفضح الثاني ابنة عمه، ولم يستغلها أو يذكرها بما فعل، ولم يمن الثالث على الأجير بل بارك له فيما أعطاه، وهذا مصداق لقول رسول الله ﷺ : " لا يدخل الجنة عاق، ولا منّان، ولا مدمن خمر، ولا ولد زانية " [٣٦٨] وفي حديث آخر : " ثلاثة لا ينظر الله عز وجلّ إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه، والمرأة المترجلة، والديوث. وثلاثة لا يدخلون الجنة : العاق لوالديه، والمدمن الخمر، والمنان بما أعطى " [٣٦٩].

---

٣٦٧) السابق.

٣٦٨) سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، ج١، رقم ٦٧٣، ص٢٨٥. والمراد بولد زنية، ليس على ظاهرة، وإنما من تحقق بالزنا وصار كثير الفعل له، وغلب عليه، فاستحق بذلك أن يكون منسوبا إليه، كما ينسب المتحققون بالدنيا إليها، فيقال لهم : بنو الدنيا بعملهم.

٣٦٩) السابق، ج١، رقم ٦٧٤، ص٢٨٩.

وعلى صعيد المستفاد من هذا الحديث في النهج النبوي الشريف في إدارة الأزمات، جملة دروس وعظات :

- إن هناك من الأزمات ما لا طاقة للإنسان مهمًا أوتي من ذكاء وقوة على فعله والتصدي له، وهذه تصيب الفرد والجماعة، وفيها اختبار حقيقي للإيمان بالله تعالى، والتوكل التام على الله.
- لم يستسلم النفر الثلاثة إلى المصير المجهول وهم يرون الصخرة مطبقة على مدخل الغار، وإنما أخلصوا نياتهم وأدعيتهم، مستحضرين أكثر المواقف التي أخلصوا فيها العمل لله تعالى، فمنّ الله عليهم بالفرج. مما يعطينا بعدا مهمًا ، تغفله جلّ الدراسات في علم إدارة الأزمات، وهو الاستعانة بالله تعالى أولا ودائما وإن توافرت الأسباب المادية للحل، قبل وأثناء وبعد الأزمة، فالله تعالى هو ميسر العوامل ومهيئ للظروف للحل، وكثير منها لا دخل للجهد الإنساني فيها، وإنما هي منح ربانية تأتي للمخلصين الصالحين.
- رأينا في الأسلوب النبوي الشريف في سرد القصة مصارحة بما في النفس من رغبات، فالرجل الثاني أقر بضعفه البشري أمام ابنة عمه، وأنه أراد بها شهوة دون زواج شرعي، لكنها ذكّرته بما هو واجب، فامتثل، منتصرا على ضعفه وشهوته، وهذا يعلمنا أن قمة النصر يأتي بقهر الشهوة والرغبة، والتمسك بتقوى الله تعالى، وأن هذا هو السبيل للإنجاء في محن الحياة.
- رأينا بر الوالدين في أبهى صوره، والأهم تقديم الوالدين على الأبناء، كما رأينا الأمانة على أجر العامل البسيط، وتنميته، وإعطائه بحب ووفاء وسخاء، في دلالة على أن سعادة الإنسان تكمن في جزء أساسي منها ؛ في إسعاد من حوله من الناس، الأقربين بصلة الدم والأبعدين من البسطاء والفقراء، وهو من أشد عوامل لحمة المجتمع وترابطه.
- لو نظرنا على الجانب الآخر، أي في المعروف الذي صنعه كل فرد للآخر حوله، فقد كان الطرف الآخر في أزمة على المستوى الشخصي، فالوالدان الشيخان في أزمة الاحتياج إلى خدمة الابن ورعايته لهما، في سنهما المتقدم، فماذا لو كان هذا الابن عاقا أو كان هذان الشيخان دون ذرية في الدنيا ؟ فجاء سلوك الابن الدائم، سبيلاً لحل أزمة والديه، وبقدر ما كان يحنو عليهما ويرعاهما، كان الله معه في محنته، كي يعود لهما ولأولاده في خير ويكمل رسالته معهم.
- كانت ابنة العم في أزمة، حينما احتاجت للمال، واضطرت إلى التنازل في المقابل، وجاء كرم ابن عمها المحب لها، فرجا لأزمتها، وأيضًا لأزمته هو شخصيا، بتخلّصه من عشقه المحرّم، ملتجئا إلى تقوى الله ورضاه.
- كانت أزمة العامل الأجير البسيط في صعوبة معيشته، لذا سعى للحصول على أجرة يومه بعد انقضاء فترة زمنية طويلة، فلم يتوقع أن يكون الأجر بهذا الحجم من الخير، الذي يمكن أن يجعله في بحبوحة من العيش.

٢) الابتلاء بالضراء والسراء (قصة الأبرص والأعمى والأقرع) :

يروي أبو هريرة ﵁ أنه سمع رسول الله ﷺ، يقول: إن ثلاثة في بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى، بدا لله عز وجل أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكا، فأتى الأبرص فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : لون حسن وجلد حسن قد قذرني الناس. قال : فمسحه فذهب عنه، فأعطي لونًا حسنًا وجلدًا حسنًا، فقال أي المال أحب إليك ؟ قال : الإبل أو قال البقر هو شك في ذلك، إن الأبرص والأقرع قال أحدهما الإبل وقال الآخر البقر، فأعطي ناقة عشراء فقال : يبارك لك فيها... وأتى الأقرع، فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال شعر حسن ويذهب عني هذا قد قذرني الناس، قال : فمسحه فذهب وأعطي شعرًا حسنًا، قال : فأي المال أحب إليك ؟ قال البقر. قال : فأعطاه بقرةً حاملاً، وقال: يبارك لك فيها.. وأتى الأعمى، فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : يرد الله إلي بصري. فأبصر به الناس ، قال : فمسحه فرد الله إليه بصره. قال: فأي المال أحب إليك ؟ قال الغنم فأعطاه شاة والدًا، فأنتج هذان وولد هذا، فكان لهذا وادٍ من إبل، ولهذا وادٍ من بقر، ولهذا وادٍ من غنم.

ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال : رجل مسكين تقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرا أتبلغ عليه في سفري. فقال له: إن الحقوق كثيرة. فقال له : كأني أعرفك ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيراً فأعطاك الله ؟ فقال : لقد ورثت لكابر عن كابر، فقال : إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت. وأتى الأقرع في صورته وهيئته، فقال له مثل ما قال لهذا، فرد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال : إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأعمى في صورته فقال: رجل مسكين وابن سبيل وتقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري. فقال : قد كنت أعمى فرد الله بصري وفقيرا فقد أغناني فخذ ما شئت فو الله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله. فقال أمسك مالك، فإنما ابتليتم فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك" (٣٧٠).

إنها قصة نفر ثلاثة من بني إسرائيل، تعرض كل واحد منهم ببلاء في جسده، وتمثّل هذا البلاء في عاهات وأمراض لا شفاء منها : برص، وعمى، وقرع، وعانوا من قرف الناس منهم، وهجرانهم لهم. وقد أراد الله عز وجل أن يختبرهم، ليظهر الشاكر من الكافر، فأرسل لهم مَلَكًا من ملائكته، ليعرض على كل واحد منهم ما يتمناه في حياته، فكان من الطبيعي أن يسأل أن يتخلص من مرضه وعاهته، وأن يؤتى المال وفيرا.

فجاء إلى الأبرص فسأله عما يريد، فتمنى أن يزول عنه برصه، وأن يُعطى لونا حسنا وجلدا حسنا، فمسحه فزال عنه البرص، وسأله عن أحب المال إليه، فاختار الإبل، فأعطي ناقة حاملاً ، ودعا له الملك بالبركة. فنعم الأبرص بهيئة جديدة، ومال متكاثر من الناقة، مما يعني عودته إلى مجتمعه وسيما غنيا.

ثم جاء إلى الأقرع، فتمنى أن يزول عنه قرعه، فمسح على رأسه فزال عنه، وأعطي شعرا حسنا، وسأله عما يريد من المال، فاختار البقر، فأعطي بقرة حاملاً ، ودعا الملك له بالبركة فيما رُزق، فكان

٣٧٠) صحيح البخاري، رقم ٣٤٦٤، ج٢، ص٤٩٤، ٤٩٥.

هذا بداية جديدة له، فلن يعيّره أحد بقرعه، بل سيشيدون بجمال الشعر والوجه، وما رزق من بقرة يستغل حليبها وتناسلها.

ثم جاء إلى الأعمى، فسأله كما سأل صاحبيه، فتمنى أن يُرَدَّ عليه بصره، فأعطي ما تمنى، وكان أحب الأموال إليه الغنم، فأعطي شاة حاملاً، وكانت له السعادة والخير.

ومضت السنون، لنعرف كيف نما الخير لكل واحد منهم، وكيف بارك الله لهم فيما أعطاهم، فإذا بكل فرد يملك واديًا من الصنف الذي أخذه، فالأول يملك واديًا من الإبل، والثاني يملك واديًا من البقر، والثالث يملك واديًا من الغنم. فتمت نعمة الله على كل واحد منهم، ثراء وجاها واستقرارا وجمالا في الجسد.

وهنا جاء موعد الاختبار، وهو اختبار السراء بعد ضراء، فعاد إليهم المَلَكُ، وجاء كلّ واحد منهم في صورته التي كان عليها ليذكر نعمة الله عليه، فجاء الأول على هيئة مسافر فقير أبرص، انقطعت به السبل وأسباب الرزق، وسأله بالذي أعطاه الجلد الحسن واللون الحسن، والمال الوفير، أن يعطيه بعيراً يواصل به سيره في سفره، فأنكر الرجل النعمة، وبخل بالمال، واعتذر بأن الحقوق كثيرة، فذكَّره الملك بما كان عليه قبل أن يصير إلى هذه الحال، فأنكر وتكبر وجحد، وادّعى أنه من بيت ثراء وغنى ، وارثا المال كابرا عن كابر، فدعا عليه المَلَك إن كان كاذبًا أن يعود إلى الحال التي كان عليها، ثم جاء الأقرع بنفس الصورة وقال له مثل ما قال للأول، وكانت حاله كصاحبه في الرفض والمنع، أما الأعمى فقد كان من أهل الإيمان والتقوى، ونجح في الامتحان، وأقر بنعمة الله عليه، من الإبصار بعد العمى، والغنى بعد الفقر، ولم يعط السائل ما سأله فقط، بل ترك له الخيار أن يأخذ ما يريد من غنم، وأخبره بأنه لن يشق عليه برد شيء يأخذه أو يطلبه من المال، وهنا أخبره الملك بحقيقة الأمر وتحقق القصد من التجربة، وهو ابتلاء الثلاثة بالخير بعد شدة وفاقة، وأن الله رضي عنه وسخط على صاحبيه.

يمكن أن نقرأ هذه القصة في ضوء فقه الأزمات بنواح عديدة :

إنها توضح جليًا، أن الابتلاء سنة من سنن الله مع عباده ، فالله تعالى يختبر عباده بالسراء والضراء والخير والشر، مصداقًا لقوله تعالى : { وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ } [٣٧١]، ليتميز المؤمن من العاصي والجاحد، ومصداقا لقوله جل شأنه : {الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ}[٣٧٢] فالبلاء يميّز معادن الناس، فينقسمون إلى صابرين حامدين لربهم، أو إلى مدَّعين كاذبين، وعلى قدر دين العبد وإيمانه يكون البلاء، وفي المسند عن سعد بن أبي وقاص ﵁ قال : قلت : يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء ؟ قال : " الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل من الناس، يبتلى الرجل على

٣٧١) سورة الأنبياء، الآية (٣٥).

٣٧٢) سورة العنكبوت، الآيات (١-٣).

حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة " (٣٧٣).

مما يجعلنا نتأمل مع الأزمات بمنظور جديد، فليس كل أزمة مصيبة تصيب العبد أو المجتمع صغيراً كان أم كبيراً ، وإنما تكون الأزمة ابتلاءً واختبارًا من الله لعباده، ليعرف الصادق والمحتسب من الذين يعبدون الله على حرف. وتأتي الأزمات في الحياة على قدر دين المرء، فكلما اشتد دينه، وعظم إيمانه، ابتلي بالشدة، وإذا كان دينه ضعيفا، خفّف الله عنه في البلاء، ولتكون المحصلة في نهاية الأمر، تخلص العبد من ذنوبه، فقد تطايرت منه السيئات بفعل الأزمات والابتلاءات التي مرَّ بها، وليلقى الله تعالى، خاليا من الذنب والمعصية، فمحنة الدنيا تكفير للذنوب، وأهون من نار جهنم، عافانا الله من لهيبها.

لتصبح " تلك المحن والابتلاء عين كرامته، وهي مما زاده الله بها شرفا وفضلا وساقه بها الى أعلا المقامات وهذا حال ورثته من بعده الأمثل فالأمثل، كل له نصيب من المحنة يسوقه الله به إلى كماله بحسب متابعته له، ومن لا نصيب له من ذلك فحظه من الدنيا حظ من خلق لها وخلقت له... فلله سبحانه من الحكم في ابتلائه أنبياءه ورسله وعباده المؤمنين ما تتقاصر عقول العالمين عن معرفته وهل وصل من وصل الى المقامات المحمودة والنهايات الفاضلة إلا على جسر المحنة والابتلاء " (٣٧٤)

أيضًا ، فإن الأزمة لا تقتصر على البلاء بالفقر والمرض والعاهة، وإنما قد تكون بالخير والنعمات، ليرى الله كيف يكون إيمان العبد وبذله وإقراره بنعم الله عليه.

لقد رأينا في القصة السابقة، أننا إزاء أزمات لثلاثة من الرجال، وهي في الحقيقة أزمة واحدة، وإن تنوّعت أشكالها ؛ إنها أزمة تشوه الشكل والجسد بفعل المرض والعاهة، وأيضًا الفقر والحاجة، ولما جاء الفرج / الحل / الاختبار، على يد الملَك، فقد كان بداية لأزمة جديدة أو بالأدق اختبار جديد، فقد انتقلوا من محنة الفقر والمرض إلى محنة المعافاة والثراء والاغترار بالدنيا، فخسر اثنان، وربح الثالث، لتستمر النعمة على الثالث، ويعود الأوّلان إلى عهدهما السابق، من العوز والتشوه.

لقد فشلوا في اختبار النعمة ، ولعل السر في ذلك أن الشدَّة تحفز طاقات الإنسان، وتثير فيه التحدي والمواجهة، وتشعره بفقره إلى الله تعالى، وأهمية التضرُّع والرجاء والصبر، أما السراء، فإن النفس تسترخي فيها، وتفقد القدرة على اليقظة والمقاومة، فهي توافق هوى النفس، وتخاطب الغرائز، التي تستمتع بالنعم، وتنسى المنعم العظيم.

يقول الإمام ابن القيم : " إن المحنة تعظم فيه أولا ليتأخر من ليس من أهله فإذا احتملها وتقدم انقلبت تلك المحن منحا، وصارت تلك المؤن عونا، وهذا معروف بالتجربة الخاصة والعامة، فإنه ما

---

٣٧٣) سنن الترمذي مرفوعا عن وكيع بن الجراح، رقم (2335)، والمستدرك على الصحيحين رقم (١٠٩)

٣٧٤) مفتاح دار السعادة، ج١، ص٣٠١.

آثر عبد مرضاة الله عز وجل على مرضاة الخلق، وتحمل ثقل ذلك ومؤنته وصبر على محنته، إلا أنشأ الله من تلك المحنة والمؤنة نعمة ومسرة ومعونة، بقدر ما تحمل من مرضاته، فانقلبت مخاوفه أمانا ومظان عطبه نجاة وتعبه راحة ومؤنته معونة وبليته نعمة ومحنته منحة وسخطه رضى فيا خيبة المتخلفين ويا ذلة المتهيبين " (٣٧٥).

وذلك ما حدث مع النفر الثلاثة، صبروا على محنة الجسد والفقر المادي، ولم يكن أمامهم سبيل إلى غير ذلك، إلا الكفر الواضح بنعم الله تعالى، فمنّ الله عليهم بوافر الخير، ولكن الدنيا فتنتهم وأنستهم نعم الله عليهم.

فكم من الأمم والشعوب أنعم الله عليها بالخيرات والتقدم والعيش الرغيد، فغرقت في النعيم، واعتادت الدعة، وتكاسلت ثم تراخت ثم عصت ثم كفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والفقر، وربما انحدرت إلى طور البداوة والتخلف مرة ثانية.

إنه درس في النظر إلى الأزمة التي يمكن أن تصيب الفرد والقبيلة، أو الشعب والأمة، فتصبح من بلاء إلى خير ثم إلى بلاء، ولتكون هنا الإضافة الأساسية، ألا تغرق الأفراد والشعوب في إغراءات الدنيا، فتفسد الدنيا عقولهم، وتصدئ قلوبهم، فيجحدوا بالنعم، ويكفرون بالمنعم العظيم.

٣) ابتلاء المرأة والرغبة في الدنيا (قصة جريج والمرضعة) :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ عِيسَى ، وَكَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ جُرَيْجٌ ، كَانَ يُصَلِّي، جَاءَتْهُ أُمُّهُ فَدَعَتْهُ، فَقَالَ : أُجِيبُهَا أَوْ أُصَلِّي. فَقَالَتْ : اللَّهُمَّ لَا تُمِتْهُ حَتَّى تُرِيَهُ وُجُوهَ الْمُومِسَاتِ ، وَكَانَ جُرَيْجٌ فِي صَوْمَعَتِهِ فَتَعَرَّضَتْ لَهُ امْرَأَةٌ ، وَكَلَّمَتْهُ فَأَبَى فَأَتَتْ رَاعِيًا ، فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا ، فَوَلَدَتْ غُلَامًا فَقَالَتْ مِنْ جُرَيْجٍ ، فَأَتَوْهُ فَكَسَرُوا صَوْمَعَتَهُ وَأَنْزَلُوهُ وَسَبُّوهُ ، فَتَوَضَّأَ وَصَلَّى، ثُمَّ أَتَى الْغُلَامَ فَقَالَ مَنْ أَبُوكَ يَا غُلَامُ ؟ قَالَ : الرَّاعِي. قَالُوا نَبْنِي صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ قَالَ لَا إِلَّا مِنْ طِينٍ. وَكَانَتْ امْرَأَةٌ تُرْضِعُ ابْنًا لَهَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ رَاكِبٌ ذُو شَارَةٍ فَقَالَتْ اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهُ فَتَرَكَ ثَدْيَهَا وَأَقْبَلَ عَلَى الرَّاكِبِ ، فَقَالَ اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهَا يَمَصُّهُ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمَصُّ إِصْبَعَهُ ثُمَّ مرَّ بِأَمَةٍ ، فَقَالَتْ : اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هَذِهِ فَتَرَكَ ثَدْيَهَا فَقَالَ اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا فَقَالَتْ لِمَ ذَاكَ ؟ فَقَالَ : الرَّاكِبُ جَبَّارٌ مِنْ الْجَبَابِرَةِ وَهَذِهِ الْأَمَةُ يَقُولُونَ سَرَقْتِ زَنَيْتِ وَلَمْ تَفْعَلْ(٣٧٦).

لقد كان "جريج" أحد عبّاد بني إسرائيل، حُبِّبت إليه العبادة والخلوة الدائمة، فتفرغ للذة التعبد والتهجد، حتى اتخذ لنفسه صومعة يعبد الله فيها على طريقة الرهبنة التي ابتدعها أهل الكتاب ولم يكتبها الله عليهم، لكن بعضهم لم يرعها حق رعايتها، غير أن جريجًا كان ممن حفظ عبادته ورعاها، وأخلص القصد والنية في ذلك. وقد جاءته أمه يومًا لزيارته ومحادثته، فنادته وكان يصلي فلم يجبها، وآثر الاستمرار في صلاته، إنه منشغل في حلاوة المناجاة والاتصال بالله تعالى، فكررت

---

٣٧٥) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله (ابن القيم الجوزية)، تحقيق : محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣ – ١٩٧٣، ج٢، ص٣٠٠.

٣٧٦) صحيح البخاري، رقم ٣٤٣٦، ج٢، ص٤٨٨.

الأم ثلاث مرات النداء، إنها تريد الجلوس معه والأنس بحديثه، وهو لا يلقي لها بالاً ، وكان الواجب عليه أن ينصرف من صلاته ويجيب أمه؛ لأن ذلك أولى من صلاة النافلة، إلا أنه عقَّها في ذلك، وهو العابد الزاهد المخلص، والموقف ظاهره بسيط، ولكنه عظيم في نفس الأم، وهو أحد أوجه العقوق وإن كان صغيرا، والله تعالى أمرنا بطاعة الوالدين وبرّهما، قال سبحانه : {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا}(٣٧٧).

لقد أغضب جريج أمه بتجاهله لها، فتعرّض لدعوتها عليه، ودعوة الوالدين على أبنائهما مستجابة؛ قال رسول الله ﷺ: "ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده"(٣٧٨).

فدعت الأم عليه أن لا يميته الله حتى يريه وجوه الزواني، وإذا أراد الله شيئًا هيّأ له أسبابه حتى يقع، فالصراع بين الحق والباطل قائم منذ خلق الله آدم وإبليس إلى قيام الساعة، في محاولات عاتية من شياطين الإنس والجن لصد الناس عن عبادة الله وطاعته، وإغرائهم بالفاحشة والمعصية، وقيادتهم إلى الغفلة والإعراض، مصداقل لقوله تعالى : { قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}(٣٧٩).

وإلى ذلك يشير الإمام النووي : إنما دعت عليه فأجيبت لأنه كان يمكنه أن يخفف من صلاته ويجيبها، و لعله خشي أن تدعوه إلى مفارقة صومعته والعودة إلى الدنيا وتعلّقاتها والظاهر أنها كانت تشتاق إليه فتزوره وتقتنع برؤيته وتكليمه، ويبدو أنه لم يخفف ثم يجيبها لأنه خشي أن ينقطع خشوعه. وقد ذُكر في حديث " يزيد بن حوشب " عن أبيه أن النبي ﷺ قال : " لو كان جريج فقيها لعلم أن إجابة أمه أولى من عبادة ربه "، وهذا إذا حُمل على إطلاقه استفيد منه جواز قطع الصلاة مطلقا لإجابة نداء الأم نفلا كانت أو فرضا، وهو وجه في مذهب الشافعي حكاه الروياني ، وقال النووي في ذلك : هذا محمول على أنه كان مباحا في شرعهم، وفيه نظر قدمته في أواخر الصلاة، والأصح عند الشافعية أن الصلاة إن كانت نفلا وعلم تأذي الوالد بالترك وجبت الإجابة وإلا فلا، وإن كانت فرضا وضاق الوقت لم تجب الإجابة، وإن لم يضق وجب عند إمام الحرمين، ففي الحديث قيمة عليا وهي : عظم بر الوالدين وإجابة دعائهما ولو كان الولد معذورا ؛ لكن يختلف الحال في ذلك بحسب المقاصد (٣٨٠).

فأول الدروس التي نخرج بها في هذا الحديث أن طاعة الوالدين مقدمة على الصلاة النافلة، ويجوز التخفيف في صلاة الفرض، فبر الوالدين مقدم، وطاعتهما واجبة، وفي جميع الأحوال، طاعة

---

٣٧٧) سورة الإسراء، الآية (٢٣).

٣٧٨) جامع الترمذي، رقم (١٨٢٤).

٣٧٩) سورة ص، الآيتان (٨٢، ٨٣).

٣٨٠) فتح الباري شرح صحيح البخاري، شرح الحديث المذكور، ج٣، ص٥٥٧.

الأم من طاعة الرب، والإحسان إليها عبادة وثواب يبتغيهما العبد... وقد أجيبت دعوة الأم، وتعرض جريج لفتنة المومس، على نحو ما تقدم في القصة.

أيضا، في الحديث : الرفق بالتابع إذا جرى منه ما يقتضي التأديب لأن أم جريج مع غضبها منه لم تدع عليه إلا بما دعت به خاصة، ولولا طلبها الرفق به لدعت عليه بوقوع الفاحشة أو القتل " (٣٨١).

فلا نشتد في الدعاء على الأقربين إلينا رحما ودما، ولا ندعو بما هو شر أو فتنة شديدة، أيضًا ، في الحديث : أن صاحب الصدق مع الله لا تضره الفتن. وفيه قوة يقين جريج المذكور وصحة رجائه ، لأنه استنطق المولود مع كون العادة أنه لا ينطق ؛ ولولا صحة رجائه بنطقه ما استنطقه. وفيه أن الأمرين إذا تعارضا بدئ بأهمهما ، وأن الله يجعل لأوليائه عند ابتلائهم مخارج ، وإنما يتأخر ذلك عن بعضهم في بعض الأوقات تهذيبا وزيادة لهم (٣٨٢).

فالله تعالى اختبر عبده جريج، وناصره، وأنطق المولود ليشهد له بالبراءة، وإن تأخر نصر الله، فإنه تأديب ومزيد من الابتلاء للعبد الصالح.

وعند قراءة هذا الحديث في ضوء علم إدارة الأزمات، نجد جملة أمور :

- في الحديث قصتان، الأولى قصة جريج، والثانية قصة المرأة المرضع، كان الابتلاء في قصة جريج يتمثل في دعاء أمه عليه أن يرى وجوه المومسات ، والابتلاء في القصة الثانية في تشوق الأم المرضعة أن يكون رضيعها له مكانة في الحياة عظيمة. ما يجمع القصتين، هو الحل، والحل في استنطاق المولى تعالى للرضيع في القصتين، فمع قصة جريج، نطق الرضيع مخبرًا أن الراعي أبوه، ومع المرأة المرضعة نطق الرضيع مفضلاً المرأة الأمَة ، على الرجل ذي الشارة ، فالأولى ظُلمت وأُتهمت بالزنا والسرقة وهي براءة منهما ، والرجل ذو الشارة إنما هو جبار ظالم ، وكما قال الرضيع لأمه: الرَّاكِبُ جَبَّارٌ مِنْ الْجَبَابِرَةِ وَهَذِهِ الْأَمَةُ يَقُولُونَ سَرَقْتِ زَنَيْتِ وَلَمْ تَفْعَل.
- إن الرضيع كان مفتاح الفرج ، وأيضًا ناطقا بالحق والخير ، موضحًا المتهم والبريء ، ففي قصة جريج ، برّأ جريجًا من تهمة الزنا والنسب الكاذب ، وفي قصة المرأة، أبان لأمه أن الرجل الذي تحلم أن يكون الرضيع مثله ، إنما هو من جبابرة الأرض وظلّامها، أما الأمة الفقيرة، فهي فاضلة عفيفة شريفة.
- هل هناك أزمة في القصتين ؟ في القصة الأولى، كانت أزمة بالفعل، فجريج عانى من تحقق دعاء أمه ، وصار متهما بين الناس لفترة بأنه زنى وأنجب طفلاً سفاحًا، وعانى من تسلط الناس عليه ، وهدمهم لصومعته ، وسوء سمعته بينهم ، فكانت الأزمة نفسية عميقة ، ونظرًا لأنه مخلص في إيمانه وعبادته، وسأل الله أن ينجيه، فجاء الإنجاء بمعجزة نطق الرضيع.

---

٣٨١) السابق، ج٣، ص٥٥٧.

٣٨٢) السابق، ج٣، ص٥٥٧.

- أما القصة الثانية، فظاهرها لا أزمة فيها، لكنها تشي برغبة الأم المرضعة، أن ترى وليدها في مكانة عالية، وانخدعت بمظهر الرجل الراكب، ولم تعلم أن الأمنية الحقيقية هي تنشئة ابنها في طاعة الله سبحانه.
- جاء الحل في القصتين ربانيًا، وبمعجزة حكاها الرسول ﷺ، متمثلة في نطق الرضيعين، مؤكدًا أن المولى جلَّ شأنه لا يترك عباده الصالحين، وينصرهم بمعجزاته التي لا تنتهي، مما يعطي الأمل في أن الإخلاص الحقيقي في العبادة، والرغبة في نيل مرضاة الرب منجاة للعبد في أشد لحظاته.

٤) الافتراء والإبراء بالمعجزة (قصة موسى):

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : إِنَّ مُوسَى كَانَ رجلاً حَيِيًّا سِتِّيرًا، لَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ، اسْتِحْيَاءً مِنْهُ ف، آذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالُوا: مَا يَسْتَتِرُ هَذَا التَّسَتُّرَ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ إِمَّا بَرَصٌ وَإِمَّا أُدْرَةٌ وَإِمَّا آفَةٌ.

وَإِنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى، فَخَلا يَوْمًا وَحْدَهُ فَوَضَعَ ثِيَابَهُ عَلَى الْحَجَرِ ثُمَّ اغْتَسَلَ فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا، وَإِنَّ الْحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ، فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الْحَجَرَ فَجَعَلَ يَقُولُ: ثَوْبِي حَجَرُ ثَوْبِي حَجَرُ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلَإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ وَأَبْرَأَهُ، مِمَّا يَقُولُونَ وَقَامَ الْحَجَرُ فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبِسَهُ وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا بِعَصَاهُ فَوَاللَّهِ إِنَّ بِالْحَجَرِ لَنَدَبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا فَذَلِكَ قَوْلُهُ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا}[٣٨٣]

لم تكن الأزمة إلا كلام الناس عن موسى النبي عليه السلام، فهو يستحي أن يكشف جسمه، متمسكًا بحيائه الذي يمنعه من التعرّي، ولكن يسلط الله من مخلوقاته وهو الحجر، فيتحرك بثوبه، ويراه الناس عريانا، فيعلمون كذب ما يقولون ويدّعون على موسى، وتكون المعجزة الربانية في ركض الحجر بثوب موسى هي الحل. ولو لم تحدث هذه المعجزة بهذه الكيفية، لظل الناس يتناقلون اتهامهم، ويصدقون كذبهم، وموسى غير حافل، ولن يهتم، لقد نصره الله بكشف جسده، وفضح قومه وأخزاهم.

في القصة دروس عديدة، يمكن الاستفادة منها [٣٨٤]:

- جواز كشف الْعَوْرَةِ عِنْدَ الضَّرُورَةِ الدَّاعِيَةِ لِذَلِكَ مِنْ مُدَاوَاةٍ أَوْ بَرَاءَةٍ مِنْ عَيْبٍ، كَمَا لَوِ ادَّعَى أَحَدُ الزَّوْجَيْنِ عَلَى الْآخَرِ الْبَرَصَ لِيَفْسَخَ النِّكَاحَ فَأَنْكَرَ.

وهذا نستفيد منه في أثناء الأزمة، يباح ما لا يباح في الأوقات العادية، ولو اضطر الإنسان إلى كشف ستره وعورته، حتى يبرأ من التهمة.

وَفِيهَا أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ فِي خَلْقِهِمْ وَخُلُقِهِمْ عَلَى غَايَةِ الْكَمَالِ، وَأَنَّ مَنْ نَسَبَ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَى نَقْصٍ فِي خِلْقَتِهِ فَقَدْ آذَاهُ وَيُخْشَى عَلَى فَاعِلِهِ الْكُفْرُ.

---

٣٨٣) صحيح البخاري، رقم ٣٤٠٤، ج٢، ص٤٧٧، والآية من سورة الأحزاب، رقم (٦٩).

٣٨٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري، شرح الحديث المذكور، ضمن كتاب أحاديث الأنبياء، ص٥٠٥

فالأنبياء دائمًا موضع تهمة من الناس، خاصة المشركون والكفار والعصاة، إنهم يريدون تشويههم والنيل منهم، ليجدوا لأنفسهم مبررا للاستمرار في الغي.

وَفِيهَا مُعْجِزَةٌ ظَاهِرَةٌ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّ الْآدَمِيَّ يَغْلِبُ عَلَيْهِ طِبَاعُ الْبَشَرِ، لِأَنَّ مُوسَى عَلِمَ أَنَّ الْحَجَرَ مَا سَارَ بِثَوْبِهِ إِلَّا بِأَمْرٍ مِنَ اللَّهِ، وَمَعَ ذَلِكَ عَامَلَهُ مُعَامَلَةَ مَنْ يَعْقِلُ حَتَّى ضَرَبَهُ.

وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ أَرَادَ بَيَانَ مُعْجِزَةٍ أُخْرَى لِقَوْمِهِ بِتَأْثِيرِ الضَّرْبِ بِالْعَصَا فِي الْحَجَرِ.

وهذا وجه آخر، فمعجزات موسى عديدة، وهذه المعجزة برّأت موسى من تهمة البرص، وأعلمت قومه بمعجزة راكضة أمام عيونهم.

وَفِيهَا مَا كَانَ فِي الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى الْجُهَّالِ وَاحْتِمَالِ أَذَاهُمْ، وَجَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْعَاقِبَةَ لَهُمْ عَلَى مَنْ آذَاهُمْ. مما يدفعنا إلى الثبات على مواقفنا ومبادئنا، ما دمنا واثقين أننا على حق، وأن الله ناصرنا، ومدبر الخير لنا.

في وضع موسى عليه السلام ثوبه على الحجر ودخوله في الماء عريانا دليل على جواز ذلك، وهو مذهب الجمهور. إنه يستحب التستر لما رواه إسرائيل عن عبد الأعلى أن الحسن بن علي دخل غديرًا وعليه برد له متوشحا به، فلما خرج قيل له، قال: إنما تسترت ممن يراني ولا أراه؛ يعني من ربي والملائكة [٣٨٥].

وأخيراً وليس آخرًا، يشكل هذا الفصل تتمة الباب الثاني، ونهاية فصول الكتاب ولا شك أن الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة والقصص والمواقف، فيها ما لا نهاية له من عبر ودروس، وهذا لا يتأتى إلا بالقراءة المتأنية، والنظر الفاحص مما يجعل قراءة تلك الآثار عائدة بالنفع الدائم، متى قُرِئت ودُرِسَت.

٣٨٥) تفسير القرطبي، ج١٤، ص٢٢٨، ٢٢٩.

الخـاتمـة

عبر صفحات هذه الدراسة، تطرقنا إلى العديد من القضايا التفصيلية وما يتصل بها من القيم والعبر والدروس المستفادة، في العديد من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة والشواهد والآثار المختلفة من السيرة وكتب التفسير والفقه، من خلال منهج الاستقراء والتحليل، وفي ضوء سعينا إلى تأصيل إدارة الأزمة وفق المنظور الإسلامي.

إلا أننا يمكن استخلاص مجموعة من النقاط والتوصيات المهمة، والتي تمثل -في رأي الباحث- الأمور المستفادة بشكل عام، والتي يمكن بلورتها فيما يأتي:

- إن المنظور الإسلامي يختلف عن المنظور الغربي لعلم إدارة الأزمات في كون الثاني منطلقًا من فلسفات مادية وثقافة غربية، تتعامل مع الأزمة في معطياتها وأسبابها وانعكاساتها المادية، وسبل تلافي سلبياتها، أما المنظور الإسلامي فينظر إلى الأزمات بنظرة شمولية، يتناول البعد الروحي والمادي في آن، منطلقًا من توطيد الصلة بين العباد وربهم، مؤكدًا أن تحقيق مقاصد الشريعة الكلية وإقامتها في المجتمع، يمنع الأزمات، ويتدارك آثارها إن حدثت، ويجعلها تجربة مستفادة للأفراد والمجتمع.

- جمع القرآن الكريم في آياته المعجزة في إرشاداته السامية في إدارة الأزمات ما بين الجانب النظري في أحكام عامة، والجانب التطبيقي عبر الكثير من القصص والمواقف المعبرة عن أزمات مختلفة الأسباب والأوجه والنتائج والحلول.

- قدَّم الرسول ﷺ في شخصه العظيم النموذج والقدوة في إدارة الأزمات قبل البعثة وبعدها، وكذلك عبر أحاديثه ومواقفه وإرشاداته، تاركا للبشرية تراثا عظيما، تجب الاستفادة منه، وهذا يتطلب المزيد من البحوث والدراسات للسيرة النبوية العطرة، والأحاديث الشريفة للخروج بفوائد وإجراءات وإرشادات عملية، تضاف إلى الرصيد العلمي في مجال إدارة الأزمات.

- إن ترسيخ علم إدارة الأزمات في المجتمع الإسلامي، وجعله مرجعية تفيد القائمين على شؤون الحكم والإدارة، يتطلب تأصيل هذا العلم من منطلق الثقافة الإسلامية، فلا يُكتفى بالترجمة والنقل المباشرين من الثقافة الغربية، فتلك مهمة أولية، وإنما لابد من إيجاد تراكم معرفي له، عبر قراءة التراث والتاريخ الإسلامي، وفق منهجية إدارة الأزمات، لنتعرف كيف تعامل أجدادنا، قادة ومسؤولين وعلماء، مع الأزمات التي صادفتهم في عصورهم، لنبني على جهودهم، ونستفيد من تجاربهم، ويكون عمقا تراثيا وعلميا لنا، في حياتنا المعاصرة.

- إن قراءة التراث الإسلامي في ضوء علم إدارة الأزمات، يمثل فتحا جديدا في دراسة تراثنا بشكل منهجي ووفق آليات محددة، في مجال التنمية البشرية عامة، وعلم الإدارة خاصة، وكي نخرج برؤى ودروس جديدة، فالتراث الإسلامي زاخر بالكثير، ويمثل مادةً خام، تحتاج إلى جهود حثيثة في الدراسة والبحث، في ضوء المستجدات التي تطرحها العلوم الإنسانية بشكل دائم.

- في دراستنا للإسلام وشريعته في إدارة الأزمات، تبدأ بالقرآن والسنة النبوية المطهرة، ولا تنفصل عن سير الصحابة والقادة المسلمين، الذين آمنوا ونهلوا من القرآن الكريم وسنة الحبيب المصطفى ﷺ، فأبدعوا في إدارتهم للأزمات التي مرَّ بها المجتمع المسلم سِلمًا وحربًا، وهي رصيد

- يضاف إلى التأصيل الشرعي المستقى من مصادر الشريعة وعلم الأصول والفقه.
- من الخطأ المنهجي والعلمي، أن نقرأ الأزمة في بعد واحد أو بعدين، فلابد من الدراسة الشاملة للأبعاد المادية والمعنوية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وهذا مستفاد من نهج الإسلام، الذي يبدأ فيه الفقيه والعالم من المقاصد، ثم النظر في الكلي، ثم الجزئي، في رؤية متصلة، بين المقاصد والكليات والجزئيات، وهذا يتيح الكثير من المستفاد كلما أمعنا النظر والبحث.

ونختم بقول المولى تبارك تعالى، عن عباده في الجنة :

{ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [٣٨٦].

---

٣٨٦)سورة يونس، الآية (١٠)

المصادر و المراجع

أولاً: الكتب

- اتجاهات الفلسفة المعاصرة، إيميل برسيه، ترجمة: محمود قاسم، سلسلة الألف
- الأحكام السلطانية، علي بن محمد بن حبيب الماوردي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٩هـ، ١٩٨٩ م.
- اجتهاد الرسول ﷺ ، د. نادية شريف العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م
- إدارة الأزمات، د. أحمد ماهر، منشورات: الدار الجامعية، الإسكندرية، ٢٠١٠م.
- إدارة الأزمات، د. رشاد الحملاوي، مكتبة عين شمس، القاهرة، ١٩٩٣م.
- إدارة الأزمات، التخطيط لما قد لا يحدث، من إعداد: مختارات بميك، إشراف د. عبد الرحمن توفيق، ترجمة: علا أحمد صلاح، الناشر: مركز الخبرات المهنية للإدارة (بميك)، ط٣، القاهرة، ٢٠٠٩م .
- إدارة الأزمات في عالم متغير، د. عباس رشدي العماري، ، نشر: مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٩٣م.
- إدارة الأزمات والكوارث، د. فاروق العمر، دار قرطاس للنشر، الكويت، ١٩٩٨م.
- إدارة التوتر، مقدمة في علم التوتر المحلي والدولي، إعداد: د. محسن الخضيري، إيتراك للنشر والتوزيع ، القاهرة، ٢٠٠٩م
- إدارة الضغوط ، إعداد : د. جمعة سيد يوسف ، منشورات مركز تطوير الدراسات العليا ، جامعة القاهرة، ٢٠٠٧.
- إدارة ومعالجة الأزمات في الإسلام، د. سوسن سالم الشيخ، دار النشر للجامعات، القاهرة، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.
- أدب الدنيا والدين، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماورديّ، تحقيق: مصطفى السقا، سلسلة التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٩.
- الإسلام والمعضلات الاجتماعية الحديثة ، مجموعة من الباحثين ، بحث بعنوان : الإسلام والاقتصاد ، للبروفيسور الباكستاني:محمد ن. هدى، منشورات دار الكاتب العربي، ودار الشوّاف، ط١، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م
- أصول السرخسي، للإمام الفقيه أبي بكر محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي (ت ٤٩٠هـ)، تحقيق: أبو الوفا الأفغاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ، ١٩٩٩م
- اقتصاد يغدق فقرا، هورست افهيلد، ترجمة: د. عدنان عباس علي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، يناير ٢٠٠٧م.
- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، الناشر: مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الخامسة ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م
- البداية والنهاية، الإمام عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، الشهير بـ الحافظ ابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت، ط٢، ١٤١١ هـ، ١٩٩٠م.
- تاريخ الفكر الاقتصادي، الماضي صورة الحاضر، جون كينيث كالبرث، ترجمة: أحمد فؤاد بلبع، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ٢٠٠١ م.

- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت
- تفسير البحر المحيط، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان، تحقيق: عادل أحمد، علي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م، ، ج٣، ص ٣٩٦.
- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، د ت.
- تفسير الكبير المسمى البحر المحيط، ثير الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف الأندلسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- تفسير اللباب في علوم الكتاب، الشيخ العلامة سراج الدين ابن عادل أبي حفص عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي/ ت بعد ٨٨٠ هـ، بتحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٩ هـ، ١٩٨٩م.
- جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير، أبو جعفر الطبري، تحقيق : أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.
- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين من جوامع الكلم، للإمام زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين بن أحمد، ابن رجب الحنبلي، اعتنى به : حسن أحمد إسبر، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٩م.
- الجامع لأحكام القرآن، للإمام محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت، د ت.
- جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام، شيخ الإسلام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ين سعد... المعروف بابن قيم الجوزية، ت٧٥١، نشر: مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة – الرياض، ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م
- جولة في ذات المسلم (البناء النفسي للمسلم المعاصر)، خليفة عبد الله التونسي، مكتبة البيان، الكويت، ط١، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م
- حقوق الإنسان محور مقاصد الشريعة، .د أحمد الريسوني، .د محمد الزحيلي، د محمد عثمان شبير، سلسلة كتاب الأمة، وزارة الأوقاف، قطر، العدد ٨٧.
- الدرّ المنثور، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، الناشر: دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣.
- دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي، د.يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٥هـ.
- الرحيق المختوم (بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام) الشيخ صفي الرحمن المباركفوري، نشر: المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م.
- الرقابة والمراجعة الداخلية، د. عبد الفتاح محمد الصحن ـ د. محمد السيد سرايا، الدار الجامعية للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٧

- الروايات التفسيرية في فتح الباري ، عبد المجيد الشيخ عبد الباري ، رسالة دكتوراه ، الناشر : وقف السلام الخيري، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٦ مـ.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، المؤلف : محمود الألوسي أبو الفضل ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د ت.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، شهاب الدين محمود ابن عبدالله الحسيني الألوسي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د ت.
- السعادة... موجز تاريخي ، نيكولاس وايت ، ترجمة : سعيد توفيق ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، أكتوبر ٢٠١٣م
- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها ، محمد ناصر الدين الألباني ، نشر : المكتب الإسلامي ، دمشق ، ١٣٩٢هـ ، ١٩٧٢م
- سنن ابن ماجة ، محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني ، تحقيق وتعليق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، مزيل بأحكام للألباني .
- سنن الترمذي ، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي ، دار الكتب العلمية ، بيروت.
- السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة ، محمد فريد وجدي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٩م.
- السيرة النبوية ، لأبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري ، المعروفة بسيرة ابن هشام ، تحقيق وتخريج : جمال ثابت ، محمد محمود ، سيد إبراهيم ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٤ ، ٢٠٠٤م
- سيكولوجية الذاكرة : قضايا واتجاهات حديثة ، د. محمد قاسم عبد الله ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، فبراير ٢٠٠٣.
- شرح النووي على مسلم ، الإمام يحيي بن شرف أبو زكريا النووي ، دار الخير ، ١٤١٦هـ ، ١٩٩٦م
- شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه ، للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير ، تحقيق : مصطفى عبد الواحد ، مطبعة عيسى البابلي الحلبي ، القاهرة ، ١٣٨٦هـ ، ١٩٦٧م.
- صحيح السيرة النبوية (ما صح من سيرة رسول الله ﷺ وذكرُ أيامه وغزواته وسراياه والوفود إليه " ، للحافظ ابن كثير ، تحقيق : الشيخ محمد ناصر الدين الألباني (رحمه الله) ، المكتبة الإسلامية ، عمان ، الأردن ، ط١ ، ١٤٢١هـ
- صحيح مسلم ، المسمى الجامع الصحيح ، الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري ، مرتبة وفق ترتيب المعجم المفهرس لألفاظ الحديث ، ومطابقة لترقيم نسخة العلامة محمد عبد الباقي ، نشر : دار الجيل ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٦هـ ، ٢٠٠٥م.
- صنع القرار السياسي في منظمات الإدارة العامة ، د. السيد عليوة ، سلسلة الألف كتاب الثاني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٧م.
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، محمود بن أحمد العيني بدر الدين أبو محمد العيني ، إحياء التراث العربي - بيروت.
- عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية ، د. يوسف القرضاوي ، نشر : اللجنة العليا للعمل على استكمال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ، الديوان الأميري ، الكويت ، ١٩٩٥م

- فتاوى نور على الدرب، سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، تحقيق: عبد الله بن محمد الطيار، محمد بن موسى بن عبد الله الموسى، نشر: مؤسسة الشيخ عبد العزيز بن باز للخير.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، محمد بن علي الشوكاني ، مؤسسة الرسالة، بيروت، د ت.
- فتح المنعم شرح صحيح مسلم موسى شاهين لاشين، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م .
- الفِقْهُ الإسلاميُّ وأدلَّتُهُ ، الشَّامل للأدلّة الشَّرعيَّة والآراء المذهبيَّة وأهمّ النَّظريَّات الفقهيَّة وتحقيق الأَحاديث النَّبويَّة وتخريجها، د. وَهْبَة الزُّحَيْلِيّ، دار الفكر ، دمشق، سوريَّة، الطَّبعة الرَّابعة المنقَّحة المعدَّلة، دار الفكر، دمشق،
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٨ م.
- قصص القرآن، علي محمد البجاوي، السيد شحاتة، محمد أبو الفضل إبراهيم، محمد أحمد جاد المولى ، دار الرائد العربي، بيروت، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
- قيادة الذات وإدارتها، نسيبة عبد العزيز العلي المطوع، سلسلة رؤية تربوية، ط٢، الكويت، على نفقة المؤلفة، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط ١، د ت.
- المجتمع الإسلامي في ظل العدالة، د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٦
- مجموع الفتاوى، ابن تيمية، جمع: عبد الرحمن بن قاسم، مكتبة المعارف، الرباط.
- المجموع، الإمام النووي، يحيى بن شرف بن مُرِّيٍّ بن حسن بن حسين بن محمد جمعة بن حِزام، تحقيق: محمد نجيب، دار عالم الكتب، الرياض.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن القيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣ – ١٩٧٣.
- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان محمد القاري، دار الفكر، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢.
- معالم التنزيل، المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤ م، ١٤٢٥هـ.
- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة، لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب (ابن قيم الجوزية)، دار الكتب العلمية، بيروت.
- مقومات التصور الإسلامي، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٨٦م.

- المصنف لابن أبي شيبة، للإمام أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، ت ٢٥٩ هـ، تحقيق: محمد عوامه، نشر: دار القبلة (جدة)، مؤسسة علوم القرآن (دمشق)، ط١، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.
- مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق: د. السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م
- الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي، شرح وتعليق: د. محمد عبد الله دراز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦
- موسوعة السياسة ، تحرير : د. عبد الوهاب الكيالي وآخرون ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م.
- موسوعة القضايا الفقهية المعاصرة والاقتصاد الإسلامي ، د. علي السالوس ، نشر : مكتبة القرآن ، القاهرة، ط٧، ٢٠٠٢م
- نحو استراتيجية علمية في مجال مواجهة الأزمات، د. محسن عبودي، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٣م .
- نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، الشيخ محمد الخضري، تعليق وضبط: إبراهيم محمد علي، دار الجيل (بيروت)، دار عمار (عمّان)، ط١، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
- نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت د ت، مصورة عن طبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

ثانيًا: الدوريات والمجلات

- التخطيط الإداري بين المفهوم الإسلامي والمفهوم الوضعي، د. فيصل بن أحمد شعيبي، بحث منشور في مجلة: الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، السنة ١٧، العدد ٥١، شوال – ديسمبر ٢٠٠٢.
- التوسل المشروع والممنوع، د. عواد بن عبد الله المعتق، بحث بمجلة البحوث الإسلامية، الرئاسة العامة للإفتاء والبحوث العلمية، عدد٧٤، ١٤٢٥/ ١٤٢٦هـ
- المنظور الشرعي للتكافل المعيشي بين الجماعة في أوقات الأزمات والمجاعات د. عمر فيحان المرزوقي، بحث بمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، العدد ٧٨، رمضان ١٤٣٠هـ، سبتمبر ٢٠٠٩م.
- البلاغة النبوية وأثرها في النفوس، د. حسن جاد، بحث منشور في مجلة البحوث الإسلامية، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، الرياض، العدد الخامس، ١٤٠٠هـ
- شروط النصيحة في الإسلام، د. الخشوعي الخشوعي محمد، مجلة التبيان، الجمعية الشرعية الرئيسية، القاهرة، العدد ٤١، ٢٠٠٧.
- مفهوم الابتلاء في القرآن الكريم، د. نصار أسعد نصار، بحث منشور في مجلة جامعة دمشق، المجلد ٢٠، العدد الأول ٢٠٠٤ م
- وقفات مع آيات الإفك، د.عبد العزيز بن عبد الله الخضيري، بحث منشور في مجلة البحوث الإسلامية، الصادرة عن الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، الرياض، ربيع الأول إلى جمادى ١٤٣٠هـ، رقم الجزء: ٨٧
- وجوب الرفق بالحيوان وتحريم ظلمه وتعذيبه، الشيخ عبد الله بن حمد العبودي، بحث منشور بمجلة البحوث الإسلامية، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، الرياض، المملكة العربية السعودية، العدد (٣٤)، ١٤١٢هـ

ثالثًا: مواقع على شبكة الإنترنت

- الحكمة في إبطال التبني في الإسلام، د. وهبة الزحيلي، دراسة على موقع: http ://www.onislam.net
- سياسات الرفاه الاقتصادي والاجتماعي في قطر: طبيعتها وانجازاتها وآثارها السياسية، عبد الكريم محمود الدخيل، مركز البحوث والدراسات السياسية، جامعة القاهرة، ١٩٩٣، وانظر أيضا: دولة الرفاه، جون جيل، ترجمة:يوسف شحادة على موقع clickit3.ort.org.il/APPS/Public/GetFile.aspx?inline
- رؤى في أحاديث القصص، قصة أصحاب الغار، عبد اللطيف البريجاوي، دراسة على موقع صيد الفوائد http ://www.saaid.net/Doat/brigawi/14.htm
- المجاعات في أفريقيا، تقرير إخباري، إعداد: عبد العظيم محمد الشيخ، على موقع " الجزيرة نت "

الإخباري، بتاريخ السبت ١٤٣٣/٦/٢٧ هـ - الموافق ٢٠١٢/٥/١٩ م ، على الرابط
www.aljazeera.net/news/pages/1e60be1d-41f4-47c6-b501-9f3a69097b6f

رابعًا: رسائل جامعية غير منشورة

-الدلالات التربوية لمفهوم التقوى في القرآن الكريم، عبد الله يوسف عبد النبي عوض، رسالة ماجستير، كلية التربية، قسم أصول التربية، الجامعة الإسلامية، غزة، ١٤٣٠ هـ، ٢٠٠٩ م.

- منهج الرسول في التربية من خلال السيرة النبوية، منال موسى علي دبابش، رسالة ماجستير، (نشر إلكتروني)، الجامعة الإسلامية، غزة، كلية التربية، قسم أصول التربية، العام ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م

المؤلف في سطور

- روائي ومسرحي وناقد وباحث أكاديمي
- عضو اتحاد كتاب مصر، ونادي القصة بالقاهرة.
- عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية، الرياض.
- عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.
- صدر له :

١- وجوه للحياة، مجموعة قصصية، نصوص ٩٠، القاهرة، ١٩٩٧م

٢- نثيرات الذاكرة، الجائزة الأولى في الرواية، دار سعاد الصباح، القاهرة/ الكويت، ١٩٩٩م

٣- دلالة الزمن في السرد الروائي، نقد، جائزة النقد الأدبي، الشارقة، ٢٠٠١م

٤- شرنقة الحلم الأصفر، رواية، الجائزة الثانية في الرواية عن نادي القصة المصري، ٢٠٠٢، ومركز الحضارة العربية، ٢٠٠٣م.

٥- طفح القيح، مجموعة قصصية، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٥م.

٦- أشكال السرد في القرن الرابع الهجري، نقد، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٦

٧- أمطار رمادية، مسرحية، مركز الحضارة العربية بالقاهرة، ٢٠٠٧م.

٨- هيكل سليمان (إسلاميات)، دار الفاروق للنشر، القاهرة، ٢٠٠٨م.

٩- ما بعد الحداثة في الرواية العربية الجديدة، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠١٠.

١٠- نتوءات قوس قزح، رواية، سندباد للنشر، القاهرة، ٢٠١٠.

١١- اللحمة والسداة، نقد أدبي، سندباد للنشر، القاهرة، ٢٠١٠

١٢- الرحمة المهداة، خلق الرحمة في شخصية الرسول ﷺ، إسلاميات، مركز الإعلام العربي، القاهرة، ٢٠١١ م.

١٣- مقيم شعائر النظام، مسرحيات، دار الأدهم للنشر، القاهرة، ٢٠١٢م.

١٤- قطر الندى، مجموعة قصصية، مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠١٣م.

١٥- الظلال والأصداء، نقد أدبي، مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠١٤م.

١٦- سفينة العطش، مسرحية للأطفال، مكتب التربية العربي، الرياض.

١٧- المحطة الفضائية الدولية، رواية للأطفال، مكتب التربية العربي، الرياض.

١٨- رواد فضاء الغد، روايتان للأطفال، منتدى الأدب الإسلامي، المركز العالمي للوسطية، الكويت ٢٠١٤م. وطبعة ثانية عن دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني، مصر، ٢٠١٧م

١٩- لكل جواب قصة، مسرحيات للأطفال، نشر: منتدى الأدب الإسلامي، المركز العالمي للوسطية، الكويت ٢٠١٤م.

٢٠- الحوار في السيرة النبوية، مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠١٥م.

٢١- شعرية الفضاء الإلكتروني، مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠١٦م.

٢٢- الوعي والسرد، دار النسيم للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١٦م.

٢٣- سوق الكلام، مسرحيات، دار النسيم للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١٦م.

٢٤- السرد في التراث العربي: رؤية جمالية حضارية، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، ٢٠١٧م.

٢٥- الإسلام والتنمية المستدامة، مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠١٧م.

٢٦- القرن المحلّق: الرواية الإفريقية وما بعد الاستعمار، منشورات جائزة الطيب صالح العالمية، الخرطوم، ٢٠١٧م.

٢٧- وسطية الإسلام في حياتنا الفكرية المعاصرة: وسطية الإسلام: قضايا التجديد والثقافة والمعاصرة، منشورات موقع الألوكة، الرياض، ٢٠١٨ م.

٢٨- منهج الرسول ﷺ في إدارة الأزمات، مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة٢٠١٨م.

- جوائز دولية:

جائزة مسابقة الألوكة الدولية في مجال البحوث الإسلامية، عن كتاب " وسطية الإسلام في حياتنا الفكرية المعاصرة "، الرياض، ٢٠١٧ م.

- جائزة الاستحقاق ضمن جوائز ناجي نعمان الأدبية، عن بحث " ما بعد الحداثة في السينما العالمية "، بيروت، ٢٠١٧م.

- جائزة الطيب صالح في النقد الأدبي، العام ٢٠١٧م، عن كتاب " القرن المحلّق: الرواية الإفريقية وأدب ما بعد الاستعمار ".

- جائزة مركز جيل للدراسات والبحوث عن بحث: النقد العربي والنقد الغربي (نهج التلقي والتفاعل والتقييم)، ٢٠١٥ م.

جائزة مختبر السرديات بالأسكندرية، عن بحث "اختراق الوعي في سرد محمد حافظ رجب"، ٢٠١١م.

- جائزة اتحاد كتاب مصر (علاء الدين وحيد في النقد الأدبي) عن كتاب اللحمة والسداة، ٢٠١١م.

- جائزة مكتب التربية العربي لدول الخليج العربية، في أدب الطفل، عن رواية المحطة الفضائية الدولية، ومسرحية سفينة العطش، ٢٠١١م.

- جائزة المركز الأول في النقد الأدبي، مسابقة إحسان عبد القدوس، القاهرة ٢٠٠٩م.

- الجائزة الأولى في الرواية، دار سعاد الصباح، الكويت، ١٩٩٩م.

- الجائزة الثالثة في النقد الأدبي، جائزة الشارقة، ٢٠٠٠ م.

- الجائزة الثانية في الرواية، نادي القصة، القاهرة، ٢٠٠١ م.

- الجائزة الثانية، لجنة العلوم السياسية، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ١٩٩٩م، بحث مصر والعولمة.

- الجائزة الثالثة، مركز الخليج للدراسات السياسية والاستراتيجية، القاهرة/ البحرين، ٢٠٠٢م، بحث مؤشرات التطور الديمقراطي في البحرين.

- أربع جوائز عن بحوث فكرية في مسابقة الكويت الدولية الإسلامية،

- ثلاث جوائز عن قصص قصيرة في مسابقة الكويت الدولية الإسلامية

- جائزة (المركز الثاني) في مسابقة الشخصيات الخيرية في الكويت، ٢٠٠٧م

- البريد الإلكتروني : mostafa_ateia123@yahoo.com

mostafaateia@gmail.com



+2 01288890065

www.shams-group.net